

مارس ٢٠٠٨ - العدد ٢٧١

عدد خاص

رجاء النقاش:
صائد اللؤلؤ

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى

تأسست عام ١٩٨٤ /السنة الرابعة والعشرون

العدد ٢٧٢ مارس ٢٠٠٨



أدب ونقد

مستشار التحرير: **فريدة النقاش**

المشرف الفني: **أحمد السجينى**
إخراج فني: **عزة عز الدين**
مراجعة لغوية: **أبو السعود على**

الرسوم الداخلية للفنان :**محمود الهندى**
لوحة الغلاف الأمامى للفنانة: **نرمين بهاء**

الاشتراكات لمدة عام
باسم الأهالى/ مجلة (أدب ونقد): داخل مصر ٧٥ جنيها
البلاد العربية ٧٥ دولارا/ أوروبا وأمريكا ١٠٠ دولارا

يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدى أو البريد الإلكترونى:
Editor @ al - ahaly. com

المراسلات: مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة/ ميدان طلعت حرب
القاهرة/ هاتف ٢٥٧٩١٦٢٨/٢٩ فاكس ٢٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات



مفتتح

المبشّر

حلمى سالم

قلتُ في مستهل تقديم احتفالية حزب التجمع ونقابة الصحفيين - بل احتفالية الثقافة المصرية كلها - برجاء النقاش: «إن هناك شخصين في الأسطورة اليونانية: شخصاً كلما لمس شيئاً صار حجراً أو حديداً، وشخصاً كلما لمس شيئاً أو تراباً صار تبراً.

رجاء النقاش هو الشخص الثانى فى الأسطورة . الشخص الذى يلمس الأشياء فتتحول إلى جواهر ودُرٍ وماسٍ وذهبٍ وحجر كريم».

حدث ذلك التحول الأسطوريُّ فى كل منبر ثقافى أوصحفى قادة رجاء النقاش. وحدث ذلك - كذلك - مع كل أديب أو شاعر أو فنان قدّمه رجاء النقاش إلى الحياة المصرية والعربية.

لم نكن ندرى (والحياة الثقافية المصرية والعربية تحتفل بمسيرة ومسار وفضل الرجل) أن هذه الاحتفالية هى أغنية البجعة الأخيرة. إذ رحل الرجل بعد أقل من أسبوعين من هذه الاحتفالية (التى كانت استفتاء عمومياً على محبة المحبوب).

قد ترحل البجعات ، لكن الأغانى لا تموت.

كيف يمكن للمرء أن يحيط برجاء النقاش - أو ببعض بعضه - فى سطور أو صفحات قليلة؟

×××

كيف يستطيع المرء أن يبين فضله - وهو متنوع متشعب - على الحياة المصرية والعربية المعاصرة: أفراداً وجماعات ومؤسسات وحياة ثقافية بكاملها؟

هذا سعى مستحيل، وإذن ليس على مثل هذا المرء سوى أن يتجه

وجهة أخرى، هى أن يلمح إلماحات موجزة عابرة سريعة، إلى بعض مآثر حضور النقاش فى الدنيا المصرية ،والعربية، الراهنة.

يمكن أن نشير إلى دعمه المبكر لتجربة شعراء الحداثة المصرية من جيل السبعينيات. وقد ذكرت من قبل - فى غير موضع - تعضيده المعنوى والمادى لنا أثناء نشوء جماعتنا ومجلتنا الشعرية ،إضاءة٧٧، ولا سيما فى أعدادها الأولى، وعطفه على شعرائها، حيث تجلى ذلك فى كتابته تقديم ديوان حسن طلب الأول ،وشم على نهدى فتاة ،١٩٧٣، وكتابته مقالاً ضافياً عن العدد الأول من مجلة ،إضاءة ٧٧، بعنوان ،ماذا تريدون أيها الشعراء؟، فى المصور (١٩٧٧) ومازلت أذكر إعجابه الشديد - فى ذلك المقال - بشعر على قنديل (الشهاب الشاب الذى كان قد رحل قبل صدور المجلة، التى حلم بها معنا ، قبل عامين).

ثم قدم بعد ذلك ملفاً شعرياً فى ،الهلال، عن عشرة شعراء جدد كان معظمهم من جيل السبعينيات، وعندما انشأ مجلة ،الدوحة، أوائل الثمانينيات تابع نشر الشعر الجديد فيها، لاسيما قصائد حسن طلب البنفجسية الجريئة، وخاصة قصيدته الغرائبية ،بنفسجة للجحيم، التى كتبها على هيئة مثلثات هندسية متناظرة.

ويمكن أن نشير إلى النموذج الباهر الاستثنائى الذى قدمه رجاء النقاش مع أحمد عبد المعطى حجازى فى ديوان ،مدينة بلا قلب،. ولكى نعرف مدى فرادة هذه التجربة الفريدة نوضح أن ديوان ،مدينة بلا قلب، لحجازى صدر عام ١٩٥٩، وهذا معناه أن حجازى كان فى الرابعة والعشرين (فهو مواليد ١٩٣٥) وأن رجاء النقاش كان فى الخامسة والعشرين (فهو مواليد ١٩٣٤) حينما كتب مقدمته الضافية اللامعة المقتحمة لهذا الديوان المقتحم، فانظر إلى هذه الأمثولة السامقة: شابان فى الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين: أحدهما يقدم عملاً شعرياً فاتحاً شجاعاً، وثانيهما يقدم عملاً نقدياً مواكباً فاتحاً شجاعاً.

واحسب مقدار الشجاعات والاجتراءات الفنية والفكرية، ومقدار التفتح الوجدانى والرؤيوى والإنسانى الذى يمكن أن تنطوى عليه هذه الأمثولة الرائدة.

وإذا تذكرنا أن هذه التجربة الجديدة قد ظهرت فى واقع ثقافى كان مايزال يذخر بأساطين التقليد من أمثال عزيز أباظة وعباس العقاد وزكى نجيب محمود، ومازال يطرب مع الغناء الرومانتيكى العذب من على محمود طه وإبراهيم ناجى وأبى شادى وصالح جودت وغيرهم من عتاة الرومانتيكية الكلاسيكية الهائمة، أدركنا حجم المخاطرة الخطرة فى فعل هذين الشابين.

صحيح أن هذه اللجة التقليدية كانت قد اخترقتها بعض الشذرات الجامحة الطامحة مثل شعر عبد الرحمن الشرقاوى وشعر لويس عوض ثم وشعر صلاح عبد الصبور فى ديوانه الأول «الناس فى بلادى (١٩٥٧)، لكن مجمل الأوضاع الثقافية الشعرية كان يشير إلى هيمنة الكلاسيكية والكلاسيكيين، وهو ما يعنى أن إنجاز هذين الشابين لهذه التجربة المكتملة (الديوان ومقدمته) كان بحق «حادثة، من كبار الحوادث على ضفاف النيل فى الثقافة المصرية الحديثة (إذا استعرنا تعبير شوقى).

هذا المعنى هو ما عبر عنه حجازى نفسه حين قال إن الديوان ومقدمته كانا مشروعاً مشتركا بين الشاعر والناقد. مشروع صعد بهما معاً إلي ذروة النضج وصدارة المشهد الشعرى والنقدى.

وعندى أن مقدمة رجاء النقاش لديوان حجازى تظل - إذا قيست إلى زمنها ولحظتها التاريخية والثقافية منذ نحو خمسين عاماً - وثيقة نقدية باقية ودرساً لا ينضب فى محبة الشعر والجمال والروح المتوثبة، حتى لو اختلفت - بمقياس اللحظة الراهنة - مع ميلها الواضح إلى شرح المضامين الفكرية والإنسانية فى القصائد أكثر من ميلها إلى استبصار الطرائق الفنية المغايرة والأساليب الجمالية الجديدة.

والمؤكد أن هذه المقدمة التاريخية لديوان حجازى قد مثلت سنداً كبيراً مبكراً لحركة الشعر الحر فى مصر، ساعدته على الانتصار فى معركته ضد التقليد والسكون، حتى صار شكل الشعر الحر هو الشكل السائد فى العقود الثلاثة التالية ، إلى أن بدأت تزاحمه مؤخراً قصيدة النثر.

ولم يقتصر إسناد رجاء النقاش لحركة الشعر الحر على مصر وحدها، بل امتد إلى مجمل حركة الشعر الحر العربية، وهو ما تجلى فى مبادرته الكبيرة بتعريف القارئ المصرى على شعر محمود درويش وشعر المقاومة الفلسطينية بعامة، حينما نشر فى «الهلال» - أواخر الستينيات - ديوانا كاملا لدرويش هو «آخر الليل». كما تجلى فى كتابه الفاتح «محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة».

واستمر تعضيد النقاش للشعر، لاسيما الجديد منه ، طوال مشواره الثقافى النقدى الخصيب، حتى وصل إلى ذروة من ذراه فى سفره الضخم «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء» منتصف الثمانينيات.

ويمكن أن نشير إلى إنجازه الصحفى المتواصل، فهذا الرجل هو «صانع صحافة مضيئة بامتياز». ما من منبر صحفى تولاه رجاء إلا وقفز من الظلمات إلى النور، فى وثبة واحدة.

ثمة مدرسة فى الصحافة المصرية يصح أن نطلق عليها وصف «مدرسة الاحياء». من رواد هذه المدرسة محمد التابعى وأحمد بهاء الدين وصلاح حافظ وكامل زهيرى. رجاء النقاش واحد من أبناء هذه المدرسة المباركة التى يتولى أحدها منبراً «صحيفة أو مجلة» بلا يلبث هذا المنبر أن يزدهر ويتفوق ويلمع . صنع النقاش ذلك مع المصور والهلال والإذاعة والتليفزيون والكواكب.

ووصل هذا الصنيع إلى قمة توهجه مع مجلة «الدوحة» التى أنشأها فى قطر فى الثمانينيات. هذه المجلة التى صارت - فور صدورها - قبلة المثقفين العرب، وغدت إحدى مواقع تشكيل الوجدان الثقافى والوعى المعرفى للنخبة العربية والقراء العرب على السواء.

صارت مجلة «الدوحة» نموذجاً من نموذجين اثنين يضرب بهما المثقفون المثل على «دور المنبر الإعلامى فى صنع دولة» وليس العكس. النموذج الأول كان فى الثمانينيات حينما صارت «مجلة الدوحة» علامة على دولة قطر، والنموذج الثانى نشأ فى بداية القرن الحادى والعشرين «ولايزال» حينما صارت «قناة الجزيرة» علامة على دولة قطر!

ما هى الأسس التى عليها يقوم إنهاض النقاش «وسائر مدرسته المباركة» المنبر الذى يتولاه فيقفز به من الظلمات إلى النور؟

عندى أن رجاء النقاش يبنى نهضته بالمنبر الذى يتولاه على مبادئ أربعة:

الأول: هو الديمقراطية، واحترام كل رأى جاد، والاعتداد بوجهة النظر المقابلة، واحتضان كل التيارات الفكرية الجادة، حتى ليغدو المنبر الذى يديره أشبه بالجبهة الوطنية الديمقراطية المفتوحة.

الثانى: هو الذهاب إلى القيمة «الحية» النابضة، لا الجامدة الميتة، فى الفن والفكر والاجتماع والسلوك والرأى، وفى كل ما ينطوى على معنى حقيقى دافع لليقظة والتجدد والتقدم.

الثالث: هو الإتقان والجودة فى الأداء، والابتعاد عن الفهلوة والركاكة واستغفال القارئ.

الرابع: هو المحبة: محبة العمل ومحبة الجمال ومحبة الوطن ومحبة الآخر ومحبة كل صاحب محبة كبيرة، سواء فى السياسة أو فى الفلسفة أو فى الحقل الاجتماعى أو فى أصغر العواطف.

بهذه المبادئ الأربعة الأساسية، وما يتفرع عنها من قيم ومعان عديدة، قاد رجاء النقاش معجزته الصحفية المتكررة: إخراج المنبر الصحفى

من الظلمات إلى النور.

•••

ويمكن أن نشير إلى دوره كناقد مسرحى بارز له «مقعد أمام الستار» ساهم فى النهضة المسرحية الجادة طوال الستينيات، أيام كان هناك مقعد وأيام كان هناك ستار وأيام كان هناك مسرح. سقا الله الأيام الخوالى.

ويمكن أن نشير إلى نقده الروائى، لاسيما روايات الأرض المحتلة، ومغامرته في تقديم رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلي الشمال»، وإضاءة عالم نجيب محفوظ وبخاصة فى كتابه الحوارى الكبير مع أديب نوبل. وأن نشير إلى جهده التنويرى والتثقيفى العمومى، بوصفه واحداً من كبار المبشرين فى ثقافتنا المعاصرة، وأن نشير إلى إسهامه الملحوظ فى التأريخ الثقافى والفكرى لمصر المعاصرة والحديثة.

•••

الصفحات القادمة تحية بسيطة إلى ذلك الفتى الذى يكلم المساء (حسب وصف قصيدة حجازى عنه). تحية لا ترقى إلى قامته العالية، ولا تطاول معناه الجليل. لكنها محض «سلام سلاح» - كما يفعل الجنود للقادة العسكريين المظفرين - تعبيراً عن التلمذة والامتنان والعرفان الجميل.

تتصدر هذه الصفحات، الكلمات التى قيلت فى تكريم الرجل بنقابة الصحفيين والرسائل التى بعث بها بعض الكتاب العرب إلى الاحتفالية، تركناها كما هى بما تحفل به من تمنيات للرجل بالصحة وطول العمر والمقاومة.

ولم يكن قائلوها يعلمون أن القدر لن يستجيب لأمنياتهم إلا اياماً، وأن مقاومة «صائد اللؤلؤ» كانت قد وهنت بعد عامين من الصراع مع المرض الخبيث، وبعد أربعة وسبعين عاماً من الصراع مع الحياة المصرية والعربية الطاحنة.

وتلت هذه التحايا الاحتفالية الكلمات والمقالات التى كتبها محبو الفتى الجميل بعد طيرانه إلى السحب البيضاء (وقد اقتطفنا بعضها من مصادر مختلفة).

أما المحبة التى غمرت كل الكلمات - قبل الطيران وبعده - فكانت الثروة التى حصلها الرجل الذى كان، كإخناتون، «العائش فى الحق».

يا رجاء النقاش:

عليك سلام الله والوطن (كما قال صلاح عيسى).

عليك المودة والورد والشعر:

يا أخانا الذى فى السماء.

أدب ونقد

شعر

إلى اللقاء

(إلى رجاء النقاش)

أحمد عبد المعطى حجازى

(١)

يا أصدقاء!
لشد ما أخشى نهاية الطريق
وشد ما أخشى تحية المساء
«إلى اللقاء»!
اليمة «إلى اللقاء» واصبحوا بخير!
وكل ألفاظ الوداع مرة
والموت مر
وكل شىء يسرق الإنسان من إنسان!

(٢)

شوارع المدينة الكبيرة
قيعان نار
تجتر فى الظهيره
ما شربته فى الضحى من اللهيب
يا ويله من لم يصادف غير شمسها
غير البناء والسياج، والبناء، والسياج
غير المربعات، والمثلثات، والزجاج

يا ويله من ليله فضاء
ويوم عطلته
خال من اللقاء
يا ويله من لم يحب
كل الزمان حول قلبه شتاء!

(٣)

يا أصدقاء!
يا أيها الأحياء تحت حائط أصم
يا جذوه فى الليل لم تنم
لشد ما أخشى نهاية الطريق
أود الا ينتهى
ولا يضيق
ويفرش الرؤى المخضلة السعيدة
امامنا .. فى لا نهاية مديده
كأفق قرية فى لحظة الشروق
والأفق رحب فى القرى حنون
وناعم وقرمزىّ يحضن البيوت
وتسبح الأشجار فيه كالهوادج المسافره
يا ليتنا هناك!
نسير تحت صمته العميق
ونوره المضبب الرقيق
جزيرة من الحياه
ينساب دفء زرعها على المياه
ولا تملُّ سيرها .. يا أصدقاء!

(٤)

الليل فى المدينة الكبيرة
عيد قصير
النور، والأنغام، والشباب

عيد قصير
والسرعة الحمقاء، والشراب
عيد قصير
شيئاً فشيئاً.. يسكت النغم
ويهدأ الرقص وتتعب القدم
وتكنس الرياح كل مائدة
فتسقط الزهور
وترفع الأحزان فى أعماقنا رؤسها الصغيرة
وتنثنى إلى الطريق
صفان من مسارج مضببة
كأنها عمدان قرية مخربة
تنام تحتها الظلال
وقد تمر مركبه
ترمى علينا بعض عطرها السجين
وساعة الميدان من بعيد
دقاتها ترثى المساء
وتلتوى أمامنا مفارق ثلاثة
تمتد فى بطن الظلام والسكون
وتهمسون:
«إلى اللقاء!»

الليل وحده يهون
وداعه يهون فالنهار ذو عيون
تجمع العقد الذى انفرط
لكن دربنا طويل
وربما جزناه اشهراً وأشهراً معاً
لكننا يوماً سنرفع الشراع
كل إلى سبيل
فطهروا بالحب ساعة الوداع!

أبريل ١٩٥٦

رســـــالـة

أخى الذى لم تلده أمى

محمود درويش

منذ جئتُ إلى مصر، باحثاً عن افق، وجدتُ فى كنفك حرارةَ البيت وحنان العائلة. أخذت بيدى، وأدخلتنى فى قلب القاهرة الإنسانى والثقافى، فعلمتنى كيف ائتلف وكيف اختلف وكيف أكون «أنا» وسواى فى آن واحد.

وكنت من قبل قد ساعدت جناحى على الطيران التدريجى، فعرفت قراءك على وعلى زملائى القابعين خلف الأسوار.

لم يكن التعبير عن الامتنان وحده هو واجبنا الأخلاقى تجاهك، بل الاعتراف العلنى بأنك عمقت إحساسنا بأننا لم نعد معزولين عن محيطنا العربى إلى هذا الحد وساعدتنا على الإيمان بقدرة الشعر الخارج من القلب على الدخول فى القلوب وعدم الخروج منها.

أى: اقنعتنا بأننا ذوو جدوى فى زمن كاد ان يقتل المعنى. وكاد أن يقيم حداً فاصلاً بين جمالية الشعر وفاعليته.

منعنى الحياء من أن أشكرك بما يليق بك.. لئلا يكون الشكر تعبيراً عن رضا مُبَطن عن النفس. لكنى اجتهدتُ كثيراً لكى لا اسبب لرضاك عنى خيبة الأمل والخذلان. نعم، كان لك دور فى تطوير وعى المسئولية، وفى تعميق العلاقة بين حرية الشعر وشعر الحرية.

نحن مدينون لك، لأنك لم تكف عن التبشير النبيل بالمواهب الشابة، وعن تحديث الحساسية الشعرية والدفاع عن الجديد الإبداعى فى

عزيزى رجاء النقاش! كنت وما زلت أخى الذى لم تلده أمى..



مناخ كان ممانعاً للحداثة الشعرية. ومدينون لك لأنك ابن مصر البار، وابن الثقافة العربية الذى لم تدفعه موجات النزعات الأقليمية الرائجة إلى الاعتذار عن عروبته الثقافية.

عزيزى رجاء!

كم يؤسفنى الا اتمكن من حضور حفل تكريمك هذا الذى تأخر بعض الوقت. لكن قلبى معك، أيها الكريم المكرَّم المكرِّم!

لقد كرمت أجيالاً من الكتاب الشباب بصداقة النقد والإبداع، وبمتابعتك المثابرة لتطورات الأدب العربى الجديد فى كل مكان: فى المراكز وفى الهوامش. أنت الذى تكرّمنا: تكرم أصدقاءك ومحبيك وقراءك الأوفياء لك..

ولإنتاجك الغزير المتعدد..

اتمنى لك العافية والمزيد من القدرة على اختراع الأمل لنا.. ولك

ولك كل المحبة

أدب ونقد

رســـــالـة

كنا نتجالس ونتآنس

چورچ جرداق

الأخ العزيز الأستاذ رجاء حفظه الله

تحياتي وأشواقي وبعد

ما كان أجمل الأيام التى كانت الأحوال العامة فيها تسمح للأصحاب والأحباب ان يتلاقوا ويسعد بعضهم برؤية بعض، وما كان أبلغ فرحنا هنا بلبنان، عندما كنا نستقبل إخواننا وأهلنا المصريين فى كل صيف فنتجالس ونتآنس ونتعاطى اسباب المودة والإخاء.

منذ ثلاثة أسابيع كنا، منصور الرحبانى وأنا، نستعيد ذكريات الأيام السالفة التى كانت تجمعنا بصورة مستمرة بإخواننا المصريين، حيث لم نكن نتصور ان الأحوال العامة فى هذا الشرق العربى السعيد جداً... ستضطر الناس إلى الابتعاد عن إخوانهم، وحتى إلى الشعور بالغربة عن أوطانهم. وكان أخونا الحبيب رجاء النقاش فى رأس قائمة الأحباء الذين طالما أسعدنا لقاؤهم، وكان اسمه فى طليعة الأسماء التى اشتقنا إلى اصحابها.

ومن الصدف الطيبة ان التقى بعد ايام بالأخ الطيب السيد ايمن الحكيم الذى علمت انه صحافى فسألته عنكم، فأخبرنى فى كثير من الاعتزاز والمودة وعرفان الجميل بأنه تلميذكم ومريدكم، وحدثنى طويلاً عنكم.

ارجو ان تكون فى حالة صحية جيدة، وآمل ان تأذن لنا ظروفنا وأحوالنا ان نلتقى قريبا وعليكم السلام ■

بيروت ٢٠٠٧/٩/٢٤

رســـــالـة

بيت ثقافة باسمه

د. محمد حافظ دياب

أيها الأصدقاء، تحول وعكة، حادة على ما يبدو، دون مشاركتى فى الاحتفالية المقامة على شرف الكاتب الكبيرالأستاذ رجاء النقاش.

أعرف أن كثيرين غيرى يمكنهم أن يتحدثوا عن جوانب عديدة فى فكر رجاء النقدى، لكننى أباهيهم بصلتى بالكاتب الكبير، وبخاصة فى مرحلة التلقين الأولى بحارة سيدى عز الدين بقريتنا منية سنمود، تلك الحارة الفاتنة التى قدمت لوطنها أعلاما منهم - بجانب رجاء - د. محمد عبد المقصود النادى رائد علوم وبحوث الطاقة النووية، والفنان التشكيلى الدكتور مأمون الشيخ، والدكتور سيف الدين عاشور أستاذ الصيدلة وغيرهم.

كنت أريد أن أتحدث عن فتى حارة سيدى عز الدين تاركا لغيرى الحديث عن الفتى الذى يكلم المساء، وعن الكاتب الكبير الذى أضاء الحياة النقدية بإسهاماته فى تقديم درس نقدى يمتلك رصيده القيمى والإنسانى.

وأظن أن الوقت قد حان للتفكير فى إنشاء بيت ثقافة رجاء النقاش بقريته، كدار يقصدها الباحثون من محبيه وعارفى فضله، ويسعدنى أن أساهم فى مكتبة البيت بعشرة آلاف عنوان.

تحية للناقد الكبير ودعاء موصولاً له

بالصحة والعافية



الـــدوروالـــفـــــــــــــضــل

د. عبد العزيز المقالح - (اليمن)

الصديق الأعز الأستاذ رجاء النقاش

حفظه الله

لعلني أجد في هذه اللحظة السعيدة، لحظة الاحتفاء بك من صفوة كريمة من مثقفي شباب مصر وكهولها، فرصة لكي أجدد معك عهد الصداقة الحميمة، وأقول لك بكل ما في الكلمات الطالعة من القلب من حب وبساطة وصدق أننا - نحن تلاميذك ومريديك خارج البيت العربي الكبير (مصر) - نتتبعك ونقرؤك كاتباً وناقداً ومفكراً تنويرياً ليس من وقت قريب وإنما منذ أوائل ستينيات القرن المنصرم، ومنذ طلعت نجماً متألقاً في عالم الكتابة المسئولة، يفيض قلمك بالود والمعرفة والألفة والإخلاص للحق وللحرية بكل معانيها السياسية والاجتماعية والفكرية.

تحية طيبة وتهنئة من القلب بالعام الجديد، وبعد

لقد احببناك عن بعد واحببناك من قرب، قرأناك كاتباً وسمعناك متحدثاً ومحاوراً، وفي كل مرة كان حبنا لك يزيد وإعجابنا بك يتنامى لأنك منذ البداية، وحتى الآن، لم تبدل مواقفك الجادة الرصينة بل تسير على صراط مستقيم لا اعوجاج ولا التواء، حب مصر والعروبة هدفك ورعاية الإبداع والمبدعين غايتك، ومن استقامة خطواتك على الدرب الطويل الذي لم يكن سالكاً دائماً بل كان في

أغلب الحالات مفروشاً بالشوك لا الورد.

ونحن فى هذه المناسبة، وفى كل مناسبة، لا نعترف بل نؤكد دور مصر العربية الحديثة من خلال الجهود العظيمة لأعلامها وكبار كتابها ونقادها، لكننا فى الوقت نفسه نعترف ونؤكد أنك كنت فى طليعة نادرة من المثقفين تتميز بالشخصية المختلفة الفريدة فى سلوكها الرفيع وفى عطائها المثمر، وفى رفضها الاقتراب من المناطق الموبوءة حيث يكثر ذباب النميمة الأدبية وذئاب الشتائم وأنصار اللغة الجارحة للقلب. وهكذا صرنا - نحن تلاميذك ومريديك من خارج البيت العربى الكبير - نؤمن بأن سلوكك ونقدك الأدبى العميق المهذب والحانى والذى يدعو القارئ بحميمة وإخلاص إلى أن يتعرف على نتاج المبعدين بروح صافية وإلى أن يقترب منهم وفى يده وردة لا حجر، وفى فمه قبلة لا رصاصة. ولأن ذلك كان نهجك فقد نجحت بامتياز وبقيت مواقفك وكلماتك الدقيقة نموذجاً، فى حين انطفأت أسماء كثيرة وكتابات أكثر، ولا أغالى إذا ما قلت أنك - يا رجاء - كنت تكتب براءة العصر الذى امتلأ زيفاً وادعاء.

ولن أنسى فى مناسبة الاحتفاء بك أن أذكر أنك كنت بوابتنا للتعرف على شعر الأرض المحتلة فى ما كتبت عن محمود درويش، وأول من قدم لنا روائياً مبدعاً بقامة الطيب صالح، وسأظل أتذكر أن كتاباتك عن الشابى شهادة للتاريخ على شاعريته وعن قيم الحب والثورة فى شعره، ولا ولن ننسى جميعاً المعارك التى خضتها بالنيابة عنا من أجل الثقافة العربية بوجه الدعوات الإقليمية والمحلية تلك التى سعت إلى تفتيت المشروع الثقافى العربى الواحد، واستجابت للدعاية الإمبريالية، ورضيت لنفسها أن تكون صدى لها، فكشفت الوجه الحقيقى للمنظمات والمنابر المشبوهة التى أريد لها أن تغرس فى تربة ثقافتنا ومجتمعاتنا، وفى وقت مبكر ومنذ بدء نشاطها المشبوه أظهرت حقيقتها بالحجة الثقافية غير المنطلقة من أفق حزبى أو تعصب ضيق.

أخيراً، وليس آخراً، فإن إنصافك رغم أنه تأخر كثيراً يجعلنا على ثقة بأن الأجيال الآتية ستقرأ ما كتبت بالصدق والعمق الذين كتبتهما طوال مسيرة حياتك فى الثقافة والأدب والفكر والفن، وسيكون لك بين الخالدين الذين كان لك فضل التعريف ببعضهم، مكان لا تخطئه ذاكرة التاريخ ولا ينساه ضمير أمتك.

لك خالص تحياتى، ودمت لنا وللكلمة ولأمتك ■

رســــالـة

التــمــصــيــروالتــعــريب

د. أبو بكر السقاف (اليمن)

فى جمع إليف بين الوطنية والقومية قال رجاء النقاش غير مرة: لابد أن تتعرب مصر ويتمصر العرب، ويبدو هذا القول الجميل محملا فى جوانب منه بظلال فكرة الدولة القاعدة التى تعلق بها العرب منذ بداية صحوتهم القومية، إلا أنه أيضاً يصدر عن تاريخ متين أشار إليه صبحى وحيدة عندما أكد محقا أن مصر قد تعربت منذ القرن الرابع الهجرى،. قام رجاء بجهد متواصل وهادىء ولايزال فى ميدان «الأدب الباقى» لإنجاز التمصير والتعريب وهو جهد لا شك فى أنه يتضافر مع جهود كثيرين فى هذا الأفق الوحيد الذى يشكل خط دفاعنا الأخير عن مستقبلنا ومصيرنا فى البلدان العربية كافة. أصبح النقاش فى تقدير المثقفين العرب واحداً من صناع الجسور المعنوية والثقافية بين غير جيل منهم.

رسالة

الراعى والحادى

مكرم محمد أحمد

يسعدنى أن تتشرف نقابة الصحفيين المصريين بتكريم علم كبير من أعلام الصحافة والنقد والأدب، أستاذ جيله رجاء النقاش الذى سطع نجمه فى عالم الصحافة ولايزال على امتداد خمسة عقود أثرى خلالها عالم الصحافة والأدب بمقالاته الأدبية والنقدية التى يكتبها بقلم من ذهب وبجهده الرائع فى إصدار مجلات ودوريات كان لها أثرها البالغ فى أثراء الثقافة العربية،

فضلا عن مجموعة من الكتب القيمة التى تشكل تراثا بالغ الأهمية فى أدب النقد، إضافة إلى جهده الفريد فى اكتشاف عدد من المبدعين الشعراء وكتاب القصة والرواية قدم قدمهم رجاء النقاش إلى القراء المصريين والعرب من بينهم الشاعر المصرى الكبير أحمد عبد المعطى والشاعر الفلسطينى العالمى محمود درويش والروائى السودانى الطيب صالح والفنان المبدع سيف وانلى والشاعر الفلسطينى سميح قاسم ولفيف من الشعراء وكتاب القصة والرواية أثروا حياتنا الأدبية.

لقد عملت مع الأستاذ رجاء النقاش فى دار الهلال فكان نعم الأخ والزميل، أدب جم وخلق عظيم واعتزاز بالزمالة والمهنة، عف اللسان ينحاز دائماً إلى قيم الحق والجمال ويقف إلى جوار أصحاب الموهبة الحقيقية، ويساند كل حركة ثقافية تخدم المستقبل ولا أظن أن تاريخ النقد العربى منذ محمد مندور يعرف ناقداً عربياً قدم إلى الجمهور العربى هذا العدد الوافر من المبدعين الذين ما لبثوا أن أصبحوا نجوما فى الثقافة والأدب والفن فى العالم العربى، ولفرط إنسانية رجاء النقاش يكاد يكون فى رقة النسيم أدبا وحياءاً وتواضعا، لكنه يملك قلما حادا كالسيف عند الحق وعند الموقف، وهو لايزال - أطال الله فى عمره فارس عصره ناقدا مبدعا ومفكرا أصيلا خرج من عذابات القرية المصرية كى ينشر ضياءا جميلا على حياة مصر



الثقافية ويقدم لنا أسرة النقاش بتنوع أفرادها الموهبين والمبدعين التى كان رجاء راعيا وحاديها وأظن أنه منه دواعى نقابة الصحفيين المصريين أن تضم صوتها إلى صوت أكاديمية الفنون إن لم تسبقه لترشيح رجاء النقاش فى هذا الموسم الثقافى لجائزة مبارك فى الأدب تقديرا لشخصه وجهده وإبداعه وتاريخه.

اسمحوا لى أيها الزملاء أن نحيى بالتصفيق وقوفا زميلنا الرائع رجاء النقاش داعين الله أن يسبغ عليه من فضله الصحة والعافية والسلام عليكم ورحمة الله ■

إشـــــارات ذات مـــــغـــــزى

رجاء النقاش

الأستاذ مكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين
الدكتور رفعت السعيد رئيس حزب التجمع
السيدات والسادة الحضور

لا أملك إلا أن أتقدم إليكم جميعاً بالشكر العميق على هذه الليلة التى اتخذت من شخصى موضوعا للتكريم، وأصارحكم القول ببساطة وصدق أننى لم أعتبر هذا التكريم موجها لى بصورة شخصية، ولكننى اعتبرته تكريما لبعض المعانى المهمة فى حياتنا الثقافية وحياتنا العامة وهذا ما جعلنى أتشرف بقبول هذا التكريم وأحرص على أن أكون بينكم فى هذه الليلة رغم ظروفى الصحية.

إن تكريمكم لى فيه إشارات واضحة ينبغى التوقف أمامها والتفكير فيها لأنها فى تقديرى هى أصل التكريم وليست فرعا من فروعه.

الإشارة الأولى كما لاحظتم جميعا من الكلمات التى ألقيت فى هذه الليلة تقول لنا إن الثقافة هى الجامعة العربية الحقيقية الأصيلة لهذه الأمة وليست تلك الجامعة الجالسة باطمئنان فى مبناها الأنيق على شاطئ النيل، فقد سمعنا الليلة أصواتا متعددة جاءتنا من العواصم العربية على جناح من الحب والتفاهم والثقة العميقة، فالثقافة قبل أى شىء آخر هى التى تربط بين ثلاثمائة مليون عربى وذلك دون سفارات أو اتفاقيات على الورق، والثقافة تتخطى كل

• كلمة رجاء النقاش فى الاحتفالية التى أقيمت بنقابة الصحفيين لتكريمه والقاها نيابة عنه الشاعر حلمى سالم

الحواجز، ولا تعترف إلا بلقاءات القلوب والعقول، وهذه الإشارة الثمينة التى تنطلق من هذا الحفل الكريم ينبغى أن تزيدنا إصرارا على التمسك بوحدة الأمة العربية التى لم تتأثر بالزلازل والعواصف إلا فى المؤسسات الرسمية، أما الشعب فإن شعراءه ومفكريه مايزالون يرفعون علم التماسك بين الأمة العربية من خليجها إلى المحيط، وسيظل هذا العلم مرفوعا بإذن الله رغم ما أصابنا نحن الذين آمنا دائما بهذه الوحدة من يأس وإحباط حتى أصبحت كلمة الوحدة كلمة نهمس بها ولا نكاد نعلنها جهرا حتى لا نتعرض للسخرية واللوم.

وفى هذه الليلة جاءتنا كلمة الوحدة مرفوعة الرأس، وذلك على لسان مفكريها وشعرائها من شتى أنحاء العواصم العربية، ووحدة الأفكار والعواطف هى دليل أصدق من السياسة والاتفاقات والمعاهدات وكل ما هو مكتوب بالأقلام الرسمية.

الإشارة الثانية فى هذا الحفل الكريم هى أن فلسطين حاضرة فى قلب أى عمل عربى، صغيرا كان أو كبيرا فقد جاءنا فى هذا الحفل صوت فلسطين، يقطر دما ولكنه من وراء قطرات الدماء يفيض بالعافية والإصرار والصبر على المحنة حتى تنتهى وتزول.

الإشارة الثالثة فى هذا الحفل الكريم هى ذلك الوفاء والاحترام المتبادل بين جيلى والجيل الذى يليه، وفى هذا تكذيب لما كان يقال ويتردد منذ فترات طويلة من أن أجيال الفكر والثقافة والصحافة فى بلادنا هى أجيال متصارعة، وأن هناك حواجز قوية بين هذه الأجيال، وأنه لا حنان ولا اهتمام من جانب الجيل الأكبر بأخوته وأبنائه من الجيل الثانى، ومن ناحية أخرى فقد كان يقال عن الجيل الجديد الذى جاء بعدنا انه جيل يستهين بأبائه وأخوته الكبار، وأنه لا يعرف الوفاء، وفى هذا الحفل الكريم تبددت كل الأفكار الهشة التى كانت تقال عن العلاقات بين الجيلين، فقد كان لعدد بارز من أبناء الجيل الجديد دور قوى وأساسى فى إقامة هذا الحفل، حيث جرى نهر الوفاء فياضا بالمحبة والثقة بين الجيلين فى صورة رائعة تؤكد أن الذين يقولون بغير ذلك واهمون وأن ما بين جيلى والجيل الذى يليه عامر وسوف يظل عامرا بإذن الله، وهذه الظاهرة هى من أنبل الظواهر التى جعلتنى أعتبر هذا الحفل أكبر من شخصى المتواضع لأنه ببساطة حفل يمثل لقاء المحبة والتكامل والثقة بين جيلين، فلا عداء ولا خصومة ولا صراع ولا قتال.

هناك إشارة رابعة يطلقها هذا الحفل الكريم وهى عندى إشارة بالغة الأهمية، وأقصد بذلك أن هذا الحفل هو تكريم لفرع من فروع الصحافة أظن أنه قد ولد مظلوما وبقى مظلوما إلى الآن، وأقصد بذلك الصحافة الثقافية، فالذين يعملون فى هذا المجال وأنا واحد منهم كانوا يشعرون دائما أنهم يكافحون فى أرض

بالغة الصعوبة، وكانت المادة الثقافية فريسة للتأجيل فى نشرها بل وإهمالها فى بعض الأحيان أمام المادة السياسية أو الرياضية أو الفنية أو الدينية، ومع ذلك فقد كافحت وكافح غيرى كثيرون فى مجال الصحافة الثقافية من أجل تثبيت مكانتها وإتاحة الفرصة لها لكى تؤدى رسالتها بين أفراد الشعب، ولكى تساعد على تكوين رأى عام ليس من السهل أن يسقط فريسة للخرافات والأوهام فيعطل تقدم البلاد ويؤدى إلى مصائب العنف والتطرف، ويفرض على الناس نوعا من الإغماءة الفكرية تحت تأثير مخدرات معنوية هى أخطر من الأفيون والحشيش وسائر المخدرات المادية.

فالتكريم الليلة هو تكريم للصحافة الثقافية التى مازالت تعانى من بعض الضغوط عليها وتحاول أن تقف مرفوعة الرأس بين الألوان الصحفية المختلفة.

والإشارة الأخيرة فى هذا الحفل الكريم، ولعلها أثمن الإشارات جميعاً، هى أنه حفل شعبى خلا من أى رسميات وليس فيه تدخل من هنا أو إرغام من هناك وكل ما هو شعبى يبقى ويدوم، أما غير ذلك فهو خاضع للتقلبات والأغراض وتغير الرجال والأحوال وانعدام الصدق فى النوايا، ولذلك فهو زائل ، وأن بقى منه شىء فهو بقاء الأطلال والأشباح.

هذه بعض الإشارات التى يحملها هذا الحفل الكريم، وهى التى أقنعتنى بالمشاركة فيه على قدر ما أستطيع، فما كان من الممكن أبدا أن أقنع نفسى بأن هذا الحفل قد أقيم من أجل شخصى المتواضع، وعندما فكرت فى الأمر توصلت إلى تلك الإشارات الكريمة التى يحملها هذا الحفل ويقوم على أساسها. فأطمأنت نفسى وأدركت أن هذا الحفل الكريم قائم على أساس راسخ متين، وهو حفل لإعلاء شأن قضايا كبيرة وليس حفلا شخصيا محدود التأثير والقيمة.

شكراً لكم جميعاً أيها الأخوة والأخوات. شكراً للذين تفضلوا بتقديم كلماتهم النبيلة الطيبة وشكراً للذين شرفوا هذا الحفل بالحضور، وأدام الله على وطننا العربى ومصر فى مقدمته هذه الروح المشتعلة بالوفاء والإرادة الحرة والحلم الدائم بوطن كريم مرفوع الرأس.

شكراً لكم جميعا والسلام عليكم ورحمة الله

نستحق أكثر من العقاب

د. رفعت السعيد

فيما كنت أتوجه إلى حفل تكريمك، جعلت أتأمل سيرتك، رجل رومانسى، هادىء، وديع مبتسم دائما، وحاد، وعنيف وقاس فى لطف مهذب فى آن واحد.

الرومانسى.. الذى استطاع أن يلزم الجميع حتى هؤلاء العقارب من المثقفين الذين اعتادوا على نهش كل قول جيد أو فكر مستنير أو رجل يصعد حتى هؤلاء ابتلعوا سخافاتهم وعجزوا عن النطق.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم نقاد بشتم الآخرين عجزوا عن فعلها معه فصمتوا.

هذا الرجل الوديع الهادىء القوى الأبى العتى فى قول الحق وإيضاح الحقيقة التزم بالنزاهة والشجاعة وعفة القول وقول الصدق فى آن واحد، فكم مثقفا مثله؟ ألسنا نعيش فى زمن يتسلق فيه الكثيرون على جثة الكلمة الشريفة ويبيعون أقلامهم لكل مشتر سواء بالمال أو بالمنصب؟، ألسنا فى زمن المثقف الحرباء؟، ألسنا فى زمن تتحول فيه الثقافة والصحافة إلى بضاعة حاضرة رخيصة؟.

فهل مللت منا ومن زماننا الردىء؟، هل غضبت علينا فقررت إن لا مكان لك فى هذا المناخ المظلم والظالم؟ فقررت الرحيل.

وفى طريقى إلى قاعة التكريم تألق فى ذهنى بيت من شعر كأنه جاء على مقاسك تماما..

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل

على أننا نذيب الحديدا

أدب ونقد



فأنت هكذا تماماً، رومانسى هادىء وديع مهذب حتى النخاع، شجاع قوى قادر على التحدى إذا كان للتحدى ضرورة.

ولكن هل تأذن لى أن أهمس لك بسر؟.

رأيتك وأنت مقبل تتهادى متكئاً على عصاك مستنداً إلى أحضان زوجتك الجميلة الحانية التى عاشت تمنحك حناناً كنت فى أمس الحاجة إليه فى صراعك مع الوحوش، فتوقف فى حلقى بيت شعر آخر لكننى خجلت أن أتلوه أمامك وأمامها..

فى ساحة العشق تقتادنا الغيد

وفى الوغى نحن نقتاد الأسودا.

هكذا كنت تماماً..

قاومت المرض بصبر وشجاعة ولكن..

وإذا كانت النفوس كباراً

تعبت فى مرادها الأجسام

وأخيراً قررت الرحيل ولعلك ناجيت فى رحيلك واحداً مثلك فى رومانسيته وأدبه وشجاعته فى قول الحق.. مجدى مهنا.

لعلك قلت له تعال فما لنا بقاء فى هذه الغابة المتوحشة المليئة بكتاب مغشوشين والمحتشدة بأرانب تدعى أنها أسود لمجرد أن أقلامها تسيل بذاءة.

ووافقك مجدى مهنا ورحلتما معاً فى جنازة واحدة، رحلتما جنباً إلى جنب.

إنه القدر يعاقبنا.. ونحن نستحق ما هو أكثر من العقاب ■

أدب ونقد

شهادة لا تمثل مرثية

د. صلاح فضل

قبل شهور قليلة استشعرت مجلة «الهلال» التي تدين لرجاء النقاش بأجمل لحظات توهجها الأدبي والثقافي، أنه بدأ يخبو بمطاردة المرض العضال،

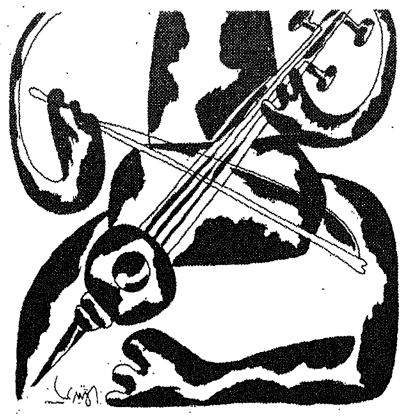
فخصصت عدداً تذكارياً له واستكتبتني كلمات فيه على سبيل الشهادة، ولم أعرف حينها ماذا كان وقعها على نفسه، وهل أرضته نغمة الحب والتقدير فيها، أم آلمته الصراحة النقدية في الكشف عن مواطن القوة والضعف لديه، في تقديري المتواضع.

وعندما فقدنا رجاء النقاش الذي أضاء الصحافة الأدبية بإشراقة قلمه، وعمّر الحياة الثقافية العربية منذ إطلالاته الأولى في «الآداب» التي صنعت أجيالاً من طلائع المثقفين، حتى كلماته العذبة المقطرة المفعمة بالحب على صفحات «الأهرام» وغيرها من كبريات المنابر الأدبية. ولأن الشهادة لا يجوز تحويرها أو تغييرها أستأذن القارئ في أن أعيد سطورها تحية لواحد من ألمع نجوم النقد وابرز رموزه في العصر الحديث:

إذا كان النقاد عادة هم قضاة الفكر الأدبي، ورعاة العدالة الثقافية، الممسكون بميزان الإبداع، فإن تاريخهم يحفل عادة بأحكام القيمة، والزمن والجمهور وتطور الاتجاهات درجات لاستئناف هذه الأحكام أو نقضها، وتمحيص مدى نزاهتها، أو صدقيتهم، فإذا خرج الناقد من كل ذلك بريئاً من الهوى، بصيراً بأقدار الناس عزّز الثقة بمستواه وترسخت قيمته في ضمير قرائه على مدى الأجيال المتعاقبة.

ورجاء النقاش الذى تميز بنبوغه المبكر فى مجال الكتابة النقدية، وهى تتطلب عادة نضجاً متمهلاً واستحصاءً بطيئاً، بهر قراءه بعين الصقر التى يمتلكها منذ صباه، فقد كان موهوباً فى اكتشاف المواهب الكبرى والتنبؤ بمستقبلها الواعد، سواء كان ذلك فى الشعر أو الرواية، وليس أدلّ على هذه المقدرة الفذة التى صدقتها الأيام من أسماء محمود درويش والطيب صالح وغيرهما، ولعل نشأة رجاء فى أسرة حافلة بالإبداع والذكاء المبكر من الرجال والنساء أن تكون عاملاً مؤسساً لهذا الوعى الناضج والرؤية الثاقبة، لكن ما صاغه من التحيز الساذج والاندفاع وراء الهوى الشخصى فى الدرجة الأولى هو براءته من العمى الأيديولوجى الذى كان سائداً فى أوساط المثقفين من اليسار المصرى فى العقود الوسطى من القرن العشرين، فكم ضلل هذا العمى كبار النقاد وجعلهم يخطئون فى النبوءة ويقدمون من لا يستحق التقدير على رغم ثقافتهم العالية وإخلاصهم الشديد، لكن احتكام رجاء النقاش إلى وجدانه الوضىء وضميره الفنى الشفيف وضعه فى زاوية الرؤية الصحيحة لمستقبل الإبداع، ومكّنه من احتضان الكتابة بعشق وحنان ودأب، وأتاح له فرصة امتلاك نعمة، إذا فقدها الناقد، اختلت البوصلة فى يده، وهى الإصابة فى معرفة أقدار الكتّاب، ونصيبهم من الإبداع، مهما كانت علاقته الشخصية بهم، وجعله فى نهاية المطاف قادراً على الإسهام الفعال فى صناعة استراتيجية الثقافة العامة. بيد أن هناك نعمة أخرى ظفر بها رجاء النقاش وتفادى ما تضمره من نقمة، وهى براءته من التقعر الأكاديمى الذى سقط فيه كثير من أساتذة الأدب والنقد، عندما سجنوا أنفسهم داخل أسوار الجامعات والمعاهد العلمية، فحرموا من الانصات لنبض الواقع الحى والكفاءة فى قياس حرارته وجمالياته، وقد نذكر بشىء من الأسى بعض المناوشات الخفيفة التى قامت بينه وبين هؤلاء الأساتذة وكيف خرج منها منتصراً مؤمناً برسالة الفكر النقدى فى التنوير والتحديث والتقدم من دون تعقيب أيديولوجى أو تقعر أكاديمى ممقوت.

لكن نقطة الضعف التى حالت بين رجاء النقاش وتصدره مشهد النقد الأدبى بعد محمد مندور ولويس عوض وكان مؤهلاً لذلك، أنه لم يعبر محنة الاتصال المباشر بالثقافة الغربية فى إحدى عواصمها الكبرى ولم يتقن بالقدر الكافى إحدى لغاتها باعتبارها منفذاً للتواصل الخلاق مع روح العصر والحضارة المجسدة له، فظل معلقاً بما يقدمه الآخرون من ترجمات من دون أن يصنع بنفسه أو يعجن بيديه ،فطيرته، الخاصة معتمداً على فطرته ويقظته فى التقاط ما يجود به الآخرون، وترتب على ذلك فى فترة السبعينات المفصلية فى تاريخ الفكر النقدى



العالمى أن خرج صديقنا من دائرة القيادة للفكر النقدى العربى مع كفاءته العالية فى ممارسته، ولم تشغله مشكلة المناهج المتغيرة بتطوراتها المعرفية المتوالية فاكتفى بمزاجه الشخصى وثقافته الموسوعية ونضارة حساسيته فى تلقى الأعمال الإبداعية وإضاءتها بمقارباته الواعية. على أن إنجازات رجاء النقاش فى مجال الصحافة الأدبية والثقافية سواء كان ذلك خلال رئاسته تحرير «الهلال» أو تخليقه لتيار عارم من الإبداع الصحافى والأدبى فى مجلة «الدوحة» التى تعتبر من أنفس ما عمّر الذاكرة العربية من مطبوعات ثقافية، أسهمت فى مضاعفة دوره فى مجال الفكر والكتابة حتى أصبح اسمه يتوهج بالمعرفة والعطاء النبيل والمثمر فى فلك التاريخ والتأصيل، ما جعله يحقق فى نهاية الأمر إحدى أجمل رسالات الخطاب النقدى فى حمل قارئه على عشق الفن والأدب والثقافة.

احتفظ رجاء النقاش عبر مسارات متقلبة عنيفة فى الحركة والعمل بقدر عظيم من التوازن محافظاً على طابعه الطفولى البرىء حتى وهو فى شيخوخته، فجعل من النقد الصحافى منبراً لتأكيد القيم العظمى فى الوطنية والحق والخير والجمال، الأمر الذى جعل من كتاباته منبعاً ثرياً للمتعة الراقية ونموذجاً بديعاً للتواصل الجماعى الخلاق مع قرائه ومريديه ■

الأب الثـــــــانـى

أمينة النقاش

وكانت أجمل اللحظات التى يقضيها ، تلك التى يتلو علينا فيها مقطعا من قصيدة لفطاحل شعراء العصرين الجاهلى والإسلامى، أو يقرأ علينا نصا أدبياً أو آية قرآنية ليكشف لنا من خلال ذلك عن ثراء اللغة العربية، وقدرتها المتجددة على الاستخدامات المختلفة للمفردات والمعانى. بما كان يستخرجه من تلك النصوص من أنواع شتى من البلاغة، من كناية وتشبيه واستعارة وما إلى ذلك.

وإذا كانت الموهبة تورث، فقد ورث رجاء عن أبى عشقه للغة العربية، وشكّل التراث العربى الإسلامى جزءاً رئيسياً من ثقافته الموسوعية المتنوعة. عوّدنا رجاء حين يبدأ النقاش فى أى موضوع خاص أو عام، أن يكون الأدب حاضراً بقوة، فيستحضر من ذاكرته روائع القصص العالمى، وأبيات من عيون الشعر العربى القديم والحديث ليدلل بهما على صحة ما يقول، وربما ليقدم لنا من خلال ذلك إجابات فنية لبعض أسئلة الحياة الملتبسة والغامضة، فيحفزنا على تذوق الأدب ومحبته من جانب، ويوسع مداركنا عبر استشهادات أدبية، لفهم ما يجرى حولنا وتخفيف آلامه من جانب آخر.

ارتبطت طفولتى وشبابى برجاء ارتباطا وثيقا وهيمنت قوته المعنوية على نشأتى. وحين بلغت السادسة من عمرى، اتخذت أسرتى قرارا

أحببت اللغة العربية من والدى، ومن شقيقى الأكبر رجاء النقاش. عشق أبى اللغة العربية، ليس بحكم أنه كان مدرسا لها فحسب، بل لأنه كان شاعرا وأديبا، وقارئا نهما لكتب التراث العربى والإسلامى،

بتأجيل التحاقى بالمدرسة الابتدائى لمدة عام، لملازمة والدتى المريضة آنذاك بالمنزل. فى تلك الفترة من طفولتى، أصبحت أمى هى كل عالمى، إلتصقت بها التصاقا شديداً، وأخذت أنظر بعينيها لكل ما يدور حولى، أفرح لما يفرحها ، وأغضب لغضبها ، وأشاركها القليل الذى تقوم به، تعبيراً عن محبتها وإعزازها لابنها البكر. كانت أمى تأبى أن تنام الليل حتى تطمئن على عودة رجاء من الخارج ودخوله إلى غرفته كانت تطرب لسماع صوت ارتطام باب المنزل فور عودة رجاء إليه، لأنه يحمل إليها سالما يعون الله، ولم يصبه أى سوء وبرغم أن أمى كانت امرأة أمية، لا تعرف القراءة والكتابة، فقد كانت تستطيع أن تميز اسم رجاء فى قصاصات الصحف والمجلات، التى كان قد بدأ يكتب بها وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، ولأن المرض أقعدها طريحة الفراش. فقد جمعت أمى تلك القصاصات ، واحتفظت بها تحت وسادتها ، لتصبح لحظات البهجة الوحيدة التى تهنأ بها، وتملأ نفسها بالسرور والرضا حتى تسحب تلك القصاصات من تحت الوسادة، وتطيل التأمل فيها بفرح طفولى، وتغمرها بأحضانها وقبلاتها من حين لآخر، ثم تعيدها بحرص شديد إلى حيث كانت، كأنها كنز ثمين تخشى عليه من الضياع، كنت أقلدها تقرباً إليها، وابتزازاً لعواطفها واقتناصاً لأحضانها الدافئة وطبعاً حباً فى رجاء.

يحمل رجاء غصة فى حلقة - كما أحمل أنا - لم تقل مع مرور الزمن، فحين ماتت أمنا اكتشفنا أنه لم يكن بحوزتنا صورة لها.

كنا أسرة كبيرة العدد، قليلة الموارد ، وكان بيتنا فقيرا من كل الإمكانات وأبسطها، لكنه بفضل رجاء، كان غنياً بالكتب وبالمثقفين العرب والمصريين، الذين كانوا يتوافدون - يكاد يكون يومياً - على منزلنا المتواضع، الذى ملأته أسرتى بجانب ذلك، بطموحات كبيرة، ما كان لها أن تصمد، أمام شظف العيش، وخشونة الحياة، وفقر الموارد، لولا الدور البطولى الفذ، الذى تقدم للقيام به بسخاء وبإحساس بالواجب والمسئولية «الأخ الأكبر» وهو الدور الذى أمد تلك الطموحات بعناصر البقاء، وقدم لها دعائم مشيدة ، تزيل من أمام انطلاقها، كل مبررات التعثر والإعاقة.

وتجربة رجاء فى أسرتى، تكاد تكون تجربة قاعدية للأخ الأكبر فى الأسرة المصرية، التى تنتمى للطبقة الوسطى الصغيرة، إذ يولد الابن الأكبر لأب فقير، كثير الأبناء، يجاهد من أجل أن يضمن لهم مستقبلا أفضل، مما كفله له أبوه، فتنوء موارده عن ذلك، فيتقدم الابن الأكبر لكى يكون أباً آخر، يشارك فى حمل الأعباء.

وفى هذا السياق تميز رجاء على كثيرين غيره ممن قاموا بمثل هذا

الدور، بأنه أضفى عليه لمساته الخاصة التى امتزج فيها الذكاء بالحنان ، كما أضفى عليه مواهبه التى ورثها عن أبيه، مما أثر فى كل أخوته، سواء قصد إلى ذلك أو لم يكن يقصده.

وعلى عكس كثيرين ممن ينتمون لهذه الطبقة الاجتماعية، فإن أبى الشاعر والأديب، كان يتسم بدرجة من الوعى السياسى، مثل كثيرين غيره من مدرسى المرحلة الأولى فى الريف المصرى، انتمى بوجدانه ومشاعره نحو حزب الوطنية المصرية وهو حزب الوفد، وكان حريصاً الا يضحى بالابن الأكبر، ويخرجه من التعليم ، ويدفع به إلى وظيفة صغيرة، وساعده على ذلك، بأنه كان طالبا مجتهدا، يمتلك إرادة حديدية، ويدرك بوعى فطرىّ بأن عليه ان ينهى تعليمه للبحث عن عمل اثناء دراسته الجامعية، فيعمل طول الوقت دون أن يتخطى عن طموحه وحلمه، فى ان يصبح كاتبا وأديبا، وصانعا للنجوم، فى دنيا الأدب والثقافة والصحافة، ولم يتوقف رجاء أبداً عن العمل، منذئذ، وعلى امتداد أكثر من خمسين عاماً فى رحلة طويلة شاقة. حفلت بألوان شتى من المعاناة والقسوة والألم، وقلت فيها الأفراح والمسرات، لكن مواهب رجاء الإنسانية والثقافية. أمدته دائماً بالقدرة على التغلب على منغصات الحياة.، والإفلات من الضغوط التى قد تفرضها، وربما اكسبه هذا العناء بعض الحدة فى الطبع وبعض القسوة فى الانفعال التى طالت فى بعض الأحيان أقرب المقربين إليه لكنه يمتلك قلب طفل يغضب بسرعة، ويصفو قلبه ويتسع صدره لمن أغضبه بالسرعة نفسها.

رسخت رحلة رجاء العملية، لدى ولدى أخوتى قيمة العمل باعتبارها احد اهم القيم العليا فى الحياة، وزرعت فى نفسى اعتقاداً راسخاً بأن اسوا انواع الفقر، ليس هو فقر المال والموارد، بل هو فقرز الروح وفقر العقل والوجدان وانه لا سلطة فى الحياة تعلو على سلطة الثقافة والمعرفة.

ماتت امى وأنا فى الثامنة من عمرى وتوفى ابى وأنا شابة اخطو أولى خطواتى فى الحياة العملية، فأصبح رجاء بالنسبة لى اباً وأماً وصديقاً. فى صحبته ادركت كثير من النشوات العليا فى الحياة، زرت معه الآثار القبطية والإسلامية فى القاهرة، وشاهدت معه المسرح للمرة الأولى، ومعه وطئت أقدامى دار الأوبرا المحترقة، وفى بيته استمعت للمرة الأولى أيضاً إلى اغانى الشيخ إمام عيسى وأحمد فؤاد نجم، والتقيت بأدباء ومثقفين لم اكن أعرفهم، إلا على الورق فقط، كان بينهم صلاح جاهين وصلاح عبد الصبور ولويس عوض وأحمد عبد المعطى حجازى ، ويوسف إدريس وسهيل إدريس، ومحمود درويش وعبد الرحمن منيف.



وفى هذه الجلسات تبدت موهبة رجاء الأخرى كواحد من الحكائين العظام، مثله فى ذلك مثل عبد الرحمن الخميسى ومحمد عودة ومحمود السعدنى، كما تجلت قدرته الفذة على السخرية والتهكم، التى تبدأ بنقد ما لايعجبه من ظواهر الحياة، وتنتهى بالسخرية من نفسه إذا اقتضى الأمر، أو من أخويه الصغيرين فكرى وعاصم، اللذين كون معهما صداقة حميمة، طالما أسرتنى بما حفلت به من أبوة غامرة وحنان دافق.

ولم يكن بوسع رجاء أن يواصل مشروعه الثقافى والأدبى ، وأبوته الدافقة لنا، لولا وجود ملاكه الحارس زوجته ورفيقة مشوار عمره طبيبة الأطفال البارعة الدكتورة هانية عمر، التى خاضت بذوق رفيع ونفس شفافة نضالا متصلا ، ضد شتى العقبات ، التى اعترضت حياتها المشتركة مع رجاء، دون أن تشكو أو تتذمر، أو تخور عزيمتها أو أن تفقد ثقتها أبداً فى موهبة رجاء، أو فى الأدوار التى اختار لنفسه أن يؤديها فى الحياة.

كان مكسيم جوركى يقول إنه ينام نوماً هانئاً، عندما يعرف أن تولستوى حى يرزق فى نفس العالم الذى يتنفس فيه، وهأنذا على نحو مستبعد التصديق لا يلتئم هدوئى النفسى ولا انام نوما هانئا، إلا لأن شقيقى الأكبر وأبى الثانى رجاء النقاش حى يرزق فى نفس العالم الذى أتنفس فيه.

الباسق كنخيل القرية

محمد سلماوى

جمعتنى بالكاتب الراحل رجاء النقاش روابط كثيره لم يكن اقلها حبنا المشترك لاديبنا الاكبر نجيب محفوظ فقد كنت اعرف حب رجاء الجم لنجيب محفوظ كما كنت اعرف حب وتقدير محفوظ له وثقته الكامله فيه.

وربما كان فى ذلك احد اسباب القيمه الكبيره التى كان يمثلها رجاء النقاش فى مجال النقد الادبى ولاحد كبار النقاد قول ماثور مؤداه ان المحب للادب وحده هو الذى يصلح ان يكون ناقدا وقد كان رجاء النقاش مثالا فريدا للناقد المحب للادب والادباء فى وقت كادت كلمه النقد عندنا تصبح مرادفه لكلمه الانتقاد.

ولقد حدثتنى الزميله نوال المحلاوى ذات مره بعد مرور نحو عام على فوز نجيب محفوظ بجائزه نوبل عن رغبتها فى ان ينفرد مركز الاهرام للترجمه والنشر والذى كانت تراسه فى ذلك الوقت بنشر السيره الذاتيه لاديب نوبل الكبير فقلت لها على الفور.

اريحى نفسك ان نجيب محفوظ ليس من الادباء الذين يكتبون سيرتهم الذاتيه فهو فى تواضعه الجم يعتقد ان حياته ليست ذات اهميه وان احداثها لا تهم احدا غيره كما انه يفضل الا يترك للناس الا انتاجه الادبى الذى هو اهم من تفاصيل حياته ومع ذلك فكل من اقترب من نجيب محفوظ يعرف جيدا ان حياته بها من الاحداث المهمه والشيقه ما يجعلها ذات مغزى كبير لكل من يهتم بادب نجيب محفوظ او بالحياه الثقافيه والادبيه طوال سنوات القرن العشرين.

ثم قلت لنوال المحلاوى.انا اعرف ان رجاء النقاش كان لديه مشروع قديم لكتابه حياه نجيب محفوظ واعلم ان محفوظ لديه ثقه كبيره فى رجاء وانه اذا وافق على المشروع سيفتح له قلبه وذاكرته بالكامل.

ولم تمض ايام حتى كانت نوال المحلاوى قد اتصلت برجاء النقاش الذى اكد لها انه مازال يرغب فى التاريخ لحياه الاديب الاكبر كما التقت بالاستاذ نجيب لتعرض عليه الموضوع فرحب به ترحيبا كبيرا ورحب ايضا بان يكتبه رجاء النقاش.

وقد امضى رجاء النقاش وقتا طويلا يجمع ماده الكتاب من مصدر واحد فقط هو نجيب محفوظ نفسه الذى كان يجلس اليه مطولا ويساله فى كل الموضوعات التى تتصل بحياته واعماله فكان محفوظ يجيب عليها بالكامل حيث كان رجاء النقاش يسجلها على جهاز تسجيل صغير ليقوم بتفريغها بعد ذلك.

وبعد مرور ما يزيد على السنه كان رجاء النقاش قد انتهى من جمع مادته بصوت نجيب محفوظ لكن تلك كانت بدايه المشقه الحقيقيه ولم تكن نهايتها فماذا يفعل بهذه الماده وكيف يعالجها ومن اين يبدا؟. ولم تمض سنه اخرى ولا اثنتان ولا ثلاث بل اربع سنوات ودخلنا فى السنه الخامسه ورجاء النقاش يشعر بمسئوليه كبيره تجاه الماده الثمينه التى ائتمنه عليها نجيب محفوظ ومن ثم لا يستطيع ان يخرجها الا فى افضل صوره دون ان يكون فى لهفه كى يخرج اول كتاب من نوعه يورخ لحياه اديب نوبل الكبير بل كان الاهم ان يجد الطريقه المثلى للتعامل مع هذه المعلومات النادره التى حصل عليها فهكذا كان رجاء النقاش وهكذا كان ضميره الادبى الذى جعله احد اهم نقادنا الادبيين واكثرهم حبا للادب واخلاصا له.

وبعد ان مرت خمس سنوات اقتنع الجميع خلالها ان الكتاب لن يظهر ابدا وتوصل رجاء النقاش الى ان قيمه الماده التى لديه

تكمن فى انها صادره من محفوظ شخصيا وان عليه ان يحافظ على هذه القيمه بان يقدمها للقارئ كما هى دون ان يستخدمها فى كتابه سيره صاحبها.

وهكذا كان كتاب نجيب محفوظ. صفحات من مذكراته واضواء جديده على ادبه وحياته والذى اصدره مركز الاهرام للترجمه والنشر عام_1998,_ والذى اهدانى رجاء النقاش واحده من اول خمس نسخ وصلته من المطبعه وصدرها بهذه الكلمات.

الى الصديق العزيز الكاتب الكبير الاستاذ محمد سلماوى الذى يعرف كل ما فى هذا الكتاب. وما خلفه. مع خالص التقدير. رجاء النقاش.

وقد اصبح هذا الكتاب من اهم الكتب التى صدرت عن نجيب محفوظ

واثار عند بدايه نشره ضجه كبيره حيث تعرض ضمن ما تعرض لجوانب شخصيه من حياه اديبنا الاكبر كان البعض يتصور انه لم يكن ينبغى الافصاح عنها بل لقد ذهب البعض انذاك للقول بان نجيب محفوظ لم يكن من الممكن ان يقول مثل هذه الاشياء وكان البعض يسال الاستاذ امامى.هل حقا قلت لرجاء النقاش كذا او كيت؟. ولم يكن الاستاذ فى سنه المتقدمه يتذكر فى عام_1998_ ما يمكن ان يكون قد قاله عام ١٩٩٠ لكنه فى ثقته الكامله برجاء النقاش كان يقول لسائليه.هل ورد هذا فى كتاب رجاء؟. فيقولون.نعم فيرد بلا تردد.اذن فقد قلته.

اسرد هذه الواقعه لان فيها دروسا مهمه وعبرا ذات دلاله لنقادنا من الشباب وفيها ايضا سر عظمه ذلك الناقد الادبى العظيم رجاء النقاش الذى فقدناه هذا الاسبوع.

ففيها اولا امانه الناقد مع الماده التى تحت يديه وعدم لهفته لنشرها باسرع وقت وكانها سبق صحفى رخيص يمكن ان يصنع العناوين الساخنه اليوم ليكون بلا اهميه غدا فقد كانت عين رجاء النقاش على التاريخ والتاريخ لا يقبل الا الامانه والصدق.

وفيها ثانيا تفانيه فى تقديم ما ائتمن عليه فى افضل صوره ممكنه حتى لو اخذ منه ذلك سنوات طوالا.

وفيها ثالثا روح الايثار التى تجعل الناقد ينحى نفسه جانبا مفضلا عمل الاديب وكلماته فقد كان من الممكن لرجاء النقاش ان يكتب كتابا لم يكتبه احد من قبل عن حياه محفوظ ولكنه فضل ان يحتفظ لكلمات محفوظ كما نطق بها دون تدخل منه.

وفيها قبل ذلك كله وبعده الثقه التى يحوزها مثل هذا الناقد عند الاديب والتى جعلت نجيب محفوظ يرد دون بحث ولا تدقيق بان كل ما كتبه رجاء النقاش عنه او عن لسانه لابد ان يكون صحيحا.

لقد فقدنا برحيل رجاء النقاش قامه كبيره فى رواق النقد الادبى يصعب ان نعوضها لكن ما نملكه هو ان ندرس كيف نهضت تلك القامه فصارت باسقه كنخيل القريه المصريه التى ولد بها ناقدنا الكبير رجاء النقاش الذى ترك لنا الساحه بعده صحراء جرداء ■

وداعاً أيها الحالم، يا شبيهى

د. جابر عصفور

ها هو رجاء النقاش يرحل عنا بعد أن أوجع قلوبنا بمرضه الطويل الذى ظل يسرقه، شيئا فشيئا، من محبيه، إلى أن قرر الموت أن يسرقه منا، تاركا فى نفوسنا ألم الفقد، ومرارة الحزن، والشعور القاهر بالخسارة،

خصوصاً فى زمن لا يزال فى حاجة إلى أمثال رجاء النقاش، يملأون الحياة الثقافية من حولهم، بالحيوية الدافقة والاستنارة التى تتسع بعقول القراء وتمتد إلى ما لا نهاية برحابة أفق الثقافة التى تظل فى حاجة إلى العقول التى تقود وتضىء وتشع بقيم الحق والخير والجمال فى كل مكان حلّت أو تحل فيه، فرجاء النقاش آخر الوارثين لجيل الموسوعيين العظام من أبناء ثورة ١٩١٩، جيل طه حسين والعقاد والمازنى وبعدهما يحيى حقى وبقية النجوم الوضاءة التى لا تزال الثقافة العربية مدينة لها بغرس وتعميق معنى الجامعة، والنظرة الشاملة التى تتعدد أدوارها الثقافية فى المجتمع الذى تسعى للانتقال به من وهاد الضرورة إلى أعلى آفاق الحرية ولذلك كان رجاء النقاش دارساً وصحافياً ومحرراً أدبياً ورئيس تحرير لمجلات عدة، أحدث فى كل منها ما دفعها إلى المزيد من الإنجاز والتقدم والاستشراف الطموح للمستقبل الخلاق الذى تدين له به مجلات رأس تحريرها، مثل مجلة «الكواكب» التى رأس تحريرها ما بين عام ١٩٦٥و١٩٦٦، ومجلة «الهلال» (١٩٦٩-١٩٧١) و «الإذاعة والتليفزيون» (١٩٧١-١٩٧٢) وأضف إلى ذلك كله دور المحرر الأدبى الذى يؤديه رجاء بعد تخرجه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٦، مزاملاً الأعلام الذين

تخرجوا معه أو قبله أو بعده، بسنوات قليلة، من أبناء الجيل الذى يضم صلاح عبدالصبور، وعز الدين إسماعيل، وعبدالغفار مكاوى، وعبدالرحمن فهمى، وفاروق خورشيد، وأحمد كمال زكى وهو جيل نضج وعيه فى ظل الأفكار القومية التى أشاعها أمثال ساطع الحصرى وتبناها البعث ثم الناصرية بعدها وهى أفكار لم تكن تحول بين التوجه القومى واليسار فى دائرة اللقاء التى كان أساسها الإيمان بالعدل الاجتماعى والعداء للاستعمار الذى كان حارساً للرأسمالية القائمة على الاستغلال وقد ظل رجاء محافظاً على فكره القومى، منتسباً إليه، مؤمناً به فى كل الأحوال، لا يتحول عنه مهما كانت التغيرات العاصفة التى ناوشت وهددت مسار الفكر القومى ولا أزال أذكر مقالاته فى ذلك، خصوصاً تلك التى جمعها فى كتابه «الانعزاليون فى مصر» الذى كتبه رداً على دعاة انفصال مصر عن محيطها العربى ولذلك كان رجاء النقاش متأثراً على نحو خاص بأستاذنا عبدالعزيز الأهوانى الذى كان أبرز القوميين بين أساتذة قسم اللغة العربية الذى تخرج فيه رجاء النقاش ولكن كانت سهير القلماوى الأستاذة الأكثر تأثيراً فى وعى رجاء النقاش، أولاً لاقترابه من الأدب الحديث، ووقوفه فى صف التجديد فى هذا الأدب، وضرورة انفتاحه على آداب العالم، ودراسته من هذا المنظور وكانت سهير القلماوى، التلميذة الأقرب إلى طه حسين، نصير الجديد دائماً، هى النموذج الذى يجسد هذا المنزع أكثر من غيره فى قسم اللغة العربية، وكان ذلك فى زمن أمين الخولى الذى تحلّق حوله شكرى عياد وفاروق خورشيد وغيرهما من أعضاء «الجمعية الأدبية المصرية» ومؤسسيها فى ما بعد وكان رجاء النقاش أقرب إلى صلاح عبدالصبور الذى تخرج قبله فى المنزع الحداثى نفسه ولذلك لم يكن من المصادفة أن يقوم كلاهما بتسجيل عنوان أطروحة ماجستير، تحت إشرافها فى قضايا التجديد الأدبى عموماً، والشعر خصوصاً، ولكن للأسف حال انشغالهما بالصحافة، والغرق فى دواماتها من دون الانتهاء من أطروحتى الماجستير اللتين حلما معاً بإعدادهما.

ولقد تخرجت فى القسم نفسه الذى تخرج فيه كلاهما، وبعد تسع سنوات من تخرج رجاء على وجه التحديد وابتدأت معرفتى له بقراءة ما يكتب فى «أخبار اليوم» ما بين ١٩٦١ و١٩٦٤ وكانت البداية أن أستاذتنا جميعاً، سهير القلماوى، قرأت معنا فى إحدى محاضرات «النقد التطبيقى» إحدى قصائد أحمد عبدالمعطى حجازى من ديوانه الأول «مدينة بلا قلب» وكان الديوان قد صدر منذ سنوات معدودة وكان تدريس سهير القلماوى، وقد كانت ملء سمع النقد الأدبى وبصره فى

تلك الأيام، حدثاً ترك أعمق الأثر فى نفوسنا، وفى تذوقنا للشعر الجديد الذى بدأنا ننحاز إليه بفضلها وكانت النتيجة أننا اشترينا الديوان الذى صدر عام ١٩٥٩ مع دراسة بالغة الأهمية كتبها رجاء النقاش الذى كانت دراسته خير مقدمة لشعر أحمد عبدالمعطى حجازى، وخير مدخل إلى الشعر الحر عموماً وسرعان ما اكتشفنا أن كاتب هذه المقدمة هو رجاء النقاش الشاب الذى تخرج قبلنا بتسع سنوات، عام ١٩٥٦ على وجه التحديد.

ولا أزال أعتقد، إلى اليوم، أن هذه الدراسة الاستهلالية لديوان حجازى كانت، ولا تزال، إحدى وثيقتين رائدتين فى مجال تبرير الشعر الحر وتحليله. أما المقدمة الثانية، فقد كتبها بدر الديب لديوان صلاح عبدالصبور الأول «الناس فى بلادى» الذى صدر عن «دار الآداب» البيروتية فى مطلع ١٩٥٧، قبل صدور ديوان حجازى بعامين ويعنى ذلك أننى قرأت ديوان صلاح عبدالصبور الأول بعد أن قرأت حجازى الذى أكملت ديوانه الأول بعد أن قرأت دراسة رجاء قراءة الطالب الذى يريد أن يفهم ويتعلم وينحاز إلى قضية الشعر الحر التى أصبحت أهم قضايا التجديد الأدبى لأبناء جيلى.

وقد كانت الدراسة التمهيدية التى كتبها رجاء لديوان حجازى هى البداية التى دفعتنى إلى السعى وراء قراءة ما يكتبه فى النقد الأدبى وكانت البداية فى جريدة «أخبار اليوم»، التى كان يكتب لها مقالاً أسبوعياً فى النقد الأدبى وكان، أيامها، منغمساً، قبل السنة السابقة على تخرجى بكتابه «مقالات عن العالم الروائى عند نجيب محفوظ» الذى كان قد استقر على عرش الرواية العربية من دون منازع، وانهالت عليه مقالات يحيى حقى ورمسيس عوض وعبدالقادر القط وسهير القلماوى وأحمد عباس صالح ومحمد مندور وغيرهم من كبار النقاد فى الستينات من القرن الماضى، ولكن رجاء النقاش آثر أن يرى روايات نجيب محفوظ بعدسة نقدية مغايرة، فاكتشف جوانب لم يكتشفها أساتذته، وكان لما اكتشفه أبلغ الأثر فى إعجابى به بوصفه ناقداً أدبياً واعداً، مرهف الإحساس، فقد كان نقده لا يقل أهمية ولا قيمة عن نقد أساتذته، بل كان يضيف إليهم ما تهديه إليه بصيرته النقدية النافذة وأذكر، على سبيل المثال ما أجمع عليه النقاد فى تناولهم رواية «الطريق» الشهيرة، حيث رأى أكثر النقاد فى بطلتها إلهام نموذجاً للصفاء الروحى المقرون بالطريق الهادى للابن الضال، كى يصل إلى أبيه الرمزى الحقيقة المطلقة وهناك يجد، لديه

وبواسطته، الأمن والسلام والكرامة، على عكس كريمة التى رأوها تجسيداً لعالم الحواس والغرائز الغارق فيها الابن صابر وللاسم مغزاه، فيعجز عن الوصول إلى فىء أبيه وصدره الحنون، فإذا برجاء النقاش يقلب التفسير، ويجعل من كريمة موئل الروح التى لا نصل إليها إلا بعد أن نصل إلى قرارة القرار من الحسية التى ليس بعدها سوى الروح، وذلك بمنطق له بعد صوفى بمعنى أو بآخر.

هكذا انتقلت مع كتابات رجاء، قارئاً، من الشعر إلى الرواية، ومن الرواية إلى المسرح ومضيت متابعاً له، مستمتعاً بما يكتب إلى أن انتهت الحقبة الناصرية، واضطر إلى العمل فى قطر، رئيساً لتحرير مجلة الدوحة واستطعت خلال هذه الفترة أن أصوغ صورة لنقده الأدبى فى ذهنى، خصوصاً بعد أن استهوانى الجانب التنظيرى، أو النقد الشارح، للنقد وانتهيت إلى أن نقده يتميز بسمات أساسية عدة.

أولاها أنه نقد متطور، يفيد من التطورات الأخيرة لنظرية التعبير فى ذلك الوقت، وأن العملية النقدية تبدأ عنده منذ اللحظة التى يتأثر فيها وجدانه بالعمل المقروء، فيسعى إلى فهمه وتفسيره، ومن ثم تقييمه وما بين الفهم والتفسير، يظل مشغولاً بجمع القرائن الدالة التى يجدها فى العمل، ويصل بينها لتصور معناه، قبل تقديم هذا المعنى إلى القارئ فى هيئة تفسير للنص وهى عملية تفضى إلى تحديد القيمة الموجبة للعمل أو نفيها عنه وهو فى ذلك كله لم يكن يتطلع إلى إجراءات معقدة مثل البنيوية التى نفر منها، وما جاء بعدها، مثل التفكيك وغيره من البدع التى كان يمزح معى، مبرراً موقفه منها.

وثانيتها أنه ظل يرى فى الناقد قارئاً خبيراً، اكتسب تجارب عميقة من طول معاشرة النصوص الأدبية والغوص فيها، ولذلك جعل دور الناقد أشبه بدور الوسيط الذى يجمع بين طرفين يحبهما، النص الأدبى والقارئ، مؤكداً هذا البعد بنقده التطبيقى الذى يسعى إلى إيصال معنى النص إلى القارئ فى بساطة آسرة، بعيداً من التقعر أو التقعيد، أو التنظير المتعالى، أو التقليد الساذج لنقد آخر، أجنبى على وجه الخصوص وكانت نصوصه النقدية، فى معظمها، رسائل محبة إلى القارئ عن نص محبوب، فقد ظل رجاء أميل إلى الكتابة عن النصوص التى يحبها، والتى يهتز بها، ولم يكتب عن النصوص التى نفر منها أو رآها عديمة القيمة.

وثالثتها أنه كان يتمتع ببصيرة نقدية، تجعله قادراً على اكتشاف الجوهر الصافى في النصوص، قبل أن يكتشفها الآخرون، ولذلك كان هو السباق فى الكشف عن جوهر شعر احمد عبدالمعطى حجازى، ممهداً الطريق امام من جاء بعده من نقاد حجازى وقد جاء بعد حجازى بسنوات اكتشافه الطيب صالح الذى لم يكن هناك أحد يعرف عنه على امتداد العالم العربى، فإذا برجاء يمسح التراب وغبار عدم المعرفة عن رائعته «موسم الهجرة إلى الشمال» مؤكداً ظهور عبقرية فريدة فى الرواية العربية وكان نقده لرواية الطيب صالح بداية لاهتمام متزايد بهذا الروائى الذى ما كان العالم النقدى ليحتفل به إلا بعد أن أزاح رجاء الستار عن تفرد إبداعه الروائى وقل الأمر نفسه عن شعر محمود درويش وشعر شعراء المقاومة ثانياً، وكانت النتيجة كتابه عن محمود درويش الصادر عن «دار الهلال» القاهرة وكان ثمرة اكتشافه محمود درويش الذى كان لا يزال مجهولاً بالنسبة إلى النشاط النقدى الأدبى والذائقة الشعرية عموماً ولذلك فليس من المبالغة القول إن نقد رجاء النقاش التعريفى والتفسيرى والتقييمى لمحمود درويش، وبعده شعراء المقاومة، بمثابة الضوء الذى وضع درويش وإقرانه فى الدائرة التى سرعان ما جذبت إليها الجميع، فتسابق فى اكتشافها وتناولها، إلى درجة أنها أصبحت «موضة».

ورابعتها أنه كان يؤمن أن أى نوع أدبى لا يمكن فهمه إلا فى علاقته بغيره من الأنواع، فالأدب كيان متكامل، تتبادل أنواعه التأثر والتأثير، وتقوم بالعملية نفسها مع الفنون التى تتجاوب إبداعاتها وتتراسل على نحو لا يمايز بينها إلا بنوعية الأداة التى تقترن بطبيعة الفعل التعبيرى للإبداع من ناحية، وطبيعة الموضوع فى علاقته بالمتلقى الذى يتلقاه من ناحية مقابلة ولذلك كان رجاء يكتشف عمليات التراسل بين النصوص الأدبية، وبينها والأعمال الإبداعية فى الدوائر المتسعة من عمليات الاستقبال والتلقى.

وخامستها أنه ظل على إيمانه فى عملية التقييم المرتبطة بالتفسير أن للأدب وظيفة إنسانية، تجاوز لغتها إلى غيرها من لغات العالم، وأن الغوص إلى قرارة القرار الإنسانى من المحلية هو الطريق إلى العالمية، وأن الأديب المؤثر حقاً هو الأديب الذى يتميز إلى جانب عمق مشاعره وصدق إحساسه بحرصه على التواصل مع قرائه، والوصول إلى أوسع دائرة من المتلقين، غير ناس أنه ينتسب إلى مجتمعات تغلب عليها، بل تتزايد، الأمية ولذلك ظل نافراً من ما رأى فيه تعقيداً مسرفاً

فى الرمزية لا السريالية، مؤثراً الوضوح الأبولونى على الغموض أو الجنون الديونيسى، فكان أميل إلى حجازى وصلاح عبدالصبور ومحمود درويش فى مواجهة أدونيس وغيره من شعراء الحداثة ذات الجذور الفرنسية التى كانت، ولا تزال، مختلفة كل الاختلاف عن الحداثة التى ترجع إلى جذور أنكلوسكسونية.

وكان البعد الفنى فى هذا الجانب الأخير الوجه الآخر من البعد القومى، فقد ظل نفوره من أدونيس نابعاً من تصوره أن شعره تجسيد لرؤية الحزب القومى السورى للعالم، واصفاً إياها بأنها رؤية فينيقية غير عربية، وأن إبداعه غريب الوجه واليد واللسان للقارئ العربى ولذلك، أيضاً، ظل أقرب إلى شعر أحمد حجازى القومى، نافراً من تحولاته الأخيرة التى انقلب فيها على القومية والناصرية وبالقدر نفسه، ظل أقرب وجدانياً إلى شعر صلاح عبدالصبور الذى كان حريصاً على استكتابه فى الدوحة القطرية، حين كان رئيس تحريرها، كما ظل أقرب إلى تحولات صلاح الشعرية، فى القصائد الغنائية والمسرح الشعرى، أعنى التحولات التى ظلت أقرب إلى الوضوح الأبولونى منها إلى الغموض والجمود الديونيسى، فشعر صلاح شعر من «كان يريد أن يرى الجمال فى النظام/ وأن يرى النظام فى الفوضى».

وهما سطران يصوغان فى إيجاز بالغ، مذهب رجاء النقاش فى الحياة والفن.

وليس من المصادفة، والأمر كذلك، أن تتوثق العلاقة الإنسانية بين صلاح عبدالصبور ورجاء النقاش، فقد كان كلاهما بالغ التقدير للآخر، كما ظل كلاهما، ويا للمفارقة، منطوياً على جرح لم يندمل، وندم لم يكن له علاج ناجع، فما أكثر ما كان يحدثنى كلاهما، بعيداً من الآخر، وفى لحظات استرجاع التاريخ الماضى، عن الأسف البالغ لأن كليهما غرق فى الرمال المتحركة للصحافة، فأخذ من كل شىء بطرف، وخاض معارك خاسرة، وفرض عليه ما لم يكن يميل إليه، فانشغل عن التفرغ اللازم للبحث العلمى الهادئ طويل النفس، ونسى حلمه القديم بالاستمرار فى الطريق الأكاديمى، لكن وآه من قسوتها «لكننا»: «لأنها تقول فى حروفها الملفوفة المشتبكة/ بأننا ننكر ما خلفت الأيام فى نفوسنا/ نود لو نخلعه/ نود لو ننساه».

ولكن، وليس آه من قسوتها هذه المرة، على الأقل فى نظرى، فقد حقق كلاهما إنجازاً يدعو إلى الفخار، وأضاف كيفياً، وعميقاً، فى مجاله النوعى، وكلاهما أثر، ولا يزال، يؤثر فى أجيال متتابعة، وكلاهما انطوى، فى إنجازه وإضافته، على إيمان عميق بالإنسانية وجعل من ممارسته الإبداعية والنقدية منارة



تستضىء بها الأجيال المتعاقبة، ويستهدى بها وطنه فى الطريق الشاق للانتقال من شروط الضرورة إلى آفاق الحرية، ولذلك سيبقى منهما الكثير للتاريخ، وسيظل فقدهما جرحاً عميقاً، غائراً، لا يندمل فى نفسى، وحزناً لا يفنى ولا يتبدد، فقد كان كلاهما صديقاً حميماً، وأخاً كبيراً راعياً، وزميلاً سابقاً فى القسم الذى انتسب فيه، مثلهما، إلى تقاليد طه حسين الجذرية، العقلانية التى استمرت فى تلامذته المباشرين، وانتقلت منهم إلى صلاح ورجاء، ومنهما معاً إلى، من ينزل منهما منزلة الأخ الصغير الذى أدركته، مثلهما، حرفة الأدب فوداعاً يا رجاء، يا شبيهى، يا أخى ■

المحب الغاضب

فريدة النقاش

اذكر الآن جيدا الكلمات الأولى للرسالة التى كتبتها له حين سافر إلى القاهرة عام ١٩٥٢ ليلتحق بالجامعة، وكنا لانزال فى قريتنا «منشية سمنود» دقهلية قبل أن نشد رحالنا إلى العاصمة حتى نكون إلى جواره وندخل إلى الجامعة تباعا، نحن الأشقاء الثمانية من الأسرة الريفية المستورة بالكاد، والتى وجدت فى التعليم قارب نجاة سيره ابى المدرس والشاعر «عبد المؤمن النقاش» رحمه الله بمهارة وتفان، وكانت رفيقة عمره قد خذلته حين مرضت مرض الموت بعد وصولنا إلى القاهرة وكأنها لم تحتمل الغربة فى مدينة بلا قلب فقررت أن تعود إلى الريف.

«الأديب الفاضل أخى الحبيب» هكذا بدأت الرسالة الأولى من حياتى.

فكرت طويلا فى هذه الكلمات التى خيل إلى حينها اننى أبدعتها وحدى حين كنت انظف زجاج اللمبة الجاز نمرة عشرة التى حذرتنى أمى من كسرها .. وكنا نستعد لدخول الليل الذى طالما احسسته شديد الحلكة فى القرية إذ تنطلق فيه العفاريت والأشباح والجوارح دون خوف من عيون النهار والبشر كما كانت تحكى جداتنا ونصدقهن.

حدثت «رجاء» فى خطابى عن ما قرأته، فقد كان هو بعد أبى رحمه الله أول من أعطانى كتابا اذكر انه كان رواية مترجمة للأمريكى «جون شتاينبيك» .. قال لى خذى وإقرئى فلم أكف عن القراءة أبدا بعدها.

كذلك هو الذى اختار لى قبل أن يسافر فستانا أصفر جميلا مزينا بوردة حمراء لم أستطع أن اخبئها فى كراسى كما يفعل العشاق لأنها

أن أكتب عن «رجاء النقاش» أخى وأستاذى فكأنما أكتب عن نفسى، وهل يكتب الإنسان عن نفسه دون أن يكذب؟

كانت من قماش .. كان فستانا للعيد أرتديه لأجربه قبل ان يحل الصباح فلم يرق له أنه ليس مكويا فحمله إلى المكوجى وعاد به لكى يليق الفستان بالملكة «فريدة».. تلك الملكة الطيبة التى انا سميتها ، وقد أحبتها «أمى» كما احبها المصريون وتعاطفوا معها لأنها كانت مظلومة فهى امرأة فاضلة وبسيطة تتحمل العيش مع الملك الفاسد «فاروق» ولا تنجب سوى البنات» وكان الملك متلهفا لإنجاب وريث لعرش أسرة «محمد على» ودستور العائلة لا يعترف بولاية النساء فتزوج «ناريمان» التى أنجبت له ولى العهد.

لا أنسى الفستان الأصفر ولا الوردة الحمراء، وأفكر الآن فقط أن هذا هو سر حبى الغامر للون الأصفر والذى يحرك فئ سرورا غامضا وحنينا لماضى بلا هموم ملأته الطفولة بسعادة مجانية.

هل أحكى حين لدغتنى عقربة ذات مساء وحملنى هو بلهفة إلى حلاق الصحة لكى يخرج الدم الفاسد من ذراعى؟ أم حين حقنه الرجل نفسه بحقنة بنسلين - على ما اظن - فأغمى عليه، وكدت أموت خوفا وأخذت اصلى وأبكى إلى أن عاد إليه الوعى؟ أم حين تعرض للغرق ذات مرة وهو يصطاد فى الترعة ومنعنا أبى جميعا من السباحة والصيد، ولكن بعد أن كانت البلهارسيا قد لبدت فى أجسادنا وأخذنا نعالجها حتى بعد ان نزحنا إلى العاصمة، وماتت «أمى بسببها»؟.

أخى رجاء محب للتأمل، وهو فضلا عن ذلك حكاء من طراز فريد، يملك حسا ساخرا جميلا، ويسأل كثيرا عن معنى السعادة، ويحتل الرضا من قاموس مفرداته مكانا مميزا، وإن كان هو ليس راضيا، محبته غامرة وخصومته قاسية وشوقه للمعرفة بلا حد.

طالما سألت نفسى من أين يأتى «رجاء» بهذه العاطفة الجياشة تجاه الفقراء والفلاحين على نحو خاص، هل هى تجربتنا نحن مع الفقر والأيام الصعبة التى عشناها والتى علمته الصبر والجلد والمثابرة، وملأته بالخوف على مستقبل من يحبهم .. أم أنها الثقافة الواسعة والمعروفة العميقة بتراث الأدب العالمى كنبع فياض لرهافة المشاعر.. وأقول لعله التفاعل الخلاق بين هذه العوامل مجتمعة.

وحين أسأل نفسى: ترى كيف نجونا بعد هذه الرحلة الطويلة الصعبة أجد أن «رجاء» هو بطل هذه النجاة .. إنها الصلابة التى تعلمناها منه حين عمل ليل نهار وهو طالب فى الجامعة لنقف على أقدامنا، وتحمل فى صباه وشبابه الأول مسئوليات جسام ينوء بها الكبار كنت أتأمله حين يعود ماشيا من جامعة القاهرة فى الجيزة لبيتنا القاهرى الأول فى شبرا حتى يوفر قروش المواصلات» ويعود مرة أخرى فى المساء ماشيا أيضا إلى مقهى «عبد الله» فى ميدان الجيزة ليلتقى «أنور

المعداوى، الناقد الذى أنصفه هو بعد ذلك وكان صديقا حميما له، وكان نفر من الأدباء الذين لمعت أسماؤهم فى الحياة الثقافية بعد ذلك يلتقون كل مساء هناك.. وطالما راودتنى نفسى أن أذهب لولا أن النساء لا يرتدن المقاهى الشعبية.

وكنت شاهدة على قصة حبه الأولى فى بداية الخمسينيات التى تألم بسببها كثيرا، وكتب عنها «أحمد عبد المعطى حجازى» قصيدته «الأميرة والفتى الذى يكلم المساء» ونشرها بعد ذلك فى الديوان الأول «مدينة بلا قلب» الذى كتب له «رجاء» مقدمة ضافية تعد حتى الآن من أهم الدراسات النقدية عن شعر التفعيلة فضلا عن أنها قدمت «حجازى» تقديما يليق بموهبته الكبيرة.

كما أن «رجاء» هو أول من قدم للوطن العربى شعراء المقاومة الفلسطينية وعلى رأسهم «محمود درويش» فى وقت لم يكن العرب يعرفون أى شىء عن فلسطينى ١٩٤٨ الذين يعيشون فى إسرائيل ويتعرضون للتمييز ويحتمون بثقافتهم ويقدمون إبداعا جميلا .. وقد تجاهلهم العرب الآخرون كأنما لينسوا النكبة التى حلت بهم.

•••

ولولا أننى كتبت هذه الكلمات بعجلة وفى ظرف خاص جداً لكنت وضعت كتابا كاملا لا فحسب عن علاقتى الحميمة - بل والشائكة فى بعض الأحيان - مع «رجاء» وإنما أيضاً عن إنتاجه الفنى المتنوع والأصيل والذى جعله واحدا من أهم نقاد زماننا وهو يواصل مسيرة «طه حسين» و«العقاد» مضيفا تفرده الخاص. كنت سأكتب باستفاضة عن منهجه النقدى الإنسانى، أو ما كانت «مى زيادة» قد أسمته بمنهج العطف النقدى الذى وإن كان يقرأ الأعمال الأدبية والفكرية بعين الناقد الذى يمتلك أدواته بما يمكنه من وضع النص والكاتب فى المكان الصحيح، فإنه يتسم أيضاً بالمحبة الغامرة وهو يلتقط بمهارة مكامن القوة والموهبة ، ويظل يرعاها ويرعى صاحبها مهما كان مغمورا إلى أن يشتد عوده، وينهض ، كما بحث فى النص عن القيمة الإنسانية العليا التى تنعكس فى الشكل والأدوات.

يفرح «رجاء» أيما فرح لكل كشف جديد فى عالم الأدب والفكر ويظل يفتش بدربة صياد اللآلئ الماهر الذى يعرف كيف يفرق بين الأصداف والمحار. ومن من كتاب لم يكن يعرفهم أحد وحين سلط عليهم رجاء ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق فى عالم قاس تقوده المصالح الكبيرة وحتى الصغيرة، وتحكمه المجاملات والمقايضات ساعدته على إنجاز هذه المهمة الجلية الموضوعة دائماً على جدول أعماله، قدرته الفائقة على الإحياء، وكم من مؤسسات محصنة كانت قد ماتت وركدت وحين تولى قيادتها بث فيها روحا وحياة، ودفع بها إلى متن الحياة الثقافية

والفكرية فى مصر والوطن العربى، إذ أنه يرى أن مهمة المثقف المصرى لا تكتمل إلا فى بعدها العربى وروحها القومية التقدمية الإنسانية الخلاقة.

حين أعاد إدوارد سعيد قراءة كتابه العمدة الاستشراق بعد ربع قرن من صدوره مراجعا بعض الأحكام والفرضيات والتوجهات الفكرية فيه، كتب يقول: لقد استقر بى المطاف على النزعة الإنسانية فى شمولها وغناها، وأنا الآن حين أطل على عناوين كتب «رجاء» التى قرأتها أكثر من مرة، وتعلمت منها شأنى شأن الكثيرين، أقول إنه «رجاء».

وعلى العكس من إدوارد سعيد - قد بدأ بالنزعة الإنسانية مبكرا جداً منذ كتابه الأول الذى صدر وهو فى الرابعة والعشرين من عمره حين رأى فى الإنسان أرفع القيم، واعتبره جديرا باجتهاده كى يصبح إنسانا ويخرج من طور الوحش، ودافع عن كرامته وحقه فى الحياة وحريته، ووثق به وبقدرته - لو توفرت له الظروف المواتية - على أن يرتقى إلى ما لا نهاية ويسيطر على مصيره، ويذهب إلى أقصى ما يمكن أن تحمله إليه مواهبه التى تستفتح دونما قيود فى مملكة الحرية هذا لو تخلص الإنسان إلى الأبد من ذلك الخوف والحاجة وحينذاك سوف يقطع هذا الإنسان كل صلة له مع الوحش ليغوص تاريخه الأول فى الأعماق الغائرة للاوعى الإنسانى. ورغم أن نجيب محفوظ المتشائم الإنسان هى بلا حد.. ذلك الإنسان الذى بوسعه دائماً أن يصنع نفسه.. ألم يفعل هو ذلك بالضبط؟

وفى نزعته الإنسانية تلك يمزج «رجاء» بين التراث العقلانى المجيد للثقافة العربية الإسلامية وصولا إلى عصور الأحياء والنهضة، وبين تراث حركة التنوير الأوروبية والفكر الاشتراكى بمدارسه المتنوعة وكلها تضع الإنسان فى أعلى مكان، ذلك الإنسان الذى يستحق الرحمة وليس العقاب، بصرف النظر عن دينه أو جنسه، عن لونه أو طبقته، ومن كل هذه المنابع راكم «رجاء» شحنة نفور إضافية من الاستغلال والظلم وانسحاق الفقراء وإذلالهم.. وطالما دافع بحرارة عن مبادئ حقه . ومن هنا كان حبه العميق لجمال عبد الناصر وحلمه ، ذلك الحلم الذى كان مثل صاحبه قصير العمر، عبد الناصر الذى أطل من شباك قطار كان يحمله إلى بلد فى صعيد مصر ذات يوم والتفت إلى محدثه قائلاً:

- ها نحن قمنا بالثورة قبل سنوات ومازال الفلاح يعيش على البصل والمش.. فمتى سنغير كل ذلك.. متى؟

متى حقاً؟

فى حوار معه لم ينشر :
رجاء النقاش : حرية الخطأ .. مبدأ فكرى أساسي

د . محمد حسين أبو العلا

سنوات طوال عبرت منذ أن هاتفنى ناقدنا وكتابنا الكبير رجاء النقاش مبديا ضرورة إرجاء نشر ذلك الحوار اثر تلك الزوابع والمهاترات الثقافية المجتاحة للعقول والأنفس ، وقد غالبتنى دوافع الحب والعشق الخاص فكان احترام الرغبة ادراكا لمغزى ما يرمى إليه من درء طاقات الغضب الطائش والمتفجر على ألسنة المثقفين ....

أدب ونقد

ها هو الحوار ينشر اليوم لفظا ونصا ليظل محفوراً فى ذاكرة جيل بكلمات نابضة بدفقات الوعى وافكار منسابه تطوق الاجواء ورؤية منطلقة من افاق ملهمة .. ها هو ينشر اليوم أيضا ليقرأه القاصى والدانى بعد أن كان رجاء هو قارءه الوحيد !!

لم يكن ما حدث من شد وجذب وأخذ ورد بين المثقفين حول ما أثارته اعترافات الكاتب الكبير" نجيب محفوظ " خاصة منها ما ارتبط بثورة يوليو وزعيمها ورجالها، إلا أصداء باهتة على هامش مساحات الحرية التى تجاوزت لديهم كل حد فتحولت إلى رعونة ثقافية وفوضى فكرية بدلا من كونها قيمة عليا يدافع عنها المثقف الحق لا أن يسعى نحو هدمها !!

وربما لا تقف أبعاد القضية عندى عند مجرد أراء صدرت وأفكار أذيعت ثم وجدت موجات عاتية من الصدود والمعارضة الجوفاء ، بل أن طرح القضية على وجهها الحقيقى له إيجابيات ودلالات تتجاوز الحصر لكنها لا تخلو من عمق خطير وهى أن المثقف المصرى وفى لحظاته التاريخية هذه لا تزال تحكمه العواطف والانفعالات ولا تزال لغته وادواته فى التقييم والتحليل هى المهادنة أو الهجوم الصارخ بل لا يزال يترجم العالم بمنطق أحادى يذكرنا بمشاهد مثيرة فى تاريخ

القرون الوسطى !! غير مكترث نهائيا بآليات تعامل وتفكير ذلك المثقف الغربى الذى يطرح اية قضية على وجهها وبرؤية متعددة أملا فى الخروج منها بنتائج ترضى طموحاته العقلية دون أن ترضى جموحه النفسى !!

وبعد هذه الجولة التى خاضتها بعض الصحف المصرية ساعية سعيا دؤوبا نحو توجيه اللطمات "لنجيب محفوظ "سعينا نحن ايضا إلى الناقد والكاتب "رجاء النقاش" لنستوضحه أراءه فى قضية التنوير وطبيعة الفكر واثره وعلاقة المثقف بالواقع بشكل عام بعد أن طافت برأسى شكوك وهواجس كثيرة حول ما يسمى مائة عام من التنوير الثقافى ، على اثر ما سمعنا وقرأنا من احفاد رواد التنوير !!

معنى التنوير

● وفى البداية قلنا للناقد الكبير "رجاء النقاش" : ما تعيشه الساحة الثقافية الأن من أحداث ومواقف وافكار يستدعى بالضرورة الايمان برفض فكرة أننا قد عشنا قرابة مائة عام من التنوير ما رأيك ؟

- هناك حقائق تاريخية يجب أن نعترف بها ونظرة إلى المستقبل يجب أن تكون أكثر طموحا وأكثر عمقا مما نحسه او نعيش فيه فلو نظرنا إلى مجتمعنا منذ ان بدات حركة التنوير على يد "رفاعة الطهطاوى" وحتى الآن نجد اننا قفزنا قفزات هائلة. فقبل مائة عام أو أكثر لم نكن نعرف شيئا عن التقدم فى اوروبا وكان مجتمعنا يعانى المرض والجهل والامية والانكفاء على الذات والارتباط بمفهوم سئ لتراثنا كله بما فيه الدين ،أى أن تراثنا تحول فى الذهن بسبب الجمود الفكرى الى خرافات واساطير واشياء معطلة بعد أن كان فى الاصل قوة دافعة الى التقدم والحضارة ، انه لا يستطيع أحد أن ينظر إلى التاريخ والى جهود مفكرى التنوير نظرة منصفة إلا ويقول إن المجتمع قد تطور تطورا كبيرا فى هذه الفترة وخذ مثلا أية قضية جزئية لتقيس عليها وضع المرأة فى القرن الماضى فبسبب دعوات التنوير القوية التى تبناها" رفاعة الطهطاوى" من أجل تعليم المرأة ثم دعوات "قاسم امين" من أجل تحريرها من الكثير من القيود الاجتماعية فى اطار مسيرة الاصلاح الاجتماعى ثم دور طه حسين فى معاركه الضخمة فى سبيل دخول المرأة الجامعة المصرية حتى أصبح مفهوم تعليم المرأة عند الطبقات الشعبية وغير الشعبية مفهوما مقبولا ،وعلى مستوى آخر لو أخذنا الأزهر كمثل مع جهد معلم التنوير الأكبر الطهطاوى من

اجل أن يصبح الأزهر جامعة عصرية يتخرج فيها الاطباء والمهندسون تأكيدا لدورها كأقدم جامعة فى العالم وكذلك الدور التنويرى لمحمد عبده من خلال دعوته العظيمة للاصلاح الدينى القائم على الاجتهاد العقلى وفك الاشتباك بين الدين والعصر أو بين المجتمع وقضايا الحضارة ورغم ذلك تعرض لمشاكل لا أول لها ولا آخر من اجل تحقيق معنى التنوير وتحرير المجتمع .

ويؤكد "النقاش" ان حركة التنوير هى حركة ضخمة ولا يمكن انكارها لأن الفكر مؤثر فى الحياة تأثيرا كبيرا جدا ولكننا نحن اليوم ننظر إليه نظرة متشائمة ومرجع ذلك إلى عدة أمور أولها اننا لا نعرف تاريخنا جيدا فمائة عام من التنوير نحن لانقرأها قراءة جيدة فضلا عن ان حركة التنوير يجب أن تصحبها دراسات موضوعية حتى نعرف ماكنا فيه وما انتهينا إليه

ونقطة أخرى هى أن كل الشعوب تتعرض لهذه الأزمة فبعض اللحظات يكون فيها ضغط الواقع كبيرا جدا حينما تكون المشكلات أكبر من الجهد المبذول للتغلب عليها ،وبالتالى نحن نمر بمرحلة من هذه المراحل حين نقارب بين موقفنا الآن وما يعيشه العالم من قفزات ضخمة نستشعر على اثرها شكلا من أشكال الأزمة النفسية ويضيف "النقاش" إن الانفعال الوقتى لا يكفى لمعالجة المشاكل وبالتالى فالمطلوب وخاصة من المفكرين والمثقفين وأصحاب الرأى أن يدرسوا ويفهموا أصل وجذور المشكلة ويحاولوا حلها على ضوء ما حدث من قبل أو على ضوء أفكار جديدة من الممكن أن يتوصلوا إليها فنحن لسنا بحاجة إلى ادانة الماضى ممثلا فى حركة التنوير لان هذه الحركة كانت تمثل إجابة حاسمة على مشكلات موجودة فى عصرها بينما نحن اليوم نعانى مشكلات أخرى جديدة !!

الاستقلال الثقافى

● إذن أنت تعتبر أن جيل الرواد قد استطاع إعادة صياغة الفكر المصرى؟

- نعم .. وبكل تأكيد فحركة التنوير المصرى أنا أزعم انها من اخطر حركات التنوير الفكرى فى العالم لأنها استطاعت ان تخلق مجتمعنا مؤهلا لان يتحمل مسئولية الاستقلال وبناء دولة حديثة وانا اتفق مع مقولة طه حسين فى أن الاستقلال الثقافى هو اساس الاستقلال السياسى والاقتصادى لانه إذا لم يكن لديك عقل متحرر وقادر على المناقشة والعلم والاستيعاب فأنت لا تصلح إلى

الاستقلال لأن البداية من العقل والفكر، أقول إن جيل التنوير قد ادى دورا فى منتهى القوة والخطورة انعكس على تطور المجتمع فى كل المجالات ، فالذى يقرأ مجلة الرسالة القديمة يجد أن معظم الافكار والمبادئ التى جاءت ثورة يوليو لتنفيذها .. على مدى ٢٠ سنة كان شغلها الشاغل هو ترسيخ هذه المبادئ فى اذهان الناس ، بل أن عبارة الاعداء الثلاثة : الفقر والجهل والمرض هى عبارة مجلة الرسالة التى انتشرت فى الشعب كله دون أن يعرف أصلها وهى عبارة اطلقها " أحمد حسن الزيات " وأكثر من ذلك انى قرأت فى احد مجلات الرسالة دعوة لانشاء السد العالى .. ما رأيك ؟! فى مقال واضح الملامح والمعالم عن ضرورة إنشاء السد وفكرة العروبة وان مصر جزء حيوى من الامة العربية لمهندس شاب ، أقول ..ان عشرات المجلات الثقافية التى ظهرت فى بدايات هذا القرن مثل الثقافة والرسالة والكاتب المصرى ساهمت فى خلق حركة تنويرية أكدت مبادئ عامة شاعت واصبحت موجودة فى المجتمع ولما جاءت الثورة وبدات تحققها لم تجد صعوبة ما لأن المجتمع اصبح مهيأ بذاته لاستقبالها وهذا هو دور الفكر التنويرى الصحيح ، ولو جاءت هذه الثورة فى اى عصر وطالبت بما طالبت به دون أن يكون هناك تمهيد فكرى لذلك لم تكن تنجح إطلاقا لولا الاعداد الذهنى والروحى الدافع بالحركة للامام ، فالفكر ليس قرار أو قانونا تصدره انما هو عملية تنوير بالمعنى المادى .

• كتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" هل مازال يحظى لديك بما كان يشعه من رؤية تنويرية خاصة ام ان الزمن قد تجاوزه ؟

- الزمن لم يتجاوز اكثر كتابات طه حسين، وما يشعه هذا الكتاب من رؤية تنويرية لا تزال نستلهمها ، فهذا الكتاب كان يناقش فكرة مستقبل الثقافة بعد الاستقلال لكنه ايضا كان يمثل دعوة صريحة نحو التمسك بالعناصر الايجابية فى الشخصية الأصيلة مع الانفتاح على حضارة العالم والاستفادة منها على عكس ما كان يطلب اعداء التنوير أنذاك .

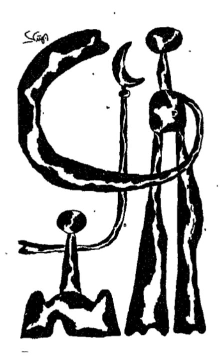
وبصفة عامة أجاب "طه حسين" على أسئلة عصره أجابة مستقبلية رائدة يمكن أن يستفيد منها مثقفونا الآن من حيث دراسة تاريخية الظواهر بشكل عقلانى وإخضاع كل شئ للمنهج العلمى الدقيق والجراة العقلية النادرة ، وفى هذا الاطار اعتقد أن "طه حسين" قد حقق نصرا كبيرا فى معركة كتابه "الشعر الجاهلى " الذى صدم به الحياة العقلية فى مصر واستطاع أن يدير هذه المعركة متلافيا زوابعها وعواصفها حين اعتقد أن المواجهة والصدام غير مجديين ، وفى رأيى

انه قد استخدم المنهج الفابى فى هذه المعركة فكان يقرب ويبعد وينتظر ثم يبدأ مرة أخرى .أننى مهما انسى من "طه حسين" فلن أنس مقالتة المعجزة "حرية الخطأ " أبان شهور الثورة الأولى والذى كان يكرر فيها انه ليس كل من يخطئ تكسر رقبته فالوصول للنتيجة السليمة يستلزم حرية التجربة والخطأ !!

التغيير الحضارى

• هناك مقولة مهمة للدكتور"مراد رهبة "تؤكد أن مصر بها مفكرون متنورون وليس بها تيار تنويرى ؟

- بالطبع لا اوافق على هذه المقولة لانها تحمل نوعا من التشاؤم لدى الدكتور مراد وهبة نتيجة للكثير من الأحوال القائمة فى المجتمع الآن وهذا التشاؤم لايعكسه على الواقع بل يعكسه على التاريخ بدليل أن الكلام الذى قلناه عن قاسم امين مثلا يعبر عن ان دوره مستمر إلى الآن ونحن فى حاجة إليه أكثر لأن هناك ردة حضارية موجودة الآن ويشكل مفزع يدعونا إلى الرجوع لجذورنا التنويرية ،وبالتالى كيف يقال أن حركة التنوير لم تثمر شيئا بينما هى حركة رهيبة ومؤثرة تطور فيها الازهر وتحررت فيها المرأة وتم إقناع المجتمع بالحضارة الغربية وعدم الاحساس بأنها حضارة معادية لتراثنا وتقاليدنا وقيمنا وانا على يقين من إخلاص وصدق الدكتور "مراد وهبة وحسن "نواياه نحو الثقافة والفكر ولكن اقول له ان تاريخ التنوير عندنا يمكن أن يعطيه الكثير من التفاؤل وان الفكر لا يضيع والفكرة الجيدة ستظل معلقة فى الهواء إلى ان تتحقق بعد أن تطارد المجتمع ، والتطور هو فكر يقدمه المستنيرون والمبدعون ثم يشيع فى المناخ العام فى المجتمع ثم تأتى حركات التطوير والتجديد لتنفيذ ما شاع وما استقر فى الأذهان واى مفكر مستنير يدعو إلى اراء مستقبلية لا تتحقق فى عصره ولكنها تتألق يوما بعد يوم لدرجة اننا نذكره وكلما مر الزمن تذكرناه أكثر مستوحين تاريخ حياته وافكاره لأن الأفكار الجيدة لا تموت والمفكر الذى يتصور أن الفكر رخاء ورفاهية هو تفكير قاصر لا يأتى من قبل المفكر الذى يحمل صورة للمستقبل ويحمل هم التغيير الاجتماعى والحضارى والفكرى فالافكار تعيش فى عقول الناس تختمر وتنضج ويضاف إليها وبعد ذلك تجدها فى لحظة انفجرت ثم اثمرت .



● الساحة الثقافية الان ؟ ماذا تحتاج من وجهة نظر ناقد فى قيمة رجاء النقاش ؟

- الساحة الآن تحتاج إلى مفكرين شجعان لهم رؤية فكرية مستقبلية تدفعهم بأمانة وصدق نحو اجابات جديدة قوية للاسئلة المطروحة الآن ولابد أن يكون هناك وصل بين قوة الرأى العام وقوة المفكرين .نريد فكرا شجاعا لدية القدرة على الاقتحام والتواجد والا فسوف يزداد الظلام فى العالم العربى حتى يتم تصحيح المعادلات القائمة وعلى رأسها معادلة وجود مفكرين مستنيرين مع رؤية مستقبلية قادرين على التأثير فى الرأى العام والدولة والكوادر المستقبلية وبدون ذلك أظن ان المستقبل العربى سيتعثر كثيرا .

وأقول انه لا ثقافة ولا أدب ولا فن إلا اذا كانت هناك رؤية مستقبلية ، فالثقافة هى ثمرة الاختلاف بين العقل الناضج الموهوب والواقع الممتلئ باخطاء وفى حاجة ملحة لتعديل فتخرج الفكرة الثقافية فكرة الاديب والفنان والمفكر لأن الثقافة هدفها الاوحد هو التغيير والتقدم وتعديل اخطاء الواقع ■

المـــــــــــوت مُـــــــــــرٌّ

أحمد عبدالمعطى حجازى

قبل خمسين عاما وبالتحديد فى العاشر من اغسطس عام سبعه وخمسين وتسعمائه والف دخلت دار روز اليوسف القديمه فى شارع محمد سعيد باشا حسين حجازى الان حيث كنت اعمل وجلست الى مكتبى لاجد برقيهينبئنى فيها شقيقى ان والدنا توفى اليوم.

كان الوالد فى نحو السبعين ولميكنيشكو مرضا فلميخطر لى ولا لغيرى حين زرته قبل اقل من اسبوع ان النهايه قريبه الى هذا الحد وانها ستفاجئنا دون سابق انذار.

نهضت من مكتبى مهرولا متجها الى مواقف سيارات الاجره فى اول شبرا لاخذ مكانى فى اول سياره متجهه الى قريتنا التى لا تبعد كثيرا عن القاهره مجتهدا فى الا اتاخر حتى القى عليه النظره الاخيره واشيعه مع المشيعين الى مثواه الاخير ووصلت السياره بعد اقل من ساعتين لاتلقى المفاجاه الثانيه وهى ان الوالد مات بالامس ودفن بالامس وان البرقيه التى تلقيتها صباح اليوم ارسلت بالامس ووصلت بعد ان غادرت مكتبى فى روز اليوسف وكنت فى ذلك الوقت شابا اعزب لايصبر كثيرا على البقاء فى منزله الذى لايونسه فيه احد ولايملك فيه من وسائل الاتصال مايمكن الاخرين من ابلاغه نبا كهذا النبا

الذى حدث لى قبل خمسين عاما مع ابنى حدث لى منذ ايام مع رجاء النقاش.

أدب ونقد

والنتيجه انى قرات الخبر حين تسلمت البرقيه فلم التفت بسبب الصدمه للتاريخ الذى ارسلت فيه.

عدت الى القاهره وقد هالنى ما حدث لاكتب فى رثاء الوالد قصيدتى التى سميتها رساله الى مدينه مجهوله وفيها اقول:

ابى
وكان ان ذهبت دون ان اودعك
حملت لحظه الفراق كلها معك

حملت الام النهايه احتبست ادمعك
اخفيت موجعك
ثم اتفجع مخاطبا اصدقائى:ـ

مات ابيا اصدقاء
الغرباء ودعوه بينما انا هنا
لمحتهم فى الضفه الاخرى
ظلالا فى غروب الشمس تنحنى
على القبور

ما وجدت زورقا يقلنى
لم استطع وداعه فيبومه الاخير!

●●●

من الذى احتضننى بعد عودتى الى القاهرهيواسينى ويخفف من لوعتى الحارقه ويحيطنى بدفئه وحنانه؟ رجاء النقاش!

من الذى استمع الى قصيدتى فور انتهائى من نظمها؟ رجاء النقاش!
من هم الاصدقاء الذين وجهت لهم الخطاب فى هذه القصيده؟ اولهم رجاء النقاش!
فى تلك السنوات لم نكن نفترق وهاهى الفاجعه تتكرر ويكون بطلها الاول هذه المره رجاء النقاش!

•••

في الايام التي سبقت تكريم نقابه الصحفيين للفقيد منذ نحو شهر سقطت فريسه لنزله حاده منعتني من المشاركه في تكريمه فلم املك الا ان اكتب كلمه عنه تشرح حالي ولا توفي رجاء حقه ارجو فيها انيواصل المقاومه من اجل الكثيرين الذينيحبونه ويحتاجون اليه وقد دفعه نبله لانيطلبني في التليفون ليشكرني على ما قلته في هذه الكلمه بعد ان قراها فلميجد في المنزل الا ابني الذي اخبره اني مسافر ثم ابلغني بالتليفون ان الفقيد اتصل. كانت هذه اخر فرصه اسمع فيها صوته!

وانا متاكد من ان رجاء النقاش قاوم الموت بكل مايملك من طاقه روحيه وجسديه قاومه كما كانيقاوم الشر في كل صوره وكان في مقاومته للموت صبورا لانهيعرف ان معركه الانسان مع الشر معركه طويله وكان شجاعا لان احدا لايستطيع انيقاوم الموت مع احد وانمايقاومه كل انسان على انفراد فمن النبل انيكون شجاعا. هذه الشجاعه ضروريه لنستنهض بها كل قوانا ونكسب معركتنا مع الموت فان لم نكسبها فهي ضروريه لنتقبله اذا لميكن منه بد.

وانا اعرف بعد ذلك ان رجاء النقاش لميقاوم الموت وحده بل قاومه معه كل الذين احبوه عرفوه او لميعرفوه وفي مقدمتهم زوجته وولداه واشقاوه واصدقاوه لكننا في النهايه نموت وحدنا!

ثم انني اعرف شيئا اخر هو ان امثال رجاء النقاش قادرون على مقاومه الموت حتى بعد رحيلهم لانهم تركوا للحياه من نبضات قلوبهم وثمرات عقولهم ما لايستطيع الموت انيقربه اويغلبه!

•••

اكتب هذه الكلمه وانا لا ازال في الضفه الاخرى في فرنسا التي حملتني على الرحيل اليها والبقاء فيها الى اليوم اسباب مختلفه لايخلو بعضها من قسوه تزيدها ايلاما انباء الرحيل التي اسمعها ولا استطيع المشاركه في توديع الراحلين.

يا اصدقاء

لشد ما اخشى نهايه الطريق!

وشد ما اخشى تحيه المساء

أدب ونقد



الى اللقاء!

اليمه الى اللقاء واصبحوا بخير

وكل الفاظ الوداع مره

والموت مر

وكل شيء يسرق الانسان من انسان!

شعر

الـــــــــــــــوردة

(إلى رجاء النقاش)

ماجد يوسف

صحيح الورد كان كاسى
.. ومالى الأرض بالألوان
.. وكله ف جنته راسى
.. ومفيش فرصة لورده كمان
لكن شفناها طالعة طلوع
.. .. تشق طريقها للموضوع
.. وتوسع لروحها مكان
.. وتتضوع - ولا أروع - بعطر جديد
.. حضور فاغم بديع وعنيد
.. بعـود أهيف ف وسط عـيـدان من العواميد
.. رشيق .. أرهف
لكن واضح وضوح الشمس
.. وفـ وسط الزعيق الصارخ العالى
.. كـان هو اسـتطيـقـا الهمس

وشفنا النقد بيقرب لكل الناس
وعشنا المعنى متشرب..
.. برقة وقدرة ورهافة
.. وروح حساس
وكان الفيصل الواضح فـ أى سياق
خطاب زواج ما بين العقل والأعماق
.. وعمره ما تاه عن البوصلة
.. كما هو شأن أسلافه من الأصلاء
وضوح للفكره بيكافئ صياغتها
وعين على بكره تدى الروح بلاغتها
وعـمـر الرؤية مـازاغت ولا تاهت بصيرتها
.. فى عز نكير مضاد ليها
وبيظاهر أعاديها
،عروبة مصر مش محتاجة للبراهين
دخول العصرح يجدد خطاب الدين

توسيع الافاق للفكر
.. لحوار أسوياء بلا حكر
.. مدخلنا إلى التمدين،
والعود الرهيف يشتد
والعطر الشفيف يمتد
ويعاين ف الاستبداد
ويواجهه ببساطة الورد
وكان الدرس للأولاد
«مفيش زى الحقايق مجد»
ويتضوع من الدوحه بأريج وأريج
ومصر ف مركز اللوحة نشيدها
نشيج
ووردة حبه مجروحة ولها اهازيج
وكم مد الإيدين طبطب
فضل مصرى وعروبى أصيل
إذا شرق .. وإن غرب
لا زيف يوم ولا افق ولا غرب
ولا دور له ف الأزمات على مهرب
وعمر القلب ما عطب
فى ليل إسود إيقاعه وبيل
ولا قال الأدب شطب
وقفلنا غنا المواويل
وفضلت كلمته اصعب ف وسط رياح
وفضلت رؤيته أقرب لحل متاح
وكان دايما مع النصف الملان م الكوب
ومش ويا البكا ابدا
على اللبن اللى راح مسكوب
ولا هـــادن ولا هـــون ف

منكوب
لكن كان طبعه متفائل
وقلمه - لو يبان هادى -
لكنه ناقل الحركة لأفق تانى
إلى الفيض اللى مليان وجد إنسانى
من الحب اللى كان ف الغربه بيعانى
من اللحظة اللى ممزوجة بشجن
مزمن
عزف ويايا الحانى
ف لحظة يأس
وكان اقرب لوجدانى وشديد البأس
ورد العقل لإيمانى.. وروح للراس
وكان بستانى شاتلها بجناين ورد
منين ما يروح
وكان بيعانى مشاكلها بجنان وبود
.. مش مجروح
وكان قايد مشاعلها ف ضلام وف برد
.. ويعزة وحلاوة روح
لا ضل طريقه ف الغربة
ولا زاغ قلبه ف أوروبا
ولا ضعف الوطن جواه
.. ف أيام سودا أو صعبه
والوردة الوحيدة الحرة ف جنينته ..
بقت وردات
.. لها ف مصر العزيزة ثبات
لها فى كل مصر اخوات
يخش الكاتب الناشئ جنينة حبه..
يبقى كبير
يخش الشاعر الباشق حديقة ورده

متردد
.. ف يكشف له - ببساطة وحب -
عن غابة اتملت عصافير
وكان قادر على كشف اللى جى لسه
فى علم الغيب
كأنه رادار
بيملك للمواهب حاسة ملموسة
لها قرونها للاستشعار
ف يملا الأرض بالأزهار
ويرشق ف الطريق ورده
.. ف عروة كل بيت وجدار
وخلا الكلمة ف الضلمة
.. جميلة.. ونضرة .. زهزاهه
وياما فيه بشر جحدوك
وحاولوا يخنقوا الوردة
ودارت ع اللى يوم ظلموك
واهى سطور الكتب شاهدة
وعشنا معاك بنتباهى
ووردة عمر تتضوع جساره
وود وازاها
.. بحب ورقة ونزاهة
وأخيرا يا عم رجاء
لسان حالك تملى يقول
على الورد اللى ورق فيك
وفتح للأمل شبابيك
ونادى الفجر يبقى وشيك
وقلنا عليك
على الورد اللى ملو عينيك
على الزرعة اللى زرع ايديك
مفيش فاضل على الوردة إلا كلمة
ونص
أقولها لك
.. وحتى لو جحود الناس أذاها
مفيش للوردة مهرب من شذاها
مفيش للوردة مهرب من شذاها
.. وحتى لو جحود الناس أذاها
.. وحتى لو جحود الناس أذاها
مفيش للوردة مهرب من شذاها.

يناير ٢٠٠٨

عليك سلام الله والوطن

صلاح عيسى

ها هو رجاء النقاش يرحل عنا بعد أن أوجع قلوبنا بمرضه الطويل الذى ظل يسرقه، شيئا فشيئا، من محبيه، إلى أن قرر الموت أن يسرقه منا، تاركا فى نفوسنا ألم الفقد، ومرارة الحزن، والشعور القاهر بالخسارة،

ليس فى سيرة. ومسيرة. رجاء النقاش ما يختلف كثيرا عن مسيرة غيره من النخب الثقافية والفكرية والعلمية التى ساهمت فى صنع مشروع النهضة العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

جاء مثلهم أو جاءوا مثله من آلاف القرى والكفور والضيعات التى تنتشر على خريطة الأمة. ليجدوا أنفسهم رعايا فى بلاد يحتلها الغزاة. ويحكمها الطغاة. ويحاصرها الجدب والجوع والفقر والمرض من كل اتجاه.. وانحدروا من أصلاب أسر مستورة تنتمى للشرائح الصغرى من الطبقة الوسطى. من ذلك النوع الذى لا يبيت على الطوى. ولا ينام. مع ذلك. ممتلىء المعدة. يتملكها رعب من السقوط فى هاوية الحاجة. ويقودها إصرار عنيد على أن تصنع لأولادها مستقبلا أفضل وحياة أكثر سعادة. فى ربوع وطن لا احتلال فيه ولا طغيان. يصبحون تحت علمه مواطنين احرارا لهم حقوق مرعية وملزمة لا رعايا ينتظرون المكرمات والعطايا. ويتلقون الركلات والصفعات وهم يهتفون فيمن يضربهم: ضربك فينا شرف لينا يا افندينا!!

هؤلاء هم الأفندية.. أولاد الأفندية من صغار التجار وكتبة الدواوين وطلاب المدارس واسطوات الفابريكات وباشكتبة المحاكم وصغار علماء الأزهر. ووكلاء مكاتب البريد وشاويشية الجيش والبوليس الذين قدر

لهم أو لأبنائهم فيما بعد أن يقودوا الحلقات المتتابعة من مشروع النهضة العربية فى كل المجالات. من السياسة والحكم إلى الإدارة والحرب ومن الأدب والفن إلى العمارة والتشييد.

من أصلاب هؤلاء جاء رجاء النقاش حين كان الزمن منتصف ثلاثينيات القرن الماضى وبينما كان الجيل السابق من الأفندية أولاد الأفندية يقود معركة ضارية ضد ديكتاتورية إسماعيل صدقى ويسعى لاستكمال مسيرة التحرر والديمقراطية التى بدأها عام١٩١٩ .

وما كاد رجاء النقاش يتعلم معنى الكلمات حتى شغفته مجلة الرسالة التى كان والده. مدرس اللغة العربية الذى يكتب الشعر. يحتفظ بكل اعدادها القديمة ويحرص على قراءتها كل أسبوع على الرغم من قلة المال.._ وكثرة العيال.

كانت الرسالة. التى أصدر أحمد حسن الزيات عددها الأول عام ١٩٣٢ قبل مولده بعامين. منبرا لجيل من المثقفين المصريين والعرب. تفتح وعيهم وازدهرت مواهبهم على مشارف وفى أثناء وعقب الثورات الوطنية التحررية التى اشتعلت شراراتها فى الأقطار العربية. بعد الحرب الكونية الأولى فى مصر(١٩١٩) والعراق (١٩٢٠) وليبيا (٩٢٣) والسودان (١٩٢٤) وسوريا (١٩٢٥) وفلسطين (١٩٢٩) يتعايشون على صفحاتها على الرغم من اختلاف منابعهم الفكرية. ويتحاورون فيما بينهم حول مشروع للنهضة العربية يجمع بين الأصالة والمعاصرة. وبين الموروث والوافد وبين الشرق والغرب وبين الوطنية والقومية.

وعلى صفحاتها وعلى صفحات غيرها من المنابر والمنتديات الثقافية والفكرية والسياسية اكتشف رجاء النقاش موهبته وعرف طريقه واختار موقفه وتخلق ذلك الجيل من الأفندية أولاد الأفندية الذين سيقدر لهم فيما بعد أن يقودوا مشروع النهضة العربية فى مرحلته التى بدأت حين نهضت الأمة. من بين طيات ظلام. وركام انقاض. الحرب العالمية الثانية تهتف للاستقلال والحرية والعدل والوحدة.

وكان رجاء فى الثامنة عشرة من عمره يستعد لدخول الجامعة ليدرس فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب. حين قامت ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ ليتأكد له ولجيله أن تضحيات الأجيال السابقة من الأفندية أولاد الأفندية لم تضع هدرا وأن الزمن لم يتوقف والوطن لم يعقم والشعب لم يكف عن الحلم. ولتفتح أمامهم أبواب الأمل فى أنهم يستطيعون استكمال ما صنعه الأسلاف واستئناف مسيرة النهضة على الرغم من كل العقبات.

ومع أن الذين صنعوا الثورة وقادوا المشروع. كانوا. كذلك. من الأفندية

اولاد الأفندية. ومن صغار الضباط أولاد صغار الموظفين و التجار وفى أحسن الأحوال أولاد عمد الأرياف. ولم تكن الثقافة من بين همومهم الضاغطة او الملحة. فإن أبواب الأمل التى فتحوها على مصراعيها. سرعان ما اجتذبت إليهم. كل المتخصصين والموهوبين والحالمين فى كل المجالات: من ابناء الشريحة ذاتها. ليشاركوا فى صياغة الحلم. فلم يصدوا أحدا. ولم يرفضوا فكرة. طالما ان صاحبها لا ينازعهم الحق فى قيادة المشروع. وفى حيازة السلطة.

هكذا حانت الفرصة لـ رجاء النقاش وجيله لكى يعبروا عن حبهم للوطن. وانتمائهم للشعب بأن يشاركوا فى صياغة المشروع الثقافى لثورة يوليو!

وكان قد أخذ نفسه منذ البداية. بالحزم الذى يليق بأصحاب الرسالات. فعشق العمل. وآمن بأنه مصدر كل الطيبات. ولم يكف على امتداد عمره. منذ غادر الطفولة. عن العمل الشاق صبيا وشابا وكهلا وشيخا. يقرأ بعمق ويكتب بغزارة. ويناقش بحرارة. وكان اقسى. ما يتعرض له. هو أن تجبره تقلبات السياسة وعواصفها. على أن يكف عن العمل.. ولأنه كان يملك حيوية عقلية خارقة. فقد كان ذهنه المشتعل لا يكف طوال الوقت عن الابتكار. وعن توليد الأفكار والأحلام. ولم تكن الثروة تشغله. إذ كان ماهرا. وموهوبا. فى تبديد ما يكسبه. ولم تكن السلطة تعنيه. إلا بمقدار ما تتيح له من فرصة للتأثير فى الناس!

ومنذ البداية. وحتى النهاية. ظل رجاء النقاش يخوض المعركة على جبهة الثقافة والوعى. انطلاقا من إيمانه بأنهما أساس وحدة الأمة وبأن الانتصار فى ميدانهما. هو الذى يقربها من حلمها. وحلمه. المراوغ: الوصول إلى صيغة للنهضة تجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين الموروث والوافد وبين الشرق والغرب. وبين الوطنية والقومية..

وهكذا نهض مع جيله. لتجديد لغة الكتابة فى النقد الأدبى. ليخلصها من بقايا الزخارف اللفظية. ومن التقعر الأكاديمى الذى يعنى بالمصطلحات أكثر من عنايته بالأفكار والرؤى. وساند بقوة كل تيارات التجديد والتحديث فى الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح والسينما على صعيد الأمة بكل اقطارها. وخاض المعارك فى صف أصحابها ونيابة عنهم. وجدد فى شكل ومضمون المطبوعة الثقافية. لتجمع بين الجاذبية والعمق وبين الفرجة والفكر. وتبنى الأجيال التى جاءت بعده. وتحمس لها وسلط عليها الأضواء. إذ كان يدرك منذ البداية. أنه وجيله مجرد صفحة من صفحات مشروع النهضة العربية وأن عليهم ان يسلموا الراية لمن يأتى بعدهم. كما تسلموها ممن جاء قبلهم

رجاء النقاش.. عليك سلام الله والوطن!



انقشاعات الغمام

إلى صاحب العطاء الثقافى العظيم

رجاء النقاش

قاسم مسعد عليوة

الزمن
افعى
تكورت
على نفسها

الزمنُ أفعى تكورتْ على نفسِها..
والأرضُ خرابةٌ مِن حمأ وحصى..
والسماءُ دخانٌ..
وأنا وحدِى..
فهل يمكنُ للعالمِ إلا أنْ يكونَ خواءً مخلوطاً بِسُمٍ
فى سكريم؟

لماذا
أنتِ

يا غزالة

منى

خائفة؟

لماذا انتِ يا غزالة مِنّى خائفة ؟

تركضين والاحقكِ ..

فلا أنتِ تختفين..

ولا انا بقادرٍ على الإمساكِ بكِ..

تنظرين وراءكِ وتقيسين مَدَى بُعدكِ عَنّى..

ولا أظفرُ مِنكِ بغير مَرْآى العَضَل وقدْ غَيّمَه الغُبَار ..

لماذا تجفلين مِنّى ..

يا من أُسَمّيكِ الحَياة ؟

نحن

لا

نشتهى

رؤية

الماء

نحنُ لا نشتهى رؤية الماء فى البحرِ..

نحنُ نتشهّى رؤية الانفساح.

نحنُ لا نشتهى رؤية الإنسان فينا ..

نحنُ نتشهّى رؤية الإنسانية.

بالتأكيدِ انتم لا تصدّقوننى..

لأننى احاولُ إقناعَ نفسِى بما اقول..

ولا أستطيع.

ياه..
كل
هذه
الاصطخابات
فى
دمى؟

ياه .. كلُّ هذه الاصطِخابات فى دَمِى ؟..
كلُّ هذا العناد ممزوجٌ بملامِحى ؟
ياه .. تأخرتُ كثيراً لأكتشفَ أنثى إنسان.

أمران
عابران
فى
مدينتنا

أمران عابران فى مدينتِنا المكتظةِ بالخرسانةِ..
والاسفلتِ..
ومستخلصاتِ البترول.
ذبحُ الحُبِّ بخناجرِ المحبين
ومصرعُ دجاجةٍ فى حادثةِ طريق.

.

لا
تكاشف
المحبوب

إنْ فعلتَ فأنتَ تعطيه ما ليس فيكَ وإنْ اعتقدتَ،
فالبدرُ الذى تراه فى السماءِ ليس هو بدرُ السماء،
والغيبُ المجلو ليس هو ذات الغيب..
فلا تكاشف المحبوبَ بمواجيدكَ..
لأنكَ لن تكون صادقاً معه وإنْ اعتقدتَ.

كل
جسد
على
ذاته
منغلق

كلُّ جَسَدٍ على ذاتِهِ منغلقٌ.
كلُّ جَسَدٍ يُولدُ ليمُوت.
كلُّ جَسَدٍ جديرٌ بالتجلةِ والاحترام ..
فمِثلمَا يُمْسِكُ ، بلحمِهِ وعَظمِهِ ،الرُوحَ التوّاقةَ للانطلاق ..
يعودُ فيعتقها ..
بعدمَا تنهلُ مِن خبراتِه فى دنيَا الألمِ والالتِذاذ.

فى
بيوتنا
غرف
للطعام

فى بيوتِنا غُرَفٌ للطعامِ ودورات للمياهِ وشُرُفَات.
فى غُرَفِ الطعامِ نمضغُ الحُبَّ..
وفى دوراتِ المياهِ نتبَرّزُ الكراهيةَ .
وفى الشُرُفَاتِ نشْهدُ الكونَ على أننا تعَساء.
أى واللهِ .. تعَساء.

ضميـر جيـل

فاروق شوشه

وكانت رسائله الشهيره فيها التى يكتبها بذوب قلبه ويسكب فيها معاناته الوجوديه الهائله زادا للالوف التى بدات تقروه وتلتف من حوله. من ابناء جيله من الذين راوا فيه صوتهم. ومن غيرهم. وهو مايزال طالبا فى قسم اللغه العربيه بكليه الاداب فى جامعه القاهره. لم يتجاوز عامه التاسع عشر. هذه الرسائل اصبحت فيما بعد كتابه الاول فى ازمه الثقافه المصريه الذى اتاح لصاحبه مكانه ومكانته وموقعه المتقدم فى الساحه الثقافيه كاتبا وناقدا ومفكرا. وجعل كثيرين يقارنون بين كتابه والكتاب الذى سبق صدوره للناقدين الكبيرين محمود امين العالم وعبدالعظيم انيس فى الثقافه المصريه. يقارنون بين منهجين ورويتين ولغتين فى النقد. منهج رجاء النقاش الذى يقوم على افق انسانى رحب يمتزج فيه الفكر بالوجدان. ويرى الظاهره الثقافيه فى اطار مكوناتها وعناصرها الفرديه والاجتماعيه دون تزمت او تعصب لنظريه ما. ومنهج العالم وانيس الذى يلتزم الرويه الواقعيه فى نموذجه الايديولوجى الصارم الاحكام والتطبيقات. وهو ما ظهر فى تناول اعمال مبدع كبير من طراز نجيب محفوظ. اثبتت الايام فيما بعد. صدق منهج رجاء النقاش وانسانيته

قرب منتصف الخمسينيات اصبح رجاء النقاش واحدا من النجوم البازغه بقوه فى سماء حياتنا الادبيه والثقافيه. كان مراسلا من القاهره لاهم مجله ادبيه فى العالم العربى هى مجله الاداب البيروتيه

أدب ونقد

وافقه الرحب فى التعامل معه، وتعسف التناول الايديولوجى الملتزم وعجزه عن استشراف افاقه... وسرعان ما اصبح اسم رجاء النقاش يمثل عمله نقديه جديده. تستند الى فكر حضارى وثقافى واجتماعى واعد. وتستوعب انجازات الكبار الذين سبقوه من امثال طه حسين ومحمد مندور وانور المعداوى وغيرهم دون ان تكون تكرارا لها. والتمع اسمه اكثر حين اصبح صوتا قويا وبارزا فى كوكبه النقاد الجدد الامر الذى جعل خصومه يطلقون عليه عبدالحليم حافظ الادب

ويخوض بكل ما يمتلكه من شجاعه وجراه وحراره واخلاص معارك عنيفه من اجل ما يومن به من قيم. وما نذر حياته لاجله من موقف ورساله يجمعهما دائما شرف الكاتب ونبل الكتابه. من هنا كانت كتابته المبكره وهو مايزال طالبا عن عبقريه الشابى. واكتشافاته المبكره لعبقريه الطيب صالح من خلال رائعته موسم الهجره الى الشمال. وشاعر فلسطين محمود درويش. ورهانه المبكر على عبقريه محفوظ فى وقت انصرف فيه كبار النقاد عنه. بدعوى انه اصبح موسسه غير قابله للنقاش. او ان سرده الطويل يهبط بمستوى ايقاع رواياته. او انه يقف عقبه فى وجه الاجيال الجديده من مبدعى الروايه. فلما جاءت نوبل قلبت موازين هولاء النقاد جميعا. واكدت نبوءه رجاء النقاش الذى لم يفقد يقينه بعبقريه نجيب محفوظ...

ويوم عاد رجاء النقاش بعد دوره طويله من الزمان الى دوره النقدى التنويرى من خلال كتابه قصه روايتين. الذى قدم فيه دراسه نقديه وفكريه لروايتى ذاكره الجسد لاحلام مستغانمى ووليمه لاعشاب البحر لحيدر حيدر. كتبت احييه واشيد بكتابه على هذه الصفحه التى تجاورنا فيها تسع سنوات بمقال عنوانه.:. رجاء النقاش وعوده النقد الجميل. وكاننى كنت استشرف صداقه غاليه بدات منذ منتصف الخمسينيات واستمرت حتى رحيله. ارتبط فيها اسم رجاء بمحطات ثقافيه وادبيه بارزه من بينها دوره رئيسا لتحرير مجلتى الهلال المصريه والدوحه القطريه. كاشفا عن موهبته. وقدرته الهائله فى اصدار مجلات ثقافيه ناجحه. تقوم بادوار تنويريه وطليعيه بارزه. وتجسد افقه الثقافى الرحب. واختياراته الشديده التوفيق للقضايا والموضوعات. وللمبدعين والكتاب او من منطلق التزامه بالموضوعيه. لدرجه القسوه الزائده على النفس. فقد تجنب الكتابه عن كثير من اصدقائه المقربين من ابناء جيله. فلم يكتب عن غالب هلسا او بهاء طاهر او سليمان فياض او ابوالمعاطى ابوالنجا او غيرهم من الروائيين والشعراء..

. وبالرغم من هذا الموقف. فقد ظل فى قلوبهم نموذجا نبيلا لقيم

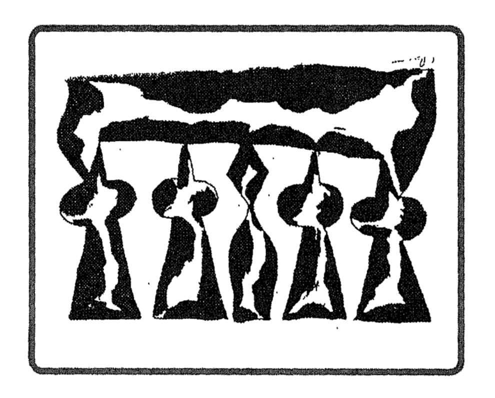


الشرف والترفع وا لاحترام...

ولسوف تفتقده هذه الصفحه التى بسببها اصبحت كتاباته زادا للالوف المولفه من قرائه ومتابعيه وعاشقى لغته. وسنفتقده نحن اصدقاءه ومحبيه وعارفى قدره وجها انسانيا نبيلا. وقلما مبدعا يتوهج بالصدق والنقاء والعذوبه والجمال■

مقدمة ديوان أحمد عبد المعطى حجازى

«مدينة بلا قلب»



رجـــاء النـقـــاش

(١٩٥٩)



هذه هى مقدمة رجاء النقاش لديوان حجازى الأول «مدينة بلا قلب» الصادر عام ١٩٥٩، حينما كان عمر النقاش خمسة وعشرين عاماً، وكان عمر حجازى أربعة وعشرين عاماً. ننشرها، هنا، على طولها الطويل، لأنها تمثل وثيقة تاريخية شعرية نقدية، بوصفها أحد التدشينات البارزة لحركة الشعر الحر فى مصر، وبوصفها ضربة كبيرة مظفرة فى الصراع بين التجديد والتقليد فى الشعر المصرى والعربى، ساهمت فى تقريب الشعر الحر إلى ذائقة المتلقين، وفى تمهيد الطريق إلى جموح الخيال وإلى الحرية وإلى الاجتراء.

هذه هى المقدمة التى جعلت كاتبها والمكتوب عنه نجمين ساطعين فى سماء الحق والخير والجمال، نقدمها لمحبى الشعر والنقد، وللناشئة من المبدعين وشداة الأدب، لكى يتعلم الجميع - بعد وضعها فى سياقها التاريخى والثقافى - كيف يكون الحب راية للتقدم والعدل والفرح.

«أدب ونقد»

أدب ونقد

القصيدة الأولى التى تطالع القارئ فى هذا الديوان هى قصيدة «العام السادس عشر» .. ولست أدرى هل هى مصادفة أم أنه شىء مقصود أن تكون هذه القصيدة بالذات هى أولى قصائد الديوان.. فالقصيدة تقول لك بوضوح : إن صاحب هذا الديوان شاعر ثائر .. وهى لا تكتفى بهذا القول بل إنها تزيد على ذلك شيئاً مهما: إذ تدلك على نوع من الثورة يعيش فى وجدان هذا الشاعر، ويعبر عنه ديوان «مدينة بلا قلب».

فمنذ القراءة الأولى لقصيدة «العام السادس عشر» نعرف أن الشاعر يصور مرحلة نفسية فى تاريخه الذاتى، تلك هى مرحلة «المراهقة» .. ثم يدعو إلى الحذر منها وتجاوزها، لأن فى العمر مراحل أخرى تتبع هذه المرحلة وتختلف عما فيها من سلطان للوهم والخيال وعشق للصمت والموت والتحرر المطلق ، وفى اللحظة التى تحس فيها أن الشاعر يدعو إلى تجاوز مرحلة «المراهقة» أو المرحلة التى اختار لها اسم «العام السادس عشر» تحس أيضاً أن هناك دلالة عامة لهذا التجاوز .. لهذا الانطلاق إلى عالم «ما بعد العام السادس عشر»... بل «ما بعد العام التاسع عشر».. وهذه الدلالة العامة هى التى تعطينا نقطة انطلاق الشاعر ، وتحدد لنا الدنيا التى ثار عليها، والدنيا الجديدة التى يتطلع إلى الاستقرار بين جناحيها.

إن مرحلة «العام السادس عشر» لم تكن مرحلة فى عمر الشاعر وحسب... بل كانت أيضاً مرحلة فى حياتنا العربية ... عندما أراد الشاعر ان يتجاوز مرحلته الذاتية، كان فى نفس الوقت يريد أن يتجاوز نفس المرحلة فى حياة المجتمع الذى يعيش فيه .. ربما لم يكن يهدف إلى ذلك أو يعيه وعيا إراديا مقصوداً.. ولكنه كان يحس به، ويعبر عنه في تلقائية واضحة. فأحمد حجازى ليس من هؤلاء الشعراء الذين «يقصدون» أولا ثم يكتبون الشعر بعد ذلك تحقيقا لمقصد محدود.. بل هو شاعر يصدق فى إحساسه صدقاً عميقاً لا سذاجة فيه.. صدقاً خاليا من التقليد فى الشعر او فى تجربه الحياة على السواء، ولنذكر فى هذا الميدان ما قاله نبى الفكر اليونانى القديم سقراط عندما اجتمع بالشعراء، ثم ... «لقد سألت كلا منهم عما عناه بشعره ، فلم يكن فيهم من استطاع الإجابة عن سؤالى هذا، ولقد جمعنى وإياهم مجلس ضم كثيرا من المعجبين بهم وبأشعارهم ، فلم يكن بين الحضور رجل إلا وهو اقدر على التحدث عن تلك الأشعار من الشعراء انفسهم»

... إن معنى كلام سقراط، أن أهم إجابة يقدمها الشاعر الموهوب عن «مقصده» من كتابة الشعر هى الشعر نفسه...

والحق ما قاله سقراط.

ربما لم يقصد الشاعر أن يعبر عن ثورته على مرحلة العام السادس عشر، فى حياة مجتمعه، كما ثار عليها فى حياته الذاتية .. ولكن هذا هو الذى حدث تماما.. لقد كانت نقطة انطلاق أحمد حجازى فى فنه وحياته هى الثورة على مرحلة «العام السادس عشر» فى حياة مجتمعه.. ولنسارع إلى القول بأن ثورة حجازى ليست ثورة ازدراء وإنكار، إنما هى ثورة الرغبة الحادة فى النمو والتطور .. هى ثورة تتجاوز وتمتد دون أن تقتلع الجذور والأصول.. إنها ثورة البذور التى تريد أن تشق التراب لتلقى فى رحابة الفضاء بنور الشمس وحنان النهار.

فما هى مرحلة «العام السادس عشر».... تلك التى نتحدث عنها؟

فى استطاعتنا أن نتذكر فترة فى حياتنا العربية كان شاعرها الأكبر ونموذجها المثالى هو أحمد شوقى.... وكان شوقى أميرا فى الشعر وشبه أمير فى الحياة... ولقد كان هذا الأمير شاعراً عظيماً بحق.... ولكن من الناحية الموضوعية ماذا كان؟... إنه كان يعبر عن الحياة العامة، ولم يكن يعبر عن الحياة الخاصة.. كان يرى الحياة الرسمية الظاهرة، ولم يكن يرى الحياة الداخلية المختفية فى نفوس الأفراد.. ولذلك فقد كان شعره تسجيلا وتعبيرا عن الأحداث الكبرى فى حياة المجتمع... إذا وقع حادث سياسى مثل مأساة دنشواى أو حادث اجتماعى مثل خروج المرأة إلى الحياة العامة لأول مرة، أو حادث اقتصادى مثل إنشاء بنك مصر .. إذا وقع حادث مع هذه الأحداث، فشعره يسجله ويعبر عنه ويجعل منه نغما رصينا باقيا.. ولكن لم يكن هذا هو كل شىء فى حياة الناس، وعلى الأخص فى حياة الجيل الجديد الذى ظهر على مسرح الحياة فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى .. فهذا الجيل يعانى أشياء لا يعانيها شوقى، ويعيش حياة مختلفة عنه تمام الاختلاف.. إنه يشارك مثل شوقى فى الحياة العامة، ولكنه لا يستطيع أن يكتفى بهذه المشاركة أو يقتصر عليها.. ذلك لأن هذا الجيل الجديد لم يولد وفى فمه ملعقة من أى معدن.. بل كان عليه أن يبحث عن ملعقته بنفسه، ويكد ، ويكافح ويعانى الإرهاق والتعب فى سبيل الحصول على احتياجات حياته المادية والمعنوية على السواء .. لم يكن يعيش فى قصر كما كان يعيش شوقى، ولن يكن يتصل بمجتمع مفتوح محلول المشاكل مثل مجتمع شوقى، وفى مثل هذا المجتمع المفتوح تكون مشكلة المرأة على سبيل المثال - مشكلة غير موجودة، فشوقى يتصل بفتيات مثقفات متحررات من بنات طبقته، وهى الطبقة العليا فى المجتمع آنذاك ، وهنا لا شعور بالحرمان الذى كان يشعر به الجيل الجديد الوافد إلى القاهرة من المدن الصغرى، أو الذى كان يعيش فى البيئات الشعبية فى العاصمة.. فالمرأة ، بالنسبة لهذا الجيل مشكلة، والعمل مشكلة، والحياة إجمالا مجموعة من الإشكالات «الخاصة» التى تحتاج إلى حل.. وقد تكون هذه الإشكالات «الخاصة» هى فى حقيقتها إشكالات مشتركة بين عدد كبير هم من أبناء الجيل المولود على فراش السلام الجريح بعد الحرب العالمية الأولى.. ولكن «الاشتراك» فى هذه المشكلات لا ينفى أنها تعترى كل فرد على حدة ، وتدعوه إلى معركة معها .. معركة لا يغنيه اشتراك الآخرين فيها عن إحساسه بالوحدة

والانفراد.

وشوقى لم يكن يعبر عن شيء من هذا .. لم يكن شوقى يعرف المشكلة الخاصة التى تجعل منه وحيدا منفردا ، بل كانت حياته الخاصة دائماً منسجمة متناسقة ، لا تعترضها مشاكل ولا احتياجات ناقصة .. أما الذى كان يشغل ذهنه فهو المشكلات العامة ، شأن «علية القوم» آنذاك من الوزراء والحاكمين .. وإن اختلفت طريقته فى التعبير عن تلك المشكلات فاختار الشعر وسيلة له وطريقة.

وعندما وجد الجيل الجديد طريقه إلى التعبير عن نفسه وقع على الفور فى معركة مع شوقى ومدرسته وتحدد مطلب الجيل الجديد فى الشعر بالتعبير عن «الذات»، وتخليص الشعر من تلك الحالة التى تذوب فيها «شخصية» الشاعر إلى عمل فنى يبرز هذه «الشخصية» ويعبر عن مشاعرها وما يدور فى وجدانها من خطرات وأحاسيس ، وفى سبيل ذلك لابد من التخلى عن جعل الشعر أداة للتعبير عن المشكلات العامة، ما لم تدخل هذه المشكلة فى صميم التجربة الذاتية للشاعر.

وارتفعت أعلام تشير إلى ميلاد جديد، وانبعثت الفرحة بهذا الميلاد، وأخذ موكب شوقى يتوارى بعيدا عن الأفق، وعلى مسرح الحياة أخذت الجماعة الجديدة تحتل مكان الغاربين عن سمائنا فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين على التقريب ، وكان أعلام المدرسة الجديدة هم: عبد الرحمن شكرى والعقاد والمازنى، وتلقف الدعوة جناح آخر مثله الفنان العربى اللبنانى ميخائيل نعيمة أحد رواد الشعر المهجرى ، وقد لخص أحد أبناء الجماعة الجديدة وجهة نظر الجماعة فى الفن عندما قال:

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

وصاحب هذا البيت هو عبد الرحمن شكرى، وقد جعل منه شعارا للجزء الأول من ديوانه، الذى أسماه «ضوء الفجر».

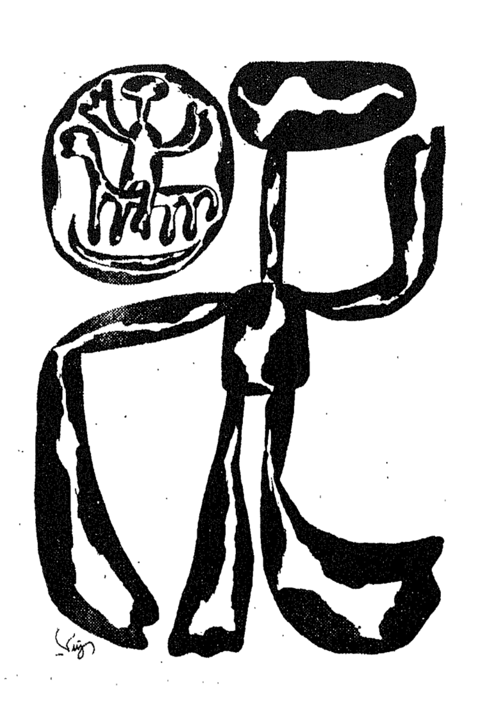
منذ هذه اللحظة بدأت فى حياتنا مرحلة «العام السادس عشر»... وإذا استخدمنا الاصطلاح النقدى فإننا نستطيع أن نسميها بالمرحلة «الرومانسية»، وقد استمرت هذه المرحلة فى حياتنا إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية بفترة غير قصيرة، وقد كان الجيل الأول من أجيال هذه المدرسة هو الذى دعم الأسس النظرية لمرحلة «العام السادس عشر» وجاء بعد ذلك جيل ثان هو الذى استطاع أن يخلق الفن الذى يمثل هذه المرحلة خير تمثيل فعلى محمود طه وإلياس ابو شبكة وإبراهيم ناجى وأبو القاسم الشابى ومدرسة المهجر... كل هؤلاء هم الشعراء الذين مثلوا مرحلة «العام السادس عشر» فى أحسن صورها الفنية.. ولنحاول أن نستخلص شخصية هذه المرحلة من واقع قصيدة أحمد حجازى نفسها:

عامى السادس عشر

يوم فتحت على المرآة عينى
يومها .. واصفر لونى

يومها .. درت بدوامة سحر
كان حبى شرفة دكناء أمشى تحتها
لأراها
لم أكن أسمع منها صوتها
إنما كانت تحيينى يداها
كان حسبى أن تحيينى يداها
ثم أمضى أسهر الليل إلى ديوان شعر:
«يا فؤادى رحم الله الهوى
كان صرحا من خيال فهوى
اسقنى واشرب على أطلاله
وارو عنى طالما الدمع روى»

فالعلامة الظاهرة الواضحة فى الجيل الرومانسى هى اكتشافهم لشخصية المرأة وجعلها موضوعا من موضوعاتهم الشعرية، على أن المرأة كانت دائماً موضوعا من موضوعات الأدب عامة والشعر على وجه الخصوص، ولكن المرأة فى الأدب الرومانسى هى محور رئيسى جوهرى فيه. فالمرأة فى الألوان الأخرى من الأدب موضوع إلى جانب الموضوعات الأخرى، وليست أهم الموضوعات ولا اقربها إلى الأهمية، كما أن المرأة يمكن أن تصبح فى ألوان الأدب الأخرى غير الأدب الرومانسى وسيلة إلى شىء آخر، قد تكون وسيلة لشرح فكرة الفضيلة والدعوة إليها، وقد تكون وسيلة للبحث عن اللذة الحسية، ولكن فى الأدب الرومانسى تكون المرأة لذاتها هى الهدف الأسمى، بل إن النظر إلى الحياة إنما يكون من خلال أفراح الفنان وأحزانه فى تجربة المرأة، فروح الجمال تشع فى الدنيا وفى الطبيعة إذا ما كان هناك أمل فى نجاح لتجربة مع المرأة، أو مجرد وهم فى هذا الأمل، وتحل محل هذا الروح الفرحة روح أخرى مشبعة بالحزن إذا ما تعرضت تجربة الحب لعائق من العوائق، وفى ميدان التجربة الرومانسية عموما تتعرض التجربة دائماً لعقبة من العقبات ، بل إن الرومانسية لا تظهر إلا إذا كانت هناك عقبات كبيرة فى داخل المجتمع، فقد ظهرت الرومانسية فى القرن التاسع عشر فى أوربا، وبالتحديد منذ أواخر القرن الثامن عشر، وكان ظهورها تعبيرا عن مقاومة الضغط الذى يلقاه الفرد فى تجاربه النفسيه وعلى رأسها تجربة الحب. ومن أمثال هذه العقبات عقبة الاختلاف الطبقى ، فقد يحب إنسان من الطبقة الفقيرة فتاة غنية، فيفشل هذا الحب بالطبع. وهناك عقبة التقاليد الاجتماعية فقد يحب إنسان له أسرته ومكانته فى المجتمع بغيا يرى فيها المجتمع إنسانة غير شريفة، إنسانة خارجة عليه لا يجوز لصاحب الوضع المستقر أن يرتبط بها أى ارتباط، وعقبة أخرى مثل نظرة المجتمع القديم إلى الحب باعتباره «عيبا» أو أمرا شائنا... كل هذه العقبات كانت تفرض القيود الرهيبة العنيفة على الفرد ومن هنا ظهرت النزعة الرومانسية لتحطيم هذه القيود وتجاوزها ، وظهرت هذه النزعة



فى الأدب، وكان الجو العام الذى تصوره هذه النزعة هو الحب الفاشل ، والحب العاجز الذى لا يستطيع تحقيق أمانيه فى ميدان الواقع، وما يرتبط بهذا كله من أحزان وألوان قاتمة، وما يدعو إليه من وحدة وانفراد والتماس للعزاء فى الطبيعة أو فى الظلام أو فى مزيد من التخيل والوهم، وفى المقطع الذى ذكرناه من قصيدة «العام السادس عشر» يصور أحمد حجازى نوع الحب الذى يعيشه ابن العام السادس عشر، وهو نفسه نوع الحب الذى يعيشه الرومانسيون عموما، فهو يحب فتاة.... «لا يراها» ، «لم يكن يسمع منها صوتها» .. وفى ذلك دلالة على نفسية «ابن العام السادس عشر» ودلالة على «النزعة الرومانسية» التى تعنى أن ظروف الحياة تحمل من العقبات ما يحول بين الإنسان وبين تحويل حبه إلى حقيقة عملية وقد كان العصر الرومانسى عندنا هو هذا العصر بالضبط، وهو العصر الذى يضع العقبات والعوائق فى طريق العاطفة، فالمرأة لم تكن تخرج إلى الحياة العامة، وإذا خرجت فهو الخروج المتردد الخائف، أما الحب فهو شىء تنكره تقاليد المجتمع وتأباه، وقد اتضحت هذه التقاليد واستقرت سطوتها فى نفسية الفتاة فهى لا تجرؤ على الاستجابة لنداء ذاتها المحتاجة إلى الحب، أو الاستجابة لنداء الذى يدعوها للمشاركة فى التجربة العاطفية.

لذلك فقد أصبح للرومانسية تقاليد هى الأخرى.. فالحب هو «الحب المحروم».... الحب الذى يعتمد على الخيال والوهم، لا على الواقع والتجربة .. الحب الذى يتغذى من السهر والقلق والخروج بالشعور والفكر عن منطقة الواقع الحى.. ويصور أحمد حجازى هذه التقاليد تصويرا دقيقا عميقا عندما يقول:

وأرى الحب... شرودا وتهاويم، وحزنا
والمحب الحق... من يهوى ويفنى
وعميق الحب.... حب لم يتم
ليقولوا .... يا للحن لم يتم!

ونفس هذه الصورة الرائعة لتجربة «العام السادس عشر» فى عمر الأفراد وعمر المجتمعات» هى التى يعبر عنها فكتور هوجو أحد أعلام النزعة الرومانسية وأساتذتها على لسان أحد أبطال رواياته عندما يقول هذا البطل مخاطبا حبيبته:

«أحبك حبا صادقا، وأسفا! إنى أحلم بك حلم الأعمى بالضوء، سيدتى! عندى أحلام لا عداد لها، أحبك من قريب ومن بعيد وفى جو من الظلام، ولا أجرؤ على لمس طرف إصبعك».

أو مثا يقول شاعر رومانسى من شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر:

«أحب، وأستطيع أن أصرح دون مبالاة، أحب وأنا وحدى الذى أدرى، وحبيب إلى سرى، وحبيب إلى عذابى، وقد عقدت العزم أن أحب حبا خاليا من الأمل، ولكنه ليس خاليا من السعادة. أراك وهذا حسبى».

مثل هذه المشاعر هى التى تعيش فى وجدان العصر الرومانسى تماما..

إنها على التحديد هي: الحب الخيالي المحروم، والعزلة والانفراد ثم حب الطبيعة واتخاذها ملجأ آمنا تستقر فيه المشاعر والأحاسيس.. تلك هي العناصر الأساسية في تجربة «العام السادس عشر» وقد رصد أحمد حجازي هذه المشاعر رصدا فنيا أصيلا . ذلك لأنه عاشها في فترة من حياته، وكانت هذه الفترة هي بالمصادفة التي بدا فيها العصر الرومانسي يعطي وهجه الأخير حيث يتوارى بعده ليفسح المكان لتجارب جديدة في الحياة وفي الفن.

فبعد الحرب العالمية الثانية على التقريب كانت المدرسة الرومانسية تجمع كل طاقاتها وإمكانياتها محاولة أن تستمر في البقاء، لأنها بدأت تشعر بتغير حاسم في الحياة، وبدأت بذور هذا التغير تعكس نفسها في الأدب، أي بدأت تعمل على خلق شخصيات أدبية جديدة ذات رسالة من نوع جديد، وقد كانت المرحلة الأدبية التي امتدت منذ أيام الحرب العالمية الأولى، منذ أن قال عبد الرحمن شكري «يا طائر الفردوس، إن الشعر وجدان، إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.. كانت هذه المرحلة هي مرحلة «العام السادس عشر».. كانت تحمل في تعبيرها الأدبي، والشعري على وجه الخصوص كل خصائص هذه المرحلة... كانت منابعها الرئيسية هي الحب المحروم، ووحدة الفرد وعزلته عن المجتمع. والارتماء في أحضان الطبيعة بحثا عن الأمان وتهدئة القلق.. وكانت هذه النزعة واضحة تماما في شعر «علي محمود طه وإبراهيم ناجي وإلياس أبو شبكة وأبو القاسم الشابي»، وقد ظلت هذه النزعة مسيطرة عليهم حتى آخر لحظة في حياتهم وفيهم من مات فوق الأربعين مثل علي محمود طه، ومن مات فوق الخمسين مثل إبراهيم ناجي.. ومع تقدم هؤلاء الشعراء في السن لم تتغير هذه النزعة على الإطلاق... ذلك لأنها كما قلنا كانت مرحلة في حياة اجتماعية كاملة ، لا مرحلة في حياة الأفراد وحسب.

وقد صور أحمد حجازي هذه المرحلة، لأنه عاشها في تجاربه الأولى، بينما كانت المرحلة نفسها في تجاربها الأخيرة، وبعد أن صور المرحلة في حياته تصويرا رائعا صادقا ، ينتهي من ذلك وفي نفس القصيدة إلى أن هذه المرحلة لابد أن تذبل وتتغير وتسلم الإنسان إلى مرحلة أخرى هي «العام التاسع عشر».... وهو العام الذي يتحول فيه الشاعر تحوله الذاتي الخاص، وهو أيضا رمز لبداية هذا الشاعر في طريق الحياة، فقد بلغت الحياة نفسها «عامها التاسع عشر»، وانتهت المرحلة الرومانسية وبدأت مرحلة جديدة.

يقول أحمد حجازي في ختام قصيدته الرائعة:

أصدقائي

نحن قد نغفو قليلا

بينما الساعة في الميدان تمضي

ثم نصحو ، فإذا الركب يمر

وإذا نحن تغيرنا كثيرا

وتركنا الأقبية

وخرجنا نقطع الميدان فى كل اتجاه

....

أصدقائى

ها هى الساعة تمضى

فإذا كنتم صغارا فاحلفوا ألا تموتوا

واحذروا عامكم السادس عشر!

... والرموز فى القصيدة واضحة حتى لتكاد هذه الرموز أن تكون تعبيرا مباشرا لا رمزيا فيه ف «الساعة» هنا هى الزمن هي أيام الحياة.. و«الركب» هو المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه الفرد.... و«الأقبية» هى المنعطفات والزوايا التى كان الفرد ينعزل فيها عن مجتمعه ودنياه، ليلتمس لنفسه مجتمعا ذاتيا خاصا عناصره هى الوهم والخيال والصمت والظلام ..... وأحيانا تكون الطبيعة هى عنصره الرئيسى، يغنى بها الإنسان الرومانسى نفسه عن الناس........ وهكذا تعلن هذه القصيدة فى رموزها البسيطة. وبنائها الفنى الذى لا يخدشه نقص على الإطلاق أن شاعرنا قد تجاوز مرحلة العام السادس عشر، فترك دنيا «دون كيشوت» وما فيها من أحلام وأوهام، إلى أرض الواقع بما فيها من صراع ومشكلات مع الحياة والأشياء... لقد «حلف ألا يموت» وقرر «أن يحذر عامه السادس عشر» ... بل إنه ليدعو الذين يعيشون معه، ويمارسون تجربة الحياة فى جيله أن يدخلوا أيضا معركة الوجود الاجتماعى.... وأن يدركوا الحقيقة.... لقد مضت مرحلة العام السادس عشر... ولن تعود من جديد.

وهكذا يصل الفنان إلى نقطة البداية، أو نقطة الانطلاق، وهكذا تبدأ قصة الإنسان الذى يعبر عنه هذا الديوان.

إنها تبدأ كما قلنا بالثورة على مرحلة فى حياة الشاعر الذاتية، تقابلها ثورة مشابهة على مرحلة فى حياتنا الاجتماعية .. وتصل «مراسيم» هذه الثورة إلى تمامها عندما يأخذ شاعرنا أهبته لمغادرة بلدته «تلا» إلى مدينة «القاهرة»... و«تلا» هذه ليست مدينة بالمعنى الصحيح، فهى مدينة صغيرة، وقرية كبيرة فى نفس الوقت.. ولكنها على الإجمال تتميز بكل ما يتميز به الريف فى مصر من ميزات وخصائص، وهى تزيد على ذلك بأنها قريبة إلى عدد من المدن وعلى رأسها مدينة القاهرة، ولذلك فإن أضواء المدينة وضوضاءها تصل إلى حدودها، ثم تخترق هذه الحدود فى هدوء وبلا عنف، فإن هذه الحدود هى آخر مدى يمكنها ان تصل إليه... على أن العين البصيرة الدقيقة، كانت تتعلق بخيوط النور من المدينة الكبيرة، لأنها تعرف أن وراء هذه الخيوط عالما جديدا آخر، يجذب إليه النفس الممتلئة بالإمكانيات الغنية بألوان الطموح، الراغبة فى مزيد من تذوق الحياة، ومعرفة أعماق تجربتها الحقيقية البعيدة.... وقد تعلق شاعرنا فعلا بهذه الخيوط، وارتبط مصيره بها، وصمم على أن يركب مركبه الصغير إلى محيط المدينة العنيف...

ذلك المحيط الذى تصل إليه أصداء أمواجه العاتية وهو قابع فى مأمنه

فى «تلا».

وتستطيع أن تتصور شاعرنا وهو يستعد للرحيل إلى المدينة الكبيرة، إلى أكبر مدينة فى الوطن العربى بل أكبر مدينة فى الشرق الأوسط كله والا تبخل عليه بكل عواطف المحبة والإشفاق وأنت تتصور آنذاك.. أنه ينطلق بجناحه البسيط الذى لم يعرف مرارة التحليق فى الآفاق الواسعة حيث العواصف تلو العواصف لا ترحم العصافير ولا النسور.. وهو ينطلق بزاد من المشاعر الفطرية الخالصة التى لم تتعقد على الإطلاق، وهو ينطلق من المسافات الضيقة والشوارع المحدودة، والمجتمع الصغير الذى يعرف فيه الناس بعضهم بعضا إلى مسافات واسعة وشوارع لا حدود لها، وناس كثيرون جدا قلما تستطيع أن تكتشف فيما بينهم أى نوع من العلاقة.. فالمدينة الكبيرة هى بحق كما يصورها إليوت «وحش ضرير أو هوة للموت تبتلع من فيها وتحيل الفرد إلى قزم».... لقد جاء أحمد حجازى إلى «القاهرة» وحيدا لا يملك إلا موهبته.. لم يكن يملك عملاً بعد ان رفض عمله المحدود الضيق كمدرس في قريته، ولم يكن يملك مسكنا مستقرا يأوى إليه عندما يأوى الناس إلى عوالمهم الخاصة، ولم يكن له فى المدينة الكبيرة أصدقاء يعرفهم ويعرفونه .. كل شىء تركه فى قريته الصغيرة وراءه.. وجاء إلى المدينة متصورا أن موهبته سوف تكفل له ما ينقصه من عناصر الحياة وهو تصور فطرى طبيعى ... ولكن كم كان أمام هذا التصور عقبات واقعية تحول بينه وبين التحقيق! وقد لمس شاعرنا هذه الحقيقة الصلبة منذ اللحظة الأولى، وكانت صدمة لوجدانه ومشاعره ظلت تعكس آثارها على شعره، حتى اليوم.. والواقع أن هذه التجربة العنيفة المريرة ليست تجربة أحمد حجازى وحده، ولكنها تجربة الكثيرين جداً من أبناء جيله، وهذه التجربة نفسها هى الامتحان القاسى الذى يخرج الناس منه إلى فئات وأنماط مختلفة، فلابد له من حل هذه الأشكال والوصول إلى طريقة للخلاص، فالهدف البعيد الدائم للحياة الإنسانية هو «التكامل» . التكامل الداخلى الذى يصنعه انسجام الذات مع نفسها، وتسوية القلق والانقسام النفسى بطريقة ما.. والتكامل الاجتماعى ، بأن يتم انسجام الفرد مع المجموع الذى يعيش معه، طالما انه لا يستطيع الاستغناء عن الحياة المشتركة مع الجماعة.. ولقد عرضت هذه المشكلة لكل ابناء الجيل الذى ينتسب إليه أحمد حجازى .. وإذا كانت المشكلة واحدة أمام أبناء هذا الجيل، فطريقة الحل مختلفة تماما... هناك الذى أراد أن يتغلب على المشكلة عن طريق «العقيدة السياسية» التى يؤمن بها تمام الإيمان، ويجد فيها مأواه ومأمنه، كما كان الإنسان فى العصور السابقة يجد مأمنه الكامل فى الأساطير مثلا، أو كما يشعر الإنسان المتدين نحو دينه... إن دينه ليس «واجبا» وحسب، بل إنه بالدرجة الأولى طريقة الخلاص، طريق لتطهير النفس من أزماتها، وتدريبها على التخلص مما يعرض للحياة من عناصر الشقاء، وما يعرض للنفس من تجارب فاشلة وأسئلة لا تجد الإجابة الكاملة... هناك من لجأ إلى العقيدة السياسية كحل للمشكلة الكبرى التى تعرض له وما يتفرع عنها من تفاصيل وجزئيات... وليس معنى هذا أن كل صاحب عقيدة سياسية

إنما يرتبط بعقيدته فقط لأنها حل ذاتى لما يعتيره من قلق وانقسام نفسى وحنين إلى التكامل الداخلى والتكامل الاجتماعى على السواء... بل معناه على التحديد أن العقيدة السياسية إلى جانب وظيفتها العامة إنما تقوم بوظيفة ذاتية، ولا يمكن تجاهل هذا العنصر على الإطلاق إذا ما أردنا أن نعرف حقيقة النماذج النفسية الموجودة فى عصرنا...إلى جانب العقيدة، التى يلجأ إليها نمط من الجيل الذى يمثله وينتسب إليه أحمد حجازى، فإننا نجد طرائق أخرى للخلاص من مشكلة هذا الجيل... هناك نمط «المنحل» الذى يجد فى اللذة الحسية عقيدة تكفيه، وتحقق له الانسجام النفسى الكامل.. ويجد «المنحل» اكتفاءه وخلاصه فى الجسد الأنثوى ، وفى الشراب وفى الطعام، وفى اكتساب كل المظاهر الاجتماعية الشكلية من العناية البالغة بالملبس وطريقة الحديث وغير ذلك وهناك نمط ثالث يلجأ إلى حل المشكلة عن طريق لا مفر لنا من تسميته بـ«الانتهازية» .... إنه مجامل منافق لا يقيم وزنا للقيمة الإنسانية فى سبيل الوصول إلى مكان اجتماعى، أو سلطة مادية تمكنه من تحقيق مطالب حياته، والوصول إلى الاكتفاء النفسى، وإحاطة مشاعره بسياج يحميها من تسلل ذرات القلق والتمزق .. وهناك نمط آخر هو «المغامر» .... ذلك الذى يملأ فراغ حياته بخلق الإشكالات العنيفة المفتعلة، والتماس التجارب الحادة التى تثير الحماس وتستنفد الطاقة الإنسانية، وتبدو طريقا للخلاص .. وهناك فى آخر الأمر ذلك الذى يختار الانطواء والعزلة، يقتات فى «منفاه» بأى شىء.. ربما بالقراءة، ربما بالوهم والتخيل، وربما بالاكتفاء بموقف المتفرج السلبى الذى قرر أن يقول أمام كل إشكال يعترضه كما كان يقول أحد أبطال سارتر.. «وما الفائدة؟».

هذه هى الأنماط الرئيسية فى الجيل الذى ينتسب إليه أحمد حجازى، وهذه هى طرائق الخلاص الكبرى بالقياس إلى هذا الجيل، فأى طريق اختارها شاعرنا وأى حل ارتآه؟.. إننا نود أن نقف لحظة لنرى كيف صور المشكلة، وكيف عبر عنها... وذلك قبل أن نبحث عن الطريق التى اختارها كحل أخير .. وفى هذا الديوان نجد أربع صور للمشكلة التى يعانيها الشاعر، والتى تلفح وجدانه، وتهز مكامن الإبداع فيه...

والصورة الأولى لهذه المشكلة ، الصورة الباهرة الكبرى، هى قسوة المدينة وتعقدها.. وتكاد هذه الصورة تلقاك فى معظم قصائد الديوان، وعلى الأخص قصائده التي يرتفع فيها الشاعر إلي التعبير عن أعظم ما لديه من مشاعر وانفعالات، فهذه القصائد تضرب دائماً على وتر «الإحساس بالغربة»... ففى قصيدته الرائعة العملاقة «كان لى قلب» يقول الشاعر:

وذات مساء

وعمر وداعنا عامان

طرقت نوادى الأصحاب لم أعثر على صاحب

وعدت تدعنى الأبواب والبواب والحاجب

يدحرجنى امتداد طريق
طريق مقفر شاحب،
لآخر مقفر شاحب
تقوم على يديه قصور
وكان الحائط العملاق يسحقنى
ويخنقنى
وفى عينى.. سؤال طاف يستجدى
خيال صديق
تراب صديق
ويصرخ أننى وحدى
ويا مصباح مثلك ساهر وحدى

ويتحدث عن «البشر فى المدينة» فى قصيدته «الطريق إلى السيدة» فيقول فى تصوير صادق باهر وإن كان أقل لوعة وأخف صوتا من ذلك الصراخ الداخلى المتمزق العالى فى «كان لى قلب»:

والناس يمضون سراعاً
لا يحفلون
أشباحهم تمضى تباعا
لا ينظرون
حتى إذا مر الترام
بين الزحام
لا يفزعون
لكننى أخشى الترام
كل غريب ها هنا يخشى الترام

.... ولنلاحظ «خوفه الريفى» من «الترام» تلك الآلة التى هى علامة ظاهرة من علامات المدينة بالنسبة للريفى الغريب الذى لم يعرفها من قبل ، ولم يألفها .. فهى شىء جديد على حياته...

وفى قصيدة «مقتل صبى» نقف أمام صورة تدلنا دلالة واضحة على مدى ما يعانيه الشاعر فى المدينة.. فالقصيدة تتحدث عن طفل صغير داسته عربة فى الطريق.. ولكن الناس هنا بلا أسماء .. لأنهم كثيرون متزاحمون ، وكل مشغول بنفسه عن الآخرين.. من هو الطفل الذى داسته العربة؟ من صاحب ذلك الدم الوردى الصغير الذى داسته أقدام قاسية ممزقة ومزجته بالتراب والغبار والزحام؟

ابن من هذا الذى مات ذات صباح.. ذات مصادفة؟... من أمه ومن أبوه ومن شقيقته وشقيقه؟.. لا أحد يعرف» لأن الناس هنا لا يعرفون

الأطفال، ولا يعرفون آباء الأطفال وأمهاتهم، لقد مات الولد الصغير وحمل معه «سره»:

الموت فى الميدان طن
العجلات صفرت، توقفت
قالوا ابن من
ولم يجب أحد
فليس يعرف اسمه هنا سواه
ولم يجب أحد
فالناس فى المدائن الكبرى عدد
جاء ولد
مات ولد

وفى قصيدته «أنا ومدينتى» لا يجد نفسه إلا «وريقة فى الريح دارت، ثم حطت، ثم ضاعت فى الدروب».. ثم

لقد طردت اليوم
من غرفتى
وصرت ضائعا بدون اسم
هذا أنا
وهذه مدينتى!

و«الغرفة» هنا قد تكون غرفة حقيقية، وقد تكون غرفة رمزية، تدل على المأمن المفقود، أو تدل على الريف الذى كان يعيش فيه من قبل، ثم فقده أو رحل عنه.. أو طرد، منه كما يتراءى لشعوره فى لحظة الضيق والضياع... فما يستطيع ضائع أن يقول إننى اخترت الضياع.. ولكنه دائماً مرغم عليه.. لقد صار «ضائعاً بلا اسم».

وفى قصيدة «إلى اللقاء» تطل التجربة.. تجربة الشعور بقسوة المدينة.. على أن تفاصيلها قد ازدادت وتعمقت عناصرها، إن القصيدة لا تعبر عن «الصدمة الأولى» للتجربة، ولكنها تعبر عن التجربة بعد الممارسة، ومحاولة تكشف الوسائل المختلفة التى تيسر على الشعور المرهف، إمكانية تحمل التجربة القاسية، مادام لم يعد هناك مفر من تحمل هذه القصيدة يصور أحمد حجازى نهار المدينة، وليلها.. إنه فى المرحلة الأولى من تجربته لم يكن يعرف التفاصيل، بل كان يعتمد على الانطباع الأولى العام.. أما الآن فقد عرف أن:

شوارع المدينة الكبيرة
قيعان نار
تجتر فى الظهيرة
ما شربته فى الضحى من اللعب

يا ويله من لم يصادف غير شمسها
غير البناء والسياج، والبناء والسياج



غير المربعات، والمثلثات، والزجاج
ثم يتحدث عن ليل المدينة بعد أن تحدث عن نهارها :
الليل فى المدينة الكبيرة
عيد قصير
النور والأنغام والنساء والشباب
والسرعة الحمقاء والشراب
عيد قصير
شيئاً.. فشيئا ، يسكت النغم
ويهدأ الرقص وتتعب القدم
وتكنس الرياح كل مائدة
فتسقط الزهور
وترفع الأحزان فى أعماقنا رؤوسها الصغيرة

... ولكن هذه الرؤوس الصغيرة تظل تنمو وتنمو حتى تصبح كائنات تسيطر على النفس، وتشيع فيها الكآبة والأسى.

وفى قصيدة «حب فى الظلام» يعبر عن التجربة بطريقة أخرى، فهو وحيد طريد يريد أن يقول لحبيبته إنه يحبها فلا يستطيع ، وعندما ينفرد بنفسه ينسى أحزانه، ويلتمس فى ضوء المدينة وحيويتها أنيسا له، فيتصور مدينة جميلة، الناس فيها يعرفونه ويعرفهم، ويتحدثون إليه، ويسألونه عن حبه، عن أشيائه الخاصة ، إنه فى هذه المرة لا يحكى عن قسوة المدينة بطريقة مباشرة، بل يتحدث عن هذه القسوة بطريقة نفسية خاصة، فهو يتصور المدينة كما يتمناها لا كماهى موجودة فى الواقع، ويمنح هذه الصورة الوهمية حبه.. وهمسه. وأنت لا تستطيع أن تهمس إلا لحبيب .. وهو فى هذه القصيدة يتحدث عن حب لم يستطع أن يبوح به لصاحبته ... ثم.

ولكننى فى المساء أبوح
أسير على ردهات السكينة
وأفتح أبواب صدرى
وأطلق طيرى
أناجى ضياء المدينة
إذا ما تراقص تحت الجسور
أقول له يا ضياء ارو قلبى فإنى أحب
أقول له يا أنيس المراكب والراحلين أجب
لماذا يسير المحب وحيدا
لماذا تظل ذراعى تضرب فى الشجرات
بغير ذراع

ويبهرنى الضوء والظل حتى،
أحس كأنى بعض ظلال ، وبعض ضياء
أحس كأن المدينة تدخل قلبى
كأن كلاما يقال وناسا يسيرون جنبى
فأحكى لهم عن حبيبى

تلك هى المدينة التى يحلم بها... أن يكون هناك «كلاما يقال وناسا يسيرون جنبى»... وهو يتخيلها ويتصورها مادامت صعبة التحقيق فى الواقع الملموس.

وفى قصيدة أخرى تظل المشكلة بعنف ومرارة، من جديد، تلك هى قصيدة «رسالة إلى مدينة مجهولة»...

وهو يبعث فيها برسالة إلى والده الذى مات، يحكى له فيها حكايته هو.... وفى هذه القصيدة يقول:

أبى
وكان أن عبرت فى الصبا البحور
رسوت فى مدينة من الزجاج والحجر
الصيف فيها خالدا، ما بعده فصول
بحثت عن حديقة ، فلم أجد لها أثر
وأهلها تحت اللهيب والغبار صامتون
ودائماً على سفر
لو كلموك يسألون كم تكون ساعتك؟

... هذه مرحلة أخرى من مراحل الصورة الأليمة المريرة التى يلحظها فى الناس داخل المدينة، فالشىء الذى يحكم علاقاتهم هو السرعة، والعجز عن الارتباط الإنسانى المتأنى الأنيس. . حتى إذا سألوك عن شىء فعن «الساعة»، وهى نفسها رمز من رموز «السرعة».... إنها رمز للطرف الثانى من أطراف الصراع داخل هذه المدينة المليئة بالأحزان... هذا الطرف هو «الوقت»، فما أكثر ما يتحمله إنسان المدينة من أعباء صغيرة لا تنتهى، ومن خلال هذه الأعباء المتراكمة تذوب مطالبه الإنسانية الحقة.

هذه أول صورة للمشكلة التى يعانيها شاعرنا كإنسان، والتى يعبر عنها فى شعره، تعبيرا صادقا نابضا مليئا بعمق الرؤية وعمق الإحساس حتى انك تستطيع أن ترى فى هذا التعبير جيلا بأكمله ، أو ترى بتعبير آخر «قلق جيل» يسلك عديدا من الطرق ويستخدم أكثر من وسيلة كى يصل فى نهاية الأمر إلى التكامل الذاتى، والتكامل الاجتماعى.. كى يتغلب على انقسام نفسه وتمزقها فى مشكلات متلاطمة بلا حل، وكى يتغلب على الانقسام بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه إما بتغيير هذا المجتمع أو بتغيير ذاته.. هذا كله يصوره شاعرنا فى ثلاث صور أخرى غير الصورة السابقة وهى قسوة المدينة.

فهناك من ناحية : «الشعور بالمأساة»... وذلك الشعور الذى يشيع فى قصائد الديوان ، وفى اختيار التجارب التى يعبر عنها.. والديوان فى مجمله هو «تراجيديا» عنيفة... هو شعور غامر بمأساة، وتعبير متعدد الجوانب عن هذه المأساة، فمعظم القصائد التى يمكن أن نسميها قصائد ذاتية إنما تنبعث من هذا الشعور، ولكن القصائد «الذاتية» لا تدل وحدها على عمق المأساة الغائرة فى نفس الشاعر بل تدل على ذلك القصائد ذات الموضوعات الخارجية... القصائد التى تكون خامة التجربة فيها من موضوع خارج ذات الشاعر.. إن هذه القصائد كلها تعبر عن مأساة وتنبع منها، وإذا كان الشاعر يجد فى تجاربه الذاتية عناصر المأساة تتسرب إلى حياته، ثم تظهر فى شعره، فإن شيئاً آخر يواجهنا فى هذا الديوان هو أن يلجأ الشاعر بمحض اختياره إلى الموضوعات الخارجية التى يكون جانب المأساة فيها واضحاً بارزا قويا... هناك غير التجارب الذاتية المباشرة فى الديوان بارزا قويا .. هناك غير التجارب الذاتية المباشرة فى الديوان قصائد تستمد تجاربها من موضوعات عامة، وهذه القصائد هى: مذبحة القلعة، بغداد والموت، سوريا والرياح، صبى من بيروت، قديسة. وفى هذه القصائد كلها يطل علينا «الشعور بالمأساة» بارزا واضحا.. فمن الواضح أن الذى أغرى شاعرنا بصياغة القصيدة التاريخية المعروفة عن مذبحة القلعة هو ما فى هذه القصة من جانب تراجيدى وما فيها من تشابه الحالة النفسية التى يعيشها الشاعر والرؤى التى تملأ دنياه .. فالمعنى المباشر الذى يسود هذه القصيدة هو أن المماليك كانوا متأهبين للفرح بالحياة، فاستعدوا لأفراحهم، ولبسوا أجمل الثياب، وركبوا خيولهم القوية التى تبعث فى النفس مزيجا من الإحساسات، ثم سار هؤلاء المماليك فى «الموكب» تدق أمامهم موسيقى وتستثير خيالاتهم أحلام حلوة، وأمان جميلة... وبينما هذا الموكب، السائر الفرحان بالحياة، الراغب فى مزيد منها والمتطلع إلى مختلف جوانبها .. يمضى فى طريقه إذا بالكارثة تقع:

دخلوا القلعة ثم التفتوا فى بعض ريبة
فإذا بالباب يرتد هناك
وإذا صوت الجموع
صادر من خلف باب ... من هناك
«أطلقوا»!
قالها قائد جند الأرناءوط
«أطلقوا»!
فالنار تهوى كالخيوط
كالمطر
زغردات مستريبة
تتردى بين أسوار وأبراج رهيبة

وهكذا يقع الاعتراض على «الرغبة فى الحياة» على «الرغبة فى الفرح» ،



وتتلوث كل الثياب التى استعد بها المماليك لخلق دنيا من السرور المجنح.
والسير فى موكب النشوة بلا مخاوف أو أحزان....
هذا هو ما حدث للمماليك، وهذا ما يحدث لشاعرنا الإنسان كل يوم: رغبة عارمة فى الصرح... رغبة عارمة فى الحياة.. إرادة تريد أن تنطلق فى عالم السرور والتجربة... جناحان فيهما حنين لاختراق ثلوج الحزن وإذابتها فإذا هى أمواه غدير، وطيور حلوة تحسو القطرات العذبة، وربيع أخضر يتثنى هنا وهناك... ولكن هذه الرغبة العارمة ما تكاد تولد، حتى تعترضها العقبات تلو العقبات، ومن هنا ترتد هذه الرغبة النابعة من مكامن الفرح فى الذات الإنسانية لتصبح جزءا من أحزان تلك الذات وآلامها .. وهذا هو الخيط الذى امسك به شاعرنا فى مأساة مذبحة القلعة، لقد استعاد التفاصيل الإنسانية، لا السياسية، فى هذه المأساة التاريخية، وأعاد بناء هذه التفاصيل، استجابت له ملكاته الشعرية استجابة فلذة لأنه وهو يعيد بناء هذه المأساة، كان فى الواقع يلمح التطابق بينها وبينه.
فكل رغباته فى الحياة تذبح أمام العقبات فيها يشبه المؤامرة أو التدبير، وثياب أفراحه المزركشة لا يكاد يأتى الليل إلا وقد تناثرت فوقها بقع حمراء من الدم، بعد أن مسرت الأحداث والعقبات رقبة كل عصفور حلو من عصافير أفراحه وأمانيه.
نفس المطابقة بين الذات والموضوع فى القصائد الأخرى ذات الموضوعات العامة.
فى «بغداد والموت» تطل صورة الشهيد صلاح الدين الصباغ لتحكى حكاية إنسان يريد الحياة ويدافع عنها..حكاية «حيران بالحلم النبيل» ... ويبلغ الشاعر قمة روعته وهو يعبر عن أحزان بغداد، ويرسم فى صورة باهرة ما كانت تعانيه من الآلام فى ذلك العهد الكئيب من عهود تاريخها...

بغداد درب صامت، وقبة على ضريح
ذبابة فى الصيف لا يهزها تيار ريح
نهر مضت عليه أعوام طوال لم يفض.
وأغنيات محزنة
الحزن فيها راكد لا ينتفض
وميت ، هيكل إنسان قديم
سيف على صدر الجدار، خنجر من النضار
أردية ملونة
غطت ضلوعا من هشيم
وامرأة تغلق فى وجه المساء بابها
تبكى على أخشابه أحبابها
وأوجه منقبات لا تبوح

وهذا الحزن الغامر، ليس صورة من أحزان بغداد فى فترة من فترات

تاريخها وحسب، بل إن هذه الصورة تتطابق مع أحزان الشاعر نفسه... إنها فى نفس الوقت صورة من عالمه الداخلى، على أنها صورة خاصة من ذلك الحزن الكئيب الذى أجهده طول الكفاح فالتمس العزاء فى نوع من الغفوة والسكون .... وهى حالة أخرى غير حالات التمرد والصراخ والعنف، وإن كانت تحتوى فى داخلها على استعداد لمعاودة الصراع... إنها تلك اللحظة التى تنساب فيها دموع العين بيسر وهوادة وغزارة. فإذا ما وصلت إلى الفم بلغ الاستسلام المتحفز الصابر بالإنسان ذلك الحد الذى يشرب فيه دموعه دون مقاومة، ودون تغيير لمجرى تلك الدموع.. هذا هو نوع الحزن الذى يصوره شاعرنا فى ذلك المقطع الكئيب ، إنك تكاد تحس أن كل شيء قد أصابه الركود والتوقف عن الجريان.

أما النغم المختار لتصوير التجربة فهو «الرجز» ... ذلك النغم الشعرى الهادئ المنساب، المتماثل مع طبيعة تلك الحالة تماما.

وفى قصيدة «قديسة» يلقى الشاعر بنظراته إلى الجانب الذاتى الحزين فى مأساة البطلة جميلة أبو حريد، ذلك الجانب الذى تتطابق فيه «أحزان جميلة» مع أحزانه هو، وأحزان أبناء جيله، هؤلاء الراغبين أشد الرغبة فى الحياة، والعاجزين فى ذات الوقت عن تحقيق تلك الحياة.... هؤلاء الذين يمثلون فى جانب من جوانب حياتهم أسطورة «سيزيف» اليونانية القديمة... فـ«سيزيف» يريد أن يرفع صخرة إلى قمة الجبل، ويظل يسعى ويناضل حتى يصل إلى بداية القمة وقد ركب الأهوال من السفح حتى تلك الغاية... وإذا بـ «الصخرة» تتدحرج لتعود إلى السفح، ويعود معها «سيزيف» ليبدأ الكفاح من جديد ثم تتكرر القصة باستمرار.. وأسارع فأقول إن قصة «سيزيف» هذه لا تنطبق على جيلنا من جانب: أنها تصور العجز عن البلوغ إلى غاية معينة، وعدم جدوى الكفاح فى تحقيق تلك الغاية... كلا، فالجيل الذى يعبر عنه أحمد حجازى يعرف لنفسه غاية، بل وغايات كثيرة... ولكن ما هو السبيل لتحقيق تلك الغايات؟ إن الاضطراب والقلق والحزن تنبع كلها من التفكير فى الوسائل.. وأحيانا كثيرة يصبح الإنسان البصير بغايته الذى يعرف نهاية المطاف فى مأزق نفسى مرير... إن قلقه ليس فى البحث عن «غاية» و«هدف» .... بل القلق، فيما يحول بين تلك الغايات والأهداف من عقبات... إن «سيزيف» عصرنا يعرف أنه يريد أن يضع الحجر على قمة الجبل، ويعرف قيمة هذا الأمر تماما... ولكن الغاية السليمة..... ينبغى أن تتوفر لها الوسيلة السليمة أيضاً ، حتى لا يتدحرج الحجر كلما شارف البلوغ إلى القمة .... هذه هى المحنة، هذا هو مصدر القلق.

وقد اختارت «جميلة» وهى من أبناء جيل أحمد حجازى ... اختارت لنفسها طريق التضحية لتصل إلى قمة الجبل...

ولكن كم كان فى هذا الطريق من متاعب... يصورها لنا الشاعر خير تصوير، ويعبر بها عما يحسه فى نفسه هو، ولكنه لا يقول لنا أبدا: توقفوا عن التضحية لأنها طريقة شاقة متعبة محزنة.. كلا بل يقول شيئاً آخر.. إنه يقول: اعرفوا قيمة التضحية لأن ثمنها غال... فلنزد من إعجابنا بتضحية «جميلة» ولنعرف لها

عظمتها الباهرة.. إنها إنسانة عظيمة ... قديسة:

لم تبتسم جميلة
لم تفترش عشبا بجنب عاشق تحت القمر
لم تعرف اللثما
لم تعرف الغرام إلا خاطرا ، حلما
فقد مضى كل فتى فى سنها إلى الجبال
....
وكلما تذكرت يا سيف
كادت تطير
يا سيف تحت الأرض يمسك المدينة
يا سيف من خمس سنين لم ينم
يا سيف عندما يراها يبتسم
يحب ترديد اسمها
يسألها عن أمه عن أمها

وهذا هوالذى يضنيه ضنى المتمردين لا ضنى المستسلمين العاجزين.. إن أمام الرغبة فى الحياة عقبات تخلق الحزن، وأحزانا جميلة كأحزانه، كأحزان أبناء عمره وعصره، فمأساة جميلة فى معناها الإنسانى تتطابق مع أحزانه تماما.... ما وجه الشبه كما يقولون؟.... إن وجه الشبه هو: رغبة فطرية خارقة فى الحياة تحول بينها وبين التحقيق عقبات وعقبات.... على أن هذه العقبات لا تؤدى إلى السلبية والسكون... ولكنها تؤدى إلى نوع عنيف من الإيجابية يشوبه الحزن، ويقطر منه أسى لا يغفله الشاعر وإنما يتبناه.... وكل صاحب قضية كبيرة مثل جميلة إنما يدافع فى الأساس عن قضايا فطرية طبيعية كالحب والأمن وطمأنينة النفس... صاحب هذه القضية عندما يدخل ميدان المعركة فإنه يدخلها بنفس قوية ولكن هذه النفس مع ذلك تستشعر الحزن الذى يمتزج بقوتها فيزيدها رصانة.

وفى «صبى من بيروت» و«سوريا والرياح» تتطابق الأحزان فى الموضوعات التى يعبر عنها شاعرنا مع أحزانه هو.

ذلك هو «الشعور بالمأساة» الذى يشيع فى التجارب الذاتية لأحمد حجازى، ويشيع فى الموضوعات العامة التى يعالجها بمحض اختياره، أو التى يعالجها عن طريق الاختيار أيضا ولكن بدافع من الضمير الإنسانى والوطنى الذى يستجيب له قلبه الموهوب.

وصورة أخرى من صور المشكلة التى يعانيها شاعرنا ويعبر عنها.. تلك الصورة هى «الفراغ النفسى» ... «الوحدة الروحية» ... وتتمثل هذه الصورة على التحديد فى تجربة «المرأة» فى حياته، أو تجربة الحب... فابن العام السادس عشر، عندما انتقل إلى دنيا كفاحه فى عامه التاسع عشر كان لابد لقلبه أن يرتوى وهو ظمآن... إنه

لم يعد ظمأن بالطريقة الرومانسية التى تعتمد على الوهم والخيال... ولكنه اليوم يشعر بذلك الظمأ الفنى الواضح الذى هو احتياج حيوى أصيل يحس به الشاعر والإنسان... ولكن ما أفرغ الجراب من حصاد النهار وحصاد المساء!.... إن شاعرنا محروم من واحدته، فارغ الوجدان، بينما دنيا هذا الوجدان الموهوب مفتوحة النوافذ والأبواب . وما من طارق يحن ، وما من طائر يريد أن يستقر هنا ويغنى على هواه... ربما كان سبب هذا الحرمان هو الضائقة المادية التى فرضت على الشاعر وعلى أبناء جيله مزيدا من العمل والكفاح ، والانطلاق بلا اعتماد على شيء فى ميدان الحياة... الانطلاق من نقطة الصفر... وربما كان السبب هو ضيق الأفق الذى يسيطر على المجتمع فيخنق فيه كل التجارب المفتوحة .. والذى أوشك أن يدفع بهذا الشاعر ، لولا قوته وصلابته وأصالة منبته فى دنيا المواهب، إلى أن يكون نديما يغنى للناس.. وهم يشربون ويطربون.. ثم يتفرق السامرون إلى أعشاشهم .. ولا عش يؤويه، ولا طائر يضم جناحيه حول روحه الوحيدة المنفردة الأسيانة ليدفئ عظامه، ويشعل عناصر الحياة فيه... ولكن الشاعر الموهوب وقف أمام المشكلة يعرضها ويغنيها ويصرخ صرخات الذى يعرف أنه مسلوب الحقوق... وفى هذا الديوان تعبير صارخ رائع عن تجربة الحب... وهو دائماً حب واضح.. ولكنه حب ناقص أو حب فاشل.. وقد تعود إلى الذهن هنا ذكريات عن الرومانسيين وطريقتهم فى الحب، فهم أيضاً كانوا يضربون على وتر الحب الناقص أو الحب الفاشل.. ولكن الفرق جوهرى رئيسى.. فالحب المأزوم هنا حب مفهوم لا غموض فيه...العقبات التى تعترض واضحة، ويمكن إدراكها ... ليس مثل ذلك الحب الرومانسى الذى ينشأ فى غموض، ثم يفشل أو ينهار أيضا – فى ميدان التعبير الفنى – بطريقة غامضة .. على أن هناك فرقاً آخر بين الحب هنا، والحب الرومانسى... ذلك هو الفرق فى طريقة الأداء الفنى... وهو فرق جوهرى سنعرض له بعد قليل.

فى قصيدته العملاقة «كان لى قلب» يفشل حبه، لأن هذا الحب كان يتناقض مع الفكرة المثالية التى رسمها الشاعر لنفسه عند ميلاد هذا الحب... لقد كان الشاعر فى البدء «خامة» فيها إمكانيات التشكل فى قالب ما، ولكنها لم تكن قد تشكلت بعد.. لابد أن تتحول «الهيولى» – كما يعبر أرسطو – إلى صورة .. ولم يكن أمام الشاعر طريق غير الفن... إن الصورة التى يريد أن يصبح عليها هى صورة «الشاعر».... يريد أن يكون شاعرا فى سلوكه كما كان شاعرا بموهبته.. ولكن أى شاعر .. لقد اختار أول صورة وقعت عليها عيناه، وأراد أن يحققها ويطبقها فى مجال الحياة.. إن الشعر فى هذه المرحلة من حياته كان هو الحياة، لم يكن قد شعر باحتياجات أكبر من احتياجه للتعبير الفنى.. كان مازال فى بدء الحياة... وكانت نظرته إلى الأمور تتشكل حسب علاقتها بشعره إذا كان الإنسان أو الموقف يؤكد إيمانه بشعره فهذا هو الشيء المرغوب فيه تماما... وكان هذا هو السبب الذى أدى إلى فشل حبه:

....

وكان وداع

جمعت الليل فى صمتى
ولفقت الوجوم الرحب فى صمتى
وفى صوتى
وقلت ... وداع!
واقسم لم أكن صادق
وكان خداع
ولكنى قرات رواية عن شاعر عاشق
أذلته عشيقته .. فقال وداع
ولكن أنت صدقت!

وهكذا فشل حبه، لأنه كان يقيس هذا الحب بمقياس «الشعر» ... كان يريد لهذا الحب أن يفشل، مادام الشاعر الذى يتمنى أن يكونه قد فشل فى الحب... وفى هذه الصورة الرائعة تعبير عن نمط من المشاعر المعروفة، ونمط من الناس يقضى حياته على هذه الطريقة، فيتصرفون تقليدا لنموذج يضعونه أمامهم، فلا يصدر سلوكهم عن مصدر ذاتى، وضرورة خاصة بهم هم... على أننا نحسب الأمر يبدو بسيطا محدود الجوانب إذا ما كان هذا هو السبب الوحيد لفشل الحب الأول لهذا الشاعر .. أما السبب البعيد ، فهو أن طاقة الطموح التى تفجرت فيه آنذاك كانت تريد أن تتجاوز كل ما يوحى إليه بالاستقرار ويجذبه إلى الدعة والهدوء .. ما من نفس إنسانية يشغلها هذا النوع من الطموح إلى تحقيق إمكانياتها يمكن أن تجعل الحب فى الدرجة الأولى من اهتمامها.. إن النفس فى هذه المرحلة تكون مثل المياه المخزونة على مر الأيام أمام سد من السدود.. وفجأة ينفتح السد فتندفع هذه الأمواج بعنف يكتسح التفاصيل والجزئيات.. وبعد فترة يتخلص مجرى النهر من اندفاعه ويعود إلى هدوئه وانسيابه الطبيعى وهذا ما حدث بالنسبة لشاعرنا، لقد كان كل شىء يجره إلى المدينة، وكان يدعوه إلى أن يترك قريته الوادعة الساكنة أحيانا إلى حد الجمود ليخرج إلى مجال فيه صراع أوسع وأعمق ليبحث لنفسه فى هذا المجال عن مكان ... وبعد أن دخل هذا الصراع وعرف أطرافه وأصبح الشعر وسيلة للتعبير ولم يعد غاية بدأ يفكر فى تجاربه... وبدأ يشعر أنه وحيد... وأن صداقة الفن لا تكفى قلق الروح وما فيها من ظمأ عنيف إلى الحياة، عندما يلفحه الواقع بنيران الوحدة القاسية المريرة.

إنه يقول فى نوع من الاستسلام الذى يعنى أنه أصبح يعرف، بعد طول صراع، معنى أن يكون له فى دنيا الآخرين حبه وهواه:

ملاكى! طيرى الغائب
تعالى .. قد نجوع هنا
ولكنا هنا اثنان
ونعرى فى الشتاء هنا

ولكنا هنا اثنان
تعالى يا طعام العمر
ودفء العمر
تعالى لى

وتفشل تجربة الحب مرة أخرى فى «قصة الأميرة والفتى الذى يكلم المساء» ... والجانب الموضوعى فى هذا الفشل هو مصدر آخر من مصادر القلق المرير فى حياة الشاعر... ذلك الجانب هو ضعف الانسجام بين العقيدة والسلوك فى حياة الشاعر.... ذلك الجانب هو ضعف الانسجام بين العقيدة والسلوك فى حياة النماذج التى يلتقى بها... أما هو فيرتد ان يأخذ العقيدة والسلوك مأخذا جديًا فيوحد بينهما ، ويتصرف مع الأشياء حسب ما تمليه تلك الوحدة الكاملة بين العقيدة والسلوك .».. وها هو بطل قصيدته الباهرة يلتقى بفتاة، وهو وهى يشتركان فى عقيدة واحد، ومن خلال العقيدة ينطلق شعور بالحب فى قلب «الفتى»، وبسبب العقيدة يتصور «الفتى» أنه حب طبيعى وسوف ينجح .. أما «الأميرة» فكانت تتكلم عن العقيدة، وتعلن إيمانها بها، فتزداد شعلة الإعجاب فى نفس الفتى تألقا، ويظن أن الفارق الاقتصادى والاجتماعى بين مستواه المتواضع ومستواها المرتفع لا قمية له أمام أمرين، الأول هو كفاحه وارتفاع مستواه العقلى والعقائدى، والثانى هو أن الفتاة نفسها مثقفة وعقائدية، وما كان يخطر على بال الفتى أن هناك شيئاً أقوى من الثقافة والعقيدة فى إزالة الفوارق المصطنعة الشكلية... ولذلك اندفع الفتى فى حبه حسب القاعدة البسيطة التى تقول: إن السلوك والعقيدة وحدة كاملة فالفتاة تظهر إيمانها بالاشتراكية عندما تقول:

قلبى على طفل بجانب الجدار
لا يملك الرغيف
ويقول لهذا الفتى آناك:
سيدتى أنا فتى فقير
لا أملك الماس ولا الحرير
وأنت فى غنى عما تضم أشهر البحار من لآل
فقلبك الكبير جوهرة
جوهرة نادرة فى تاج عصرنا
ولو قضيت عمرى الطويل أقطع البحار
وأنشر القلاع
وابسط الشباك، اقبض الشباك
لما وجدت مثلها
لكننى وجدتها هنا
وجدتها لما سمعت لحنك المنساب كالحرير

يبكى لطفل نام جائعا
لكنها قالت له بعد أن خدعته عن حقيقتها طويلا:
....لا ، أنت شاعر كبرى
يا سيدى أنا بحاجة إلى أمير

وهذا التناقض بين السلوك والعقيدة أو بين السلوك الواقعى والرأى النظرى.. هو واحد من أكبر الإشكالات التى تؤدى بشاعرنا إلى قلقه وتمزقه.. ذلك لأن ارتباطه بأفكار الآخرين واشتراكه معهم فى النظرة الواحدة إلى الأشياء ... هذا الارتباط يخلق له مجتمعا معينا، ولكنه آخر الأمر لا يجد نفسه فى هذا المجتمع على حقيقتها.. إن المجتمع المكون من شباب وفتيات يقدمون الإعجاب بفنه، أو يلتقون معه على هذه الآراء أو تلك يشبهون فى جانب من جوانب علاقتهم به سوقا كبيرة.. تجتمع هذه السوق وتأتلف فى وقت معين .. ثم تنفض السوق ، ويبحث شاعرنا عن الزاد الذى كسبه من اندماجه العنيف فى تلك السوق فلا يجد إلا أشياء عائمة غير ملموسة... أين الصديق الذى يملأ فراغ النفس عند الوحدة والانفراد؟ أين الفتاة التى تملأ القلب عندما تنصرف الجموع، ويعود هو إلى عزلته ومأواه؟... أليس فى هؤلاء جميعا إلا كلمات إعجاب ومودة ومواثيق لفظية حول الاتفاق فى الأفكار والآراء؟... إن الخلاف القديم قائم لايزال ... إنه واحد من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة تقدم بوعيه وفنه إلى أن وجد نفسه فى وسط من الوعى هو وسط الطبقة الوسطى الكبرى فى المجتمع العربى كله.... ولا يمكن إيجاد العلاقة الحيوية الحاسمة بين هذين المستويين عن طريق الفن أو عن طريق الالتقاء العقائدى.. ستظل هناك درجة من الاختلاف والانفصال .. تظهر هذه الدرجة عندما يعود كل إنسان من هذه الجماعة إلى عالمه الخاص، فعالمه الخاص قلق، والآخرون ذوو عوالم خاصة أكثر استقرارا وراحة.

والحب الفاشل أو الناقص يظهر فى عدد آخر من القصائد لأسباب أخرى متعددة، إنه يتوهم حبا ولقاء فى «حلم ليلة فارغة» ، ويحب ولا يستطيع أن يكشف عن حبه فى قصيدة «حب فى الظلام» ... وهكذا فى قصائد متعددة أخرى.

على أن الفراغ النفسى ليس مظهره الوحيد هو «فراغ العاطفة»، وإن كان هذا الحرمان العاطفى هو العنصر الرئيسى فى الفراغ النفسى... ولكن المشكلة تنعكس فى صورة احتياجات وجدانية أخرى يعبر عنها فى موقفه من الآخرين ... وفى عدد من قصائد الديوان تنطلق صرخات نفسية حادة يشكو فيها الشاعر من أن العلاقة بينه وبين «الآخرين» علاقة ممزقة .. من هم الآخرون على وجه التحديد؟... إن الحب الفاشل أو الحب الناقص قد أحوجا ذاته بعنف مرير إلى الصديق ، ولكن ماذا يفعل الصديق، وأين يلقاه.... إن الصداقة فى عالم المدينة عمرها قصير... إنها لقاء ثم تطويه المسافات الواسعة، والزمن المشحون بالأشياء الصغيرة... فمهما كانت الصداقة فإنها فى نهاية الأمر تتركه وحيدا، تحيط بوجدانه الأعاصير والأنواء...

ففى نهاية رحلة الصداقة هناك كلمة هى «إلى اللقاء» .. وكلمة أخرى هى «الوداع»:

يا أصدقاء

لشد ما أخشى نهاية الطريق

وشد ما أخشى تحية المساء

إلى اللقاء

اليمة إلى اللقاء و«أصبحوا بخير»

وكل ألفاظ الوداع مرة،

والموت مر

وكل شيء يسرق الإنسان من إنسان

وفى قصيدة أخرى هى «كان لى قلب» تنطلق هذه الصرخة الباقية:

....

وفى عينى سؤال طاق يستجدى

خيال صديق

تراب صديق

ويصرخ ... إننى وحدى

وهكذا فقد مزقت المدينة بقسوتها ومسئوليتها حبه ومزقت صداقته، وبالأحرى جعلتها علاقة إنسانية لا تشغل ذلك الفراغ المرير الذى يواجهه كل لحظة، لأن الأصدقاء فى نهاية الأمر يتركونه وحيدا فريدا يقتات أحزانه الغائرة، ويلعق جراحه الكبيرة... فماذا بقى من علاقته بالآخرين؟... هل تكفى تلك العلاقات اليومية، القائمة على أساس المنفعة، أو الضرورة؟... هل تكفى تلك العلاقات القائمة بين ناس يلهثون ولا يسألون إلا عن الساعة... هؤلاء الذين تزدحم بهم مدينته؟. فى إحدى قصائده، يستعير فكرة من «سارتر» ليعبر بها عن المشكلة.... هذه الفكرة، هى ما تجسده العيون من حقائق نفسية داخلية فى أعماق الإنسان وما تكشف من خبايا الوجدان والمشاعر. يأخذ شاعرنا الفكرة ويلتقطها ليعبر عن موقف الآخرين، أو عن موقفه مع الآخرين.. إنهم ليسوا من هذا النمط الذى ينفجر معه جرح الحب الفاشل أو الحب الناقص، وهم ليسوا من ذلك النمط الذى يقوم بدور الأصدقاء بما فى المدينة الكبيرة من احتجاجات واعتراضات على الصداقة.. ولكنهم نمط ثالث ، نمط عام: قد يلقاه فى العمل أو فى الشارع أو فى الترام أو فى معاملاته المادية الأخرى داخل نطاق المجتمع.... وهؤلاء تكشف العيون عن خباياهم، وليس فى هذه الخبايا إلا كل شيء يخيف.... هم هنا مثل بائع الفحم فى قصة «فرانز كافكا» التى أسماها «حامل الوعاء» .... إن حامل الوعاء تقلص ضلوعه من برد الشتاء، وهو يريد أن يشترى بعض الفحم، ولكنه لا يملك ثمنه، وقد ذهب إلى بائع الفحم ليطلب منه بعض فحمه لعله يتغلب على ذلك البرد القاتل بما فى الوقود من دفء.... وظل حامل الوعاء يصرخ وينادى على بائع الفحم ، وبائع الفحم يؤكد لزوجته أن

أحدا لا ينادى عليه، وإنما هى أصداء العاصفة، أتت من هنا أو هناك.... وهو فى الحقيقة يسمع جيدا، ولكنه لا يريد أن يستجيب إلى محتاج لن يعطيه ثمن الفحم الآن... هكذا عيون الآخرين:

لو أننى أفصحت عما فى العيون
عريت قوما من ثيابهم
لو أننى جسدتها قولا سحابات الظنون
لأغلق الناس العيون
لهول ما يشاهدون

هذه هى عيون الآخرين، وهى الأخرى تدعم إحساسه بالوحدة، وإحساسه بالفراغ النفسى بكل ما فيه من مرارة وعنف.

بقيب صورة من صور المشكلة التى يعبر عنها أحمد حجازى، فإلى جانب «قسوة المدينة» و«الشعور بالمأساة» و«الفراغ النفسى» نجد أن «الحنين إلى الريف» يتردد فى عدد غير قليل من قصائده، و«الحنين إلى الريف» ليس إلا مظهرا من مظاهر القلق والضيق بالمدينة، وليس إلا تعبيرا عما يلقاه فى هذه المدينة من عقبات تقف فى وجه رغبته العارمة فى الحياة، ففى المدينة حيث التشتت والقلق والوحدة والانفراد وتمزق العلاقات الإنسانية وقسوتها فى الحب والصداقة وعلاقة العمل ... فى المدينة حيث هذا كله يحن «ابن الريف» إلى الحياة الوادعة الطيبة الضيقة المنسجمة مع بعضها البعض فى معظم القضايا والعلاقات... ولقد يكون هذا الاسم الموجود فى حياة الريف انسجاما سلبيا معتمدا على عناصر من الوهم والخرافة وبطء الحياة، ولكنه على أى حال يمثل شيئا بالنسبة لشاعرنا.. شيئاً يفتقده فلا يجده.. شيئاً يحن إليه فلا يعثر عليه... والحنين إلى الريف هو شعور شائع لدى الفنانين الذين يعبرون عن القلق والضيق بالحضارة العصرية فالشاعر الإنجليزى الأمريكى العالمى «ت . س.إليوت» يعبر فى شعره كثيرا عن الحنين إلى العالم الزراعى بل والحنين إلى عالم العصور الوسطى حيث لا صناعة ولا ضجيج ولا «رجال جوف»... بل انسجام وهدوء وطبيعة إنسانية متصلة بالمظاهر الكونية المختلفة... وليست العلاقة بين شاعرنا وبين إليوت هى علاقة تشابه كامل فى هذا الميدان، ولكنه تشابه له حدوده .. فالحنين إلى الريف عند إليوت ناتج عن الضيق بالمدينة، وحضارة المدينة الصناعية الآلية، وهذه الفكرة هى جزء من فكرة شاملة تكاد تشبه النظرية، تلك هى: الدعوة إلى حضارة الزراعة... حضارة القرون الوسطى، والدعوة إلى التخلى عن الحضارة الصناعية المقلقلة... ولكن شاعرنا أحمد حجازى لا يتبنى وجهة النظر تلك، وإنما يعبر فقط عن تجربته فى المدينة... إنه قلق فى هذه المدينة الواسعة الممزقة.. وهو بدافع من هذا القلق يحن إلى الهدوء والدعة والاستقرار فى رحاب الريف كما يفعل إليوت. على أنه لم يتبين قط وجهة نظر إليوت فى الدعوة إلى نبذ الحضارة الصناعية، وما يتصل بهذه الدعوة من إيمان دينى، ودعوة إلى سيادة هذا الإيمان

على العقل والروح والحياة المادية كما يفعل إليوت... فشاعرنا يذكر الريف لأنه منبعه، ولأنه مأمنه، ولأنه الدنيا الخالية من أكثر ما لقيه بعد ذلك من هموم وأحزان، ففى الوقت الذى يتعذر عليه إيجاد علاقة بينه وبين المدينة ، فإنه يجد هذه العلاقة قوية بينه وبين الريف ابتداء من قبر أبيه حتى داره الصغيرة التى يملكها هناك:

وأنا ابن ريف
ودعت أهلى وانتجعت هنا
لكن قبر أبى بقريتنا هناك يحفه الصبار
وهناك مازالت لنا فى الأفق دار

ويشيع هذا الحنين فى عدد من قصائده .. مثل «لمن نغنى» «حب فى الظلام» «رسالة إلى أبى» «سلة ليمون» .... إن هذا «الحنين إلى الريف» هو نتيجة للقلق الذى يشعر به، وتعبير عن حلمه بالاستقرار والحياة الوادعة، والريف رمز لهذا الحلم وتعبير عنه.

هذه هى المشكلة التى يعانيها حجازى وسائر أبناء جيله كما عبر عنها فى الصور الأربع ، التى عرضنا لها وهى :قسوة المدينة، والشعور العام بالمأساة، والفراغ النفسى، والحنين إلى الريف.

وأمام هذه المشكلة انقسم أبناء الجيل الذى ينتسب إليه شاعرنا إلى أنماط .. هناك - كما سبقت الإشارة - من لجأ إلى «العقيدة السياسية» يلتمس الحل... وهناك من لجأ إلى السلوك الانتهازى ، وهناك من لجأ إلى الانحلال والبحث عن المتعة الحسية، وهناك من لجأ إلى العزلة والانفصال والسلبية والتأمل.

فأى موقف اختار شاعرنا، وأى موقف يرسمه لنا خلال فنه؟

إن القراءة المتأنية لهذا الديوان تضع أيدينا على مبدأ أساسى يقدسه الشاعر ويندفع إليه ويملأ الإيمان به عروقه وخلاياه.. هذا المبدأ هو «حب الحياة» أو «الرغبة فى الحياة» ... فهو ليس شاعرا عدميا وليست أحزانه من ذلك النوع القاتم القاتل ... فوراء أحزانه وألوان حرمانه تشتعل الرغبة فى الحياة والحب لها والضيق بالعقبات التى تقف فى طريقها ، والواقع أن الشاعر لم يصل إلى حل نهائى واحد للمشكلة ، ولم يجد طريق الخلاص الأخير فيها، على أننا نستطيع أن نجد فى هذا الديوان بعض الملامح المعينة التى تصور طريق الخلاص التى اختارها الشاعر.. فى الحدود الضيقة التى وصل فيها إلى اليقين.

فشاعرنا يرفض منذ البدء ذلك «الإنسان الرومانسى» الذى يعيش فى عالم غامض خيالى، إنه يختار الحياة فى دنيا الصراع الواقعى الواضح. وفى محيط هذا الصراع توجد بعض الموانئ التى يستريح إليها حينا بعد حين، وفى هذا المحيط تظل مبررات القلق وأسبابه قائمة بعيداً عن تلك اللحظات، يجد فيها الشاعر مأمنا يستريح إليه.

فما هى الموانئ أو المرافئ التى يستريح إليها هذا الشاعر؟... إن أول مرفأ هو الفن، إنه يجد فى «التعبير» جانبا من جوانب الخلاص، فهو كثيرا ما يمجد «الكلمة»، و«الكلمة» تقوم هنا بالنسبة للشاعر بنفس الدور الذى تقوم به

«المأساة» على المسرح بالنسبة للمشاهد فى رأى أرسطو .. فعملية «التطهير» التى تتم عندما يشاهد الإنسان مأساة المسرح، هى نفسها التى تحدث للفنان بعد أن ينتهى من عمله الفنى. إن توتره وقلقه يذوبان فى عملية ضخمة واسعة النطاق، وهو من خلال هذه العملية يسمو بحالته النفسية إلى مستوى من الانسجام والتناسق لا يتوفر للنفس قبل عملية الإبداع الفنى نفسها... ففى ثلاث قصائد فى: «لمن نغنى» و«ميلاد الكلمات» و«دفاع عن الكلمة»... يظهر بوضوح إيمان الشاعر بالكلمة كوسيلة من وسائل الخلاص، وكمرفأ آمن تلجأ إليه النفس فى حالة قلقها واضطرابها وتعرضها للمشكلة التى يصرخ الديوان بالتعبير عنها... ومن الواضح أن «الفن» كوسيلة من وسائل الخلاص، وكمرفأ آمن تلجأ إليه النفس فى حالة قلقها واضطرابها وتعرضها للمشكلة التى يصرخ الديوان بالتعبير عنها... ومن الواضح أن «الفن» كوسيلة من وسائل الخلاص قد شاع بين أبناء الجيل الراهن، وعبر عنه أكثر من شاعر تعبيرا يتفق فى مدلوله ومغزاه، وإن اختلف فى أسلوبه الفنى... فقد كتبت نازك الملائكة قصيدة تعبر عن نفس الإحساس هى «أغنية حب للكلمات» وكتب صلاح عبد الصبور قصيدة يناجى بها فنه وكأنه فى معبد يقدس أحد الآلهة، هذه القصيدة هى «أغنية ولاء» وكذلك عبر عن نفس التجربة نزار قبانى فى قصيدة له هى «رسائل لم تكتب لها»...

يعبر أحمد حجازى بإخلاص عن إيمانه بـ «الكلمة» ويجردها دائماً من وظيفتها المؤقتة أو المترفة ، فـ«الكلمة» عنده صلة صادقة بالناس، إنها خيالية تماما من ثياب الاستعباد التى لبستها فى مراحل تاريخية طويلة:

لن يأخذنى الخوف
فأنا الأصغر لم أعرف بعد مصاحبة الأمراء
لم أتعلم خلق الندماء
لم أبع الكلمات بالذهب اللألاء
ما جردت السيف على أصحابى فرسان الكلمة
لم أخلع لقب الفارس يوما،
فوق أمير ابكم

إنه احتجاج على التاريخ الطويل الذى عاشته الكلمة «أسيرة» لبعض الضرورات الخارجية الزائفة... احتجاج على التراث الطويل الذى لم تعرف فيه الكلمة كيف تكون طليقة متحررة من القيود والسلاسل التى طالما أفسدت وظيفتها الإنسانية السامية.

وهو يؤمن بالكلمة عندما تجد صداها عند الآخرين، وعندما تؤدى قدرا من رسالتها فى قلوبهم وأفكارهم:

من أجل أن تتفجر الأرض الحزينة بالغضب
وتطل من جوف المآذن أغنيات كاللهب
وتضئ فى ليل القرى، ليل القرى كلماتنا



ولدت هنا كلماتنا
يا أيها الإنسان فى الريف البعيد
يا من يصم السمع عن كلماتنا
ادعوك أن تمشى على كلماتنا بالعين لو صادفتها
كيلا تموت على الورق
اسقط عليها قطرتين من العرق
كيلا تموت
فالصوت إن لم يلق أذنا ضاع فى صمت الأفق
ومشى على آثاره صوت الغراب

وهكذا فإنه إيمانه بـ «الكلمة» الحرة الطليقة هو وسيلة «لتطهير» نفسه مما فيها من قلق واضطراب وضيق، وكوسيلة لعلاقته بالناس الذين يحبهم ويرتبط معهم بأكثر من رباط، بعيدا عن تمزق المدينة وزيفها ... هذا الإيمان بالكلمة هو وسيلة خلاصة، وهو وسيلة عرفها ابناء هذا الجيل القلق، وعبر عنها عدد من فنانيه القادرين المبدعين وعلى رأسهم احمد حجازى.

ومن طرائق الخلاص التى لجأ إليها الشاعر عن إيمان: «العقيدة السياسية»... و«العقيدة السياسية» فى عصرنا تقوم مقام «الدين» فى العصور والأجيال السابقة، فقد ارتفعت العقيدة السياسية حتى أصبحت تصدر عن فلسفات كبرى تفسر الإنسان والمجتمع، وترسم الحلول المختلفة لما يعرض للعصر من مشكلات.. وقد أشرنا من قبل إلى أن العقيدة السياسية إلى جانب وظيفتها الموضوعية ودورها الإيجابى فى المرحلة الراهنة من تاريخ التطور الإنسانى، تمثل أيضاً حلا ذاتيا تلجأ إليه بعض النفوس بحثا عن الاستقرار والطمأنينة، وعندما يبدأ الإنسان مرحلة من مراحل الوعى، يرتبط هذا الوعى بنوع من الشك ومراجعة الأمور والبحث عن منطق للاقتناع الذاتى بما يعرض للعقل والشعور من مشكلات .. ولا يمكن للإنسان ان يستقر بعد أن يبدأ هذه المرحلة من الوعى دون أن يصل إلى فكرة منسجمة .. إلى نظرية شاملة تحدد له موقفا من عدد رئيسى من المشكلات ، وعندما يصل الإنسان إلى هذه الفكرة المنسجمة الشاملة يصبح أكثر استقرارا وطمأنينة من ذلك الذى لايزال يبحث عن عقيدة أو ذلك الذى يرتبط بعقيدة لا يطمئن إليها ولا يجد فيها ما يكفيه للاقتناع الكامل بها، وما يكفيه لتفسير ما يعرض له من أسئلة... ولقد لجأ كثيرون من أبناء جيل احمد حجازى إلى العقيدة السياسية بدرجات متفاوتة فهناك الذين تعصبوا لعقيدتهم وذابوا فيها تماما، لأنهم وجدوا فى هذه العقيدة آخر ملجأ لمشكلاتهم النفسية الكثيرة، ومنهم من أخذها بحكمة وحذر، ومنهم من ارتبط بها عن تردد وشك... وأحمد حجازى يبحث عن عقيدته منذ تفتح وعيه على رؤية الحياة، ولكن الاقتناع العقلى وحده لم يفسد رؤية الشاعر للأمور، وذلك مرض معروف من امراض ادبنا الجديد بشكل عام، فعدد من أصحاب العقائد السياسية لا

يكاد الواحد منهم يبصر الدنيا إلا بعين تلك العقيدة دون عمق أو إدراك بعيد.. والعقيدة السياسية ليست هى الحياة، بل هى وسيلة للحياة إنها «دليل للعمل» وليست «العمل نفسه» كما يقول المعلم العقائدى الكبير ماركس... إن أحمد حجازى يلمح دائماً الفرق بين العقيدة العقلية النظرية وبين الواقع الموجود...

والتفاوت بين «النظرية» و«الواقع» كان باستمرار منبعاً من منابع الفن عند شاعرنا الموهوب.

لقد استقر أحمد حجازى آخر الأمر على عقيدة سياسية معينة .. استقر عليها بعد تجربة وبحث طويل عن الطريق.. وهذه العقيدة ذات جانبين، أما الجانب الأول فهو الجانب الإنسانى العام... إنه محب للإنسان مؤمن به، يرمق بمشاعر حارة كل كفاح للإنسان فى سبيل التغلب على ما يعترضه من عقبات كثيرة، وهذا الشعور الإنسانى شائع تماما فى هذا الديوان لأن صاحبه يفهم عذاب الإنسان، ويفهمه بالتجربة العريضة المريرة التى عاشها بين الريف والمدينة قبل أن يفهمه عن طريق الأفكار النظرية العامة.

ولنسمع صوته العميق النبيل وهو يخاطب الإنسان الريفى الذى يصارع العذاب كل يوم... إنه يحدثه بكل ما يملك من حب للإنسان وهو فى معركة الحياة:

أين الطريق إلى فؤادك أيها المنفى فى صمت الحقول
لو أننى ناى بكفك تحت صفصافة
أوراقها فى الأفق مروحة،
خضراء هفهافة
لأخذت سمعك لحظة فى هذه الخلوة
وتلوث فى هذا السكون الشاعرى حكاية الدنيا
ومعارك الإنسان، والأحزان فى الدنيا
ونفضت كل النار، كل النار فى نفسك
وصنعت من نغمى كلاما واضحا كالشمس
عن حقلنا المفروش للأقدام
ومتى نقيم العرس
ونودع الآلام

وتظهر هذه النزعة الإنسانية التى تنبثق من ضرورة التغلب على الألم فى عدد كبير آخر من قصائده.. لعل أبرزها قصيدة «دفاع عن الكلمة»:

أنا فى صف المخلص من أى ديانة
يتعبد فى الجامع أو فى الشارع
فكلا الاثنين تعذبه الكلمة
والكلمة حمل وأمانة
أنا فى صف المخلص مهما أخطأ
فالكلمة بحر يركب سبعين مساء

حتى يعطى اللؤلؤ
أنا فى صف التائب مهما كان الذنب عظيما
فطريق الكلمة محفوف بالشهوات
والقابض فى هذا العصر على كلمته،
كالمسك بالجمرة

.... وهذه مجرد أمثلة، فالنزعة الإنسانية شائعة فى الديوان على صور مختلفة... وهذا هو الجانب العام فى عقيدة الشاعر، ولكن هناك جانبا آخر فى هذه العقيدة، جانبا يتضح فى بعض قصائد هذا الديوان.. وهذه القصائد هى على التحديد: «... قديسة، وسوريا والرياح، وصبى من بيروت، وعبد الناصر»: فهو مؤمن بالثورة العربية، مؤمن بأهدافها طامع إلى المساهمة فى مراحلها المختلفة، وهو يجد السكينة النفسية فى رحاب هذه العقيدة.

ولكنه هنا أيضاً، كما كان فى الماضى، لا يغفل عن الفارق بين العقيدة من الناحية النظرية وبين الواقع... إنه يرى الصدق، ولا يفتعل تفاؤلا فى واقع أسود ملئ بالتشاؤم، إن «التناقض» قائم وهو يراه ويعبر عنه.. فالعقيدة لم تحسم المشاكل القائمة فى الحياة الإنسانية والاجتماعية التى يعيشها ويمارسها باستمرار، فهو مع الناس يجد واجبا داخليا عميقا ينبع من الفهم والشعور يدعوه للإيمان بعقيدته تلك، إنها هى التى تدفع الإنسان فى بلاده إلى أمام.... ولكنه عندما يعود إلى نفسه يجد أمامه عديدا من المشاكل لم تغنه العقيدة عن عبئها المضنى ومرارتها الحادة، ذلك لأن العقيدة إذا كانت تملأ حياته العامة، وجانبا من حياته الخاصة، فإن منطقة غير ضئيلة من حياته الخاصة تظل عريانة من الحنان فلا تمتد إليها يد العقيدة بما يكفيها من احتياجات.. وربما كان ذلك لأن العقيدة لم تغير بعد حياة المجتمع بصورة نهائية حاسمة توحد بين السلوك والفكر، فينعدم بينهما هذا التناقض القائم فعلا... ففى قصيدة الأميرة والفتى الذى يكلم المساء، يرسم هذه الصورة الرائعة لحالته، وحالة العديدين من أبناء جيله حينما يخلصون مع أنفسهم ومع حياتهم.

.... وفى ليالى الخوف طالما رأيته يجول فى الطريق يستقبل الفارين من وجه الظلام
ويوقد الشموع من كلامه الوديع
ففى كلامه ضياء شمعة لا تنطفئ
ويترك اليدين تمشيان بالدعاء
على الرؤوس والوجوه
وتمسحان ما يسيل من دموع
«الصبح فى الطريق
يا أصدقائى إننى أراه
فلا تخافوا.. بعد عام يقبل الضياء.»
وعندما يمشون تمشى فوق خديه الدموع

ويفلت الكلام منه يفلت الكلام

«هل يقبل الضياء حقا بعد عام؟»

... تلك صورة رائعة من الحقيقة النفسية التى يعيش فيها صاحب العقيدة الذى يصدق مع نفسه ومع الناس، إنه لا يترك تلك العقيدة تحجب أمامه كل شىء، فلا تريه إلا لونا واحدا، وتصور له كل شىء بخير، وتنفى عنه القلق والاضطراب النفسى كأنه إله، كأنه ملاك... لكنه إنسان فى حقيقته، وشعره تعبير صادق عن رؤية صحيحة لحالات إنسانية واقعية.

إن رؤية أحمد حجازى للتناقض الذى مازال قائما بين العقيدة بما فيها من انسجام وتكامل، والواقع بما فيه من نقص وقصور، إن رؤية شاعرنا لهذا التناقض هو دليل رائع على أنه يرفع صدق التصوير وصدق الرؤية على اى معنى آخر.... وهو يعلم تماما أن «الصدق» هو الطريق الصحيح إلى بناء ما نطمح إليه... وليس أبدا «الوهم» وليس أبدا أن نتخيل أشياء نموذجية مثالية لا تؤدى فى نهاية الأمور إلا إلى شعور بالسطحية وعدم الصدق، فإذا كنا مثلا نقول بدعوة نظرية إلى تحرر المرأة فليس سليما أن نقول إن نجاح هذه الدعوة من الناحية النظرية يحتم نجاحها الكامل من الناحية الواقعية، حتى لو كذبتنا التجارب فى هذا القول فالحقيقة فى هذا الميدان أن المرأة لم تتحرر تحررا كاملا، ولاتزال المرأة فى مجتمعنا العربى تحمل قيودها فى داخل شخصيتها بشكل يعكس هذه القيود على سلوكها، إن تحرر المرأة عندنا لم يتم وهذه حقيقة لا يجوز إنكارها.. والاعتراف بها هو الطريق الصحيح.. وكذلك الأمر بالنسبة لقضايانا الكبرى مثل الاشتراكية والقومية العربية.

إن أحمد حجازى قد وصل إلى مرفأين هما: الفن، والعقيدة السياسية الإنسانية... وقد وجد فيهما بعض الحل للمشكلة التى تعرض له وتعرض لأبناء جيله.. على أن هذين المرفأين لم يحسما كل شىء ولم يمنحا الأمن والسلام والطمأنينة لقلبه، ولذلك فمازالت فى شعره علامات استفهام، ومازالت فيه تجارب قلق، وصرخات الذى لم يذق طعم الهدوء ولا الاستقرار، والتعبير عن القلق فى شعر حجازى تعبير سليم، إنه صورة لما تعانيه نفسية الجيل العربى الجديد.

على أن أحمد حجازى واضح فى قلقه يعرف جذوره، وصوره الحقيقية... وهذا الوضوح فى ذاته هو طريقة من طرق الخلاص التى يشير إليها الشاعر، فهو عندما يتحدث عن قسوة المدينة وتمزق العلاقات البشرية فيها، وضيعة الإنسان ووحدته وغربته، ثم ذلك العجز القاسى عن تحقيق الوجود العاطفى للإنسان، والعقبات التى تقف فى طريق الرغبة الطبيعية السليمة فى الحياة.. كل هذه الأشياء الواضحة التى تسبب حزنه وقلقه وتمثل مأساته ومأساة جيله تشير بنفسها إلى طريق الخلاص وترسم السبيل إلى مجتمع سليم... ما هو هذا المجتمع على التحديد؟ إنه المجتمع الذى يخلو من كل تلك الأشياء التى يضج بالشكوى منها وجدانه وشعوره وتنعكس على شعره بصورة فنية كاملة عميقة، ومن هذا كله نعرف الطريق الذى اختاره أحمد

حجازى للتغلب على المشكلة الكبرى التى تقف أمامه.

هذا هو شاعرنا فى المشاكل التى يعبر عنها والقضايا التى تملأ حياته وتشغل ذهنه.. وتستطيع ان تقول عن هذه المشاكل وعن تلك القضايا إنها صورة صادقة من العصر الذى يعيشه، إنها حكاية شاعر إنسان، ولكنها فى نفس الوقت، وبنفس الدرجة من القوة والصدق تحكى حكايتنا كلنا، نحن أبناء الجيل العربى الجديد، إننا نرى فى هذا الديوان أنفسنا، نرى فى مستقبلنا، نرى فيه تلك العقبات التى تسد طريقنا وترفع علامة حمراء كلما أردنا أن نتقدم خطوة إلى أمام، وسيظل هذا الديوان وثيقة من وثائق العصر تدل عليه، وترسم خطوطه العميقة الكبيرة، ولا تنسى من ملامحه الحقيقية خطأ هنا أو هناك.. إنه وثيقة نادرة، وثيقة من تلك الوثائق القليلة التى لا تتكرر بكثرة.. وباستثناء ديوان «الناس فى بلادى» لصلاح عبد الصبور لم يظهر فى مصر عمل شعرى على جانب كبير من الخطر والأهمية فى تصوير جيلنا وعصرنا مثل «مدينة بلا قلب»، ولاشك أن هذه الحقيقة تضمن لهذا الديوان بقاء طويلا وتقدمه إلى التاريخ عملا من تلك الأعمال الكبرى التى لا تمثل شيئاً كبيراً فى الأدب وحسب وإنما فى الحياة أيضاً.

على أن هذا الشاعر الثائر فى أفكاره وآرائه، والذى يحمل صورة دقيقة لملامح عصرنا وجيلنا.. لا يقف بثورته عند الحدود الموضوعية الفكرية وجيلنا.. لا يقف بثورته عند الحدود الموضوعية الفكرية، بل هو أيضاً صاحب ثورة فى ميدان الفن، أو هو واحد من الرواد الثائرين فى هذا الميدان. فما هو ثورة شاعرنا فى ميدان الفن؟

إن أحمد حجازى واحد من أبناء المدرسة الحديثة فى الشعر.. إنه ليس مبتكر هذه الطريقة الفنية الجديدة فهذه الطريقة فى حقيقتها هى أسلوب صنعه كفاح أكثر من جيل واحد، حيث كان الجميع يبحثون عن أسلم طرائق الأداء الفنى للتعبير عما فى نفوسهم من أشياء جديدة لم يعد يحتملها الشكل الفنى القديم للقصيدة العربية.. ولقد كانت النتيجة الأخيرة التى وصل إليها شعرنا العربى المعاصر اليوم هى ثمرة محاولات متعددة اشترك فيها عدد كبير من شعرائنا وأدبائنا.. اشترك فيها: لويس عوض، وبدر شاكر السياب، ونازك الملائكة، على أحمد باكثير، وعبد الوهاب البياتى... وبعد ذلك لمع فى ميدان الشعر الجديد عدد من شعرائنا وكان من ألمع هؤلاء جميعاً شاعران من مصر هما: صلاح عبد الصبور وأحمد حجازى.

والحق أن معركة الشعر الجديد لم تستقر بعد تمام الاستقرار، فمازال هناك آراء متضاربة حول هذه القضية.. ومازال هناك نقاد يتساءلون: هل يستقر هذا الشعر على شكله الأخير. أم أنه من الضرورى أن يعود شعرنا إلى شكله التقليدى القديم؟ ونحن نستطيع أن نقول فى هذا الميدان إن الشكل الجديد من الشعر قد بدأ مرحلة استقرار تؤكد أنه صالح للبقاء.. ولذلك فإنه سوف يبقى.. على أن الشىء الذى لم يكن واضحا من قبل هو مدى صلاحية الشكل القديم للبقاء فى ميدان الفن الشعرى.. وأظن أن الأمر أصبح واضحا اليوم بالصورة التالية: فالشكل الجديد للشعر ضرورى وأساسى، وهذا الشكل سيصبح الشكل الرئيسى للشعر العربى خلال مدة طويلة لما فيه

من عناصر تجعله أكثر استيعابا لروح عصرنا من الشكل القديم على أن الفكرة التى كانت ترى أن الشكل الجديد معناه القضاء المطلق على الشكل القديم الشعرى... هذه الفكرة لم تعد صحيحة ولا صائبة، إن الشكل الجديد لا يمنع بقاء الشكل القديم، بل إننا نجد أن القصيدة الجديدة تلجأ أحيانا إلى الاستعانة فى بنائها بالشكل القديم كما حدث فى قصيدة «بغداد والموت» المنشورة فى هذا الديوان، ففى هذه القصيدة يستخدم أحمد حجازى الشكل القديم عندما ينتقل من مرحلة التصوير إلى مرحلة الغناء ... إنه يلجأ إلى الشكل التقليدى ليغنى.. فالغناء يتطلب نفسا طويلا، وهذا النفس الطويل يتوفر بصورة رائعة فى الشكل التقليدى الذى يحتفظ بوحدة البيت، ووحدة الإيقاع ويعبر عن أفكاره مباشرة.. ونستطيع أن نشير إلى شاعر عربى معاصر هو يوسف الخطيب ، الذى يستخدم الشكل القديم فى معظم قصائده، إلا انه مع ذلك يصل فيه إلى مستويات رائعة من التعبير الشعرى مثل قصيدته المعروفة «أغان من فلسطين» ... إذن فالشكل الجديد هو الشكل الرئيسى للشعر، ولكنه لا ينفى وجود الشكل القديم، ولا ينفى استخدام هذا الشكل فى بناء القصيدة نفسها ولا أظن، كما تصور بعض النقاد ، إن الشاعر العربى سوف يرتد إلى الشكل القديم بصورة نهائية فى المستقبل.

على أن أحمد حجازى يعتبر نصرا كبيرا للشكل الجديد فى الشعر حيث هو فى هذا الديوان يتخلص من أكثر العيوب التى أخذت على الشعر الجديد، ويثبت أن الشعر الجديد نفسه غير مسئول عن هذه العيوب وأن العيب فى الشاعر لا فى الشكل الفنى.. فهذا الشكل الفنى عندما يتاح له شاعر موهوب، فإن عيوبه تختفى أو تكاد.. وهذا هو ما حدث مع أحمد حجازى.

أبرز عنصر فى هذا الديوان هو عنصر التشخيص أو ما يسمى فى المصطلحات النقدية بالعنصر «الدرامى»، وهذا العنصر الفنى يعطى القصيدة العربية أبعادا جديدة، ويجعل منها كائنا فنيا أكثر صحة وسلامة وعمقا وتوهجا.. وهذا العنصر لم يكن فى الإمكان أن يظهر عن طريق وتوهجا.. وهذا العنصر لم يكن فى الإمكان أن يظهر عن طريق القصيدة العربية القديمة، وهى فى مجملها شكل فنى بدائى محدود الطاقة والأبعاد.. والتشخيص هو نفسه ما يسميه الأستاذ الناقد محمود العالم بالتعبير بالصور.. ففى هذا الديوان نجد أن الشاعر لا يلجأ إلى التعبير المباشر عن تجاربه وانفعالاته، وذلك ما كان يفعله الشاعر العربى القديم، هنا نجد أن الصورة الإنسانية المتكاملة هى التى تعبر عن تجارب الشاعر وانفعالاته المختلفة، ولو راجعنا معظم قصائد هذا الديوان لاستطعنا أن نخرج منها بمجموعة من الشخصيات التى تحمل كل شخصية منها دلالة ما، وتشترك هذه الشخصيات فى النهاية لتخرج الدلالة العامة للديوان... فالشخصية النفسية والعقلية بل والشكلية أيضاً لإنسان العام السادس عشر مرسومة بدقة ووضوح فى قصيدة «العام السادس عشر» وشخصية الإنسان الذى يشكو الوحدة والضياع ويرغب فى الحياة ويصرخ لأن أمام طريقه عديدا من العقبات، هذه الصورة مرسومة بعمق وأصالة فى قصيدة «كان لى قلب».. وفى قصيدة الأميرة والفتى الذى يكلم المساء،

شخصيات إنسانية تتحرك، لكل منها ملامحه الخاصة وطبيعته النفسية والفكرية وبين هذه الشخصيات يدور صراع له مدلوله ومغزاه... فالأميرة هى الفتاة المثقفة التى تدخل الحياة العامة دون أن تتطور نفسيتها مع مبادئ هذه الحياة تطورا حقيقيا وإنما تقف شخصيتها عند حدود التطور الشكل الخارجى، والفتى الذى يكلم المساء هو مثال للشباب الذى يريد أن يساهم بدور فى بناء الحياة، وهو يلتمس هذه المساهمة عن طريق العقيدة التى تبهره وتغريه، وهو يعامل الناس حسب مقاييس تلك العقيدة ويبنى حبه وصداقته على هذا الأساس ولكنه يصدم خلال اختياره الواقعى للناس، بـ «الأميرة» التى تظاهرت بحب الاشتراكية عندما قالت:

قلبى على طفل بجانب الجدار

لا يملك الرغيف

هذه الأميرة لا تحب شيئاً من هذه الأفكار ولا تؤمن بها، إنما هى زينة العصر وحسب... وعندما يحبها الفتى يفشل فى حبه بالطبع.. ويمضى الصراع على هذا المستوى... إنه ليس صراعا نفسيا غامضا... بل هو صراع نفسى دقيق واضح، وهو صراع نماذج بشرية وليس صراع أفكار تجريدية ... ولو تناول الشاعر العربى القديم تجربة هذه القصيدة لاكتفى بأن ينظم هذا المعنى:

«لقد رأيتك فأعجبنى حديثك وشخصيتك اللذان أضافا إلى جمالك لونا باهرا، فلما تقدمت إليك بعواطفى، تبينت أنك إنسانة غير صادقة فيما تدعين وأنك تتظاهرين.. وليس هناك شىء أبعد من ذلك».

لم يكن الشاعر القديم يستطيع أن يفعل أكثر من نظم هذا المعنى فى مجموعة من الأبيات المحدودة المباشرة.. ولكن شاعرنا الجديد يتخلص من هذا المستوى البدائى المحدود فى العمل الفنى، ويصل إلى مستوى أكثر عمقا وأكثر اتساعا، وفيه ينبض المعنى الإنسانى العام بجانب الملامح المتحددة المرسومة بدقة للناس الذين يعيشون فى عصرنا وللصراع الذى يدور فى هذا العصر.

وطريقة التشخيص أى خلق شخصيات فى مجال الفن الشعرى، وبتعبير آخر تقديم «صور» لا أفكار ... هذه الطريقة هى التى تميز شعرنا الجديد عن الشعر القديم تمييزا جوهريا، وهى نفسها التى تمنحه الميزة، والتفوق على الشعر القديم.. وهى إلى جانب ذلك كله التى تربط شعرنا العربى بالشعر الإنسانى العالمى فى أعلى صورة، فطريقة التشخيص هى النبع الصافى فى أرض الشعر.. وحسبنا أن نشير هنا إلى الشاعر العالمى الكبير «ت.س. إليوت» فمعظم شعر إليوت يقوم على التشخيص إذ إن قصائده تحتوى باستمرار على نماذج إنسانية تعبر عن تجارب الشاعر بطريقة إيحائية، وتشترك مع القصة فى بعض عناصر بنائها .. ولنذكر لهذا الشاعر الكبير قصيدته المعروفة «أغنية العاشقة. ألفريد بروفروك» وفى هذه القصيدة يتحدث «مستر بروفروك» عن نفسه وهو عجوز يتقدم إلى خطبة فتاة عصرية تغشى الصالونات وتجيدا الحديث السطحى.. وعلى ضوء هذه التجربة يبدأ العجوز فى اكتشاف عناصر النقص فى

ذاته، فهو ليس متكافئا مع هذه الفتاة.. هى صغيرة تضج بالصبا والحياة، وهو عجوز جفت ينابيع الصبا والعواطف الحارة فى جسده ووجدانه، وهو أصلع تساقط شعره، ولم يبق منه سوى شعيرات بيضاء.. وهو يلبس زيا رائعا ولكنه متهدم الأعضاء ذراعاه عجفاوان ، وساقاه ضامرتان.. ومن هنا فإنه يتردد أشد التردد فى الاستمرار فى خطبة الفتاة كيف أجرؤ على إزعاج الكون؟ فلا أخل لنفسى دقيقة لأتدبر، ففى الدقيقة متسع للعزم وللعدول، وللعدول عن العدول...

وتمتلئ نفسه بالتردد والقلق وهو فى تجربته المريرة تلك .

وتستطيع أن تفسر قصيدة إليوت أكثر من تفسير، على أن أقرب التفسيرات هى أن الفتاة رمز للحياة العصرية المتفتحة الخالية من العمق والعاشق هو المفكر الذى يشيخ ويذبل ويصطدم بعجزه الذاتى وضعفه أمام إغراء الحياة وما فيها من دعاء ونداء، وهذا العاشق قد يكون إليوت نفسه، وقد يكون كل رجال الفكر والعقل فى نظر إليوت.

لم يعبر إليوت عن تجربته تعبيرا مباشرا، ولم يقل كما قال شاعرنا العربى:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

بل لقد صور القلق والتردد وعجز الفكر والثقافة بخلق تلك الشخصيات التى تعبر عن نفسها بقوة.. شخصية الفتاة الجميلة المغرية التى تكثر من الحديث السطحى عن «ميكل أنجلو، وغير ذلك من الموضوعات والشيخ الذابل يظهر بأحسن مظهر ولكنه فى حقيقته يحس بدبيب العدم والعجز، وهو من هنا يحس بالتردد والقلق، هل يتقدم إلى خطبة الفتاة أى هل يقبل على الحياة؟ أم يعدل عن ذلك.. اى ينعزل؟

هذا هو الأسلوب الفنى الذى يظهر فى «مدينة بلا قلب» .. وتستطيع أن تجده واضحا فى كل قصيدة من قصائد الديوان مليئا بنماذج إنسانية ترمز وتعبر وتكشف عن الصراع الذى تدور فيه وتعيشه وهذه النماذج الإنسانية يلتقطها الفنان من واقع الحياة لتدل على رؤيته لهذا الواقع وأفكاره عنه.

وطريقة «التشخيص» هذه هى التى تفرض وتبرز الشكل الجديد للشعر.. لم يعد الشعر كما كان فى الشكل القديم للقصيدة مجموعة من الخواطر المناسبة ، لم يعد مجرد تداعى معان... إذ كان الشاعر القديم يستطرد حسبما شاءت خواطره من غزل إلى وصف للأطلال إلى مدح أو شكوى أو هجاء أو غير ذلك... كلا فإن شاعرنا الجديد مرتبط بضرورة تصوير شخصيات ومواقف وهذا التصوير يحتم عليه نوعا خاصا من البناء الفنى تتوفر له وحدة القصيدة لا وحدة البيت.... إن المعنى الذى يريد أن يقوله الشاعر لا ينتهى بانتهاء البيت، وإنما ينتهى بانتهاء القصيدة، والقصيدة أشبه بالقصة القصيرة، ولا يمكن أن نجزئ القصة القصيرة إلى أجزاء منفصلة، إنها وحدة منذ أن تبدأ حتى تنتهى. وكذلك القصيدة الجديدة، فأنت لا تستطيع أن تصل إلى المعنى العام من قصيدة العام السادس عشر دون أن تقرأها كاملة، إن حذفت جزءاً منها فإنك لن تعرف إطلاقا ماذا يريد الشاعر أن يقول فى الأجزاء الأخرى، إنها تقدم حياة الشاب فى

العام السادس عشر فى مراحل متتابعة ومواقف لكل منها دلالة خاصة لا تستغنى عنها اللوحة الشعرية الكاملة بحال من الأحوال.. ولتلاحظ أن التشابه بين القصة والقصيدة الجديدة ليس كاملا.. إن الشاعر الجديد لا يتصور كل تفاصيل لوحته، بل إنه ينتقى من الحياة المواقف الدالة والتى يمكن أن تنتقل إلى الشعر. أما هؤلاء الذين يصورون كل التفاصيل الصغيرة لواقع الحياة، بلا دلالة من ناحية، ولا تفكير فى التفرقة بين الموقف الشعرى، والموقف غير الشعرى... هؤلاء يفسدون الشعر الجديد ويسيئون فهمه تماما، فليست مهمة الشعر الجديد هى أن يصور كل شىء.. إن الصورة فى الشعر الجديد مهمة حقا، ولكن لنحذر التصوير الفوتوغرافى الذى لا يحمل رمزا ولا دلالة.. كما أن ذلك الشاعر الذى يستخدم الشكل الجديد ليعبر أيضاً عن خواطر غير مرتبطة بطريقة التداعى الحر للمعانى.. مثل هذا الشاعر يكون الشكل القديم أصلح لتجاربه وأنسب، إن الصورة الكاملة أساس جوهرى فى الشعر الجديد وبدونها يصبح الشكل نفسه لا ضرورة له ولا مبرر، فتداعى المعانى، وتعدد الموضوع فى القصيدة الواحدة كما هو شائع فى القصيدة القديمة... هذان العنصران لا يصلح لهما إلا وحدة النغم وانتظامه كما هو الأمر فى الشعر القديم الذى يشترط وحدة القافية واكتمال البيت الشعرى.

وقبل أن ننتقل من الحديث عن التشخيص نود أن نشير إلى أن أحمد حجازى كان فى بعض قصائده يلجأ إلى الصور الجزئية ليعبر بها عن فكرة فى داخل القصيدة، وهذه الجزئية رائعة ناضجة، وهى تؤكد من جانب آخر أن ضرورة اعتماد القصيدة على صورة كلية شاملة، لا ينفى جمال الصور الجزئية التى ترد فى البيت الواحد أو المقطع ، وتعتمد على التشبيه أو الاستعارة .. فعندما يقول الشاعر:

....

ولدت كلماتنا
ولدت هنا فى الليل يا عود الذرة
يا نجمة مسجونة فى خيط ماء
يا ثدى أم لم يعد فيه لبن
يا أيها الطفل الذى مازال عند العاشرة
لكن عينيه تجولتا كثيرا فى الزمن

هذه الصور الجزئية المتتالية لها روعتها وجمالها ومن حقنا أن نستمتع بها كمصور فنية رائعة لا يمكن للشعر أن يستغنى عنها بحجة أنه يهدف إلى التعبير عن صورة أعم وأشمل، فالصور الجزئية لا تتنافى أبدا مع عملية التشخيص التى يقوم على أساسها بناء القصيدة الجديدة.. فالصور الجزئية هى لبنات تقيم البناء الكبير للقصيدة كلها، وكلما كانت هذه اللبنات رائعة حلوة أصيلة، ازداد البناء الكبير أصالة وروعة... ونحن لا نملك إلا أن نهتز أمام هذه الصورة: «يا نجمة مسجونة فى خيط ماء» كما كان يهتز القدماء تماما أمام الصور والتشبيهات التى تعرض لهم، ففى هذه الصورة العذبة الجميلة يريد الشاعر أن يقول لنا إن «ليل الريف ساكن هادئ عامر



بالصفاء.. حتى إن النجمة فى السماء تنعكس صورتها على الماء فى لأرض ولكن أى ماء؟..... إنه خيط ماء.... ربما كان قناة أو جدولا صغيراً لا عنف فيه ولا اندفاع.. على أن هذه النجمة «مسجونة» فى خيط الماء ذاك... وهذا معناه أن الوقت بطئ.. وأن النجوم لا تتحرك بسهولة.. إن انعكاس صورتها على الماء بدون حركة سريعة منها.. يعنى أنها أصبحت سجينة هذا الخيط الهادئ الساحر.

وعندما يقول الشاعر لنا: «يا ثدى أم لم يعد فيه لبن»... فإن عالما من الحرمان والضيق والمأساة ينفتح أمام عيوننا ومشاعرنا.. وعندما يقول «يا أيها الطفل الذى مازال عند العاشرة... لكن عينيه تجولتا كثيرا فى الزمن» لا نملك إلا أن نهتز بكل عواطفنا أمام روعة الصورة وأصالتها.. هنا عظمة التجربة فى الريف وعراقتها، فالناس فى الريف يعيشون فى صلة مشتركة مع الكون ويطيلون التأمل فى ظواهر الحياة... إنهم على صلة «شخصية ذاتية» مع دوابهم وهم على صلة شخصية ذاتية مع الشجر والزرعة والماء... مع الطبيعة.. والدنيا أمامهم لا سرعة فيها إنما تفاصيل هادئة بطيئة، وهكذا فإن ابن العاشرة فى الريف يبدو عليه كبر التجربة وعمق المعاشرة لظواهر الكون، وذلك الإحساس الغائر بالزمن.. ذلك هو الريف الحقيقى، وتلك هى دنياه كما ينقلها لنا الشاعر فى صوره الجزئية تلك.

إن بلاغتنا العصرية لا تهدم بلاغة القدماء، إنما تأخذها كما هى ثم تطورها وتعمل على امتدادها ونموها ولذلك فإن طريقتهم فى النظر إلى الشعر ليست خاطئة وإنما هى طريقة ناقصة..

وبالرغم من أن الإحساس قد تغير فى بناء القصيدة الشعرية، وفى النظر إليها فإننا سنظل ننظر إلى الأمور أحيانا بنفس النظرة القديمة ونعترف ببعض ما وصلوا إليه.. ولذلك فنحن مثلهم نعجب بالصورة الجزئية فى الشعر، مثل الصور التى أشرنا إليها ونحتاج إلى وجودها ولكننا لا نستطيع أن نقف عند حدودها وحسب... ومثل هذه الصور موجودة بكثرة فى هذا الديوان.

وإذا كان ابرز ما فى «التشخيص» هو خلق نماذج إنسانية ومواقف نفسية داخل القصيدة.. فإن عنصر «الحوار» يظهر هو الآخر واضحا فى بناء القصيدة الجديدة، ووضوح هذا العنصر يدعم خروج القصيدة الجديدة من الأفكار المجردة العامة، إلى التجارب التى تتجسد فى شخصيات ونماذج، وتستلزم وحدة فى بناء القصيدة كلها لا فى البيت وحسب، ولا يوجد الحوار بمعناه الكامل فى القصيدة العربية القديمة، بل هو موجود بصورة بدائية محدودة، ولكنه فى القصيدة الجديدة يمثل عنصرا واضحا من بنائها الفنى، وفى قصائد: «الأميرة والفتى الذى يكلم المساء» و«مذبحة القلعة» و«حلم ليلة فارغة» و«الطريق إلى السيدة» يظهر هذا العنصر بوضوح ليدعم وسيلة الأداء الفنى التى اختارها الشاعر، وأصبحت من أبرز ما يميز الشعر الجديد وهى طريقة التشخيص أو التعبير بالصور. وهناك إلى جانب الحوار الذى يدور بين شخصين، حوار ذاتى هو ما يسمى بالمونولوج الداخلى، وهذا الحوار الذاتى شائع فى عدد آخر من قصائد الديوان مثل «العام السادس عشر» و«مذبحة القلعة»، وهذا الحوار يميز الشعر الجديد،



وهو شائع أيضاً فى النماذج المشابهة له فى الشعر العالمى، مثل القصيدة التى أشرنا إليها والتى كتبها «ت.س.اليوت»... فالعاشق، فى قصيدة أغنية بروفروك كثيرا ما يتحدث إلى نفسه مستبطنا مشاعرها مقترحا عليها ناقدا لها.. إلى غير ذلك من المواقف التى تحدث عادة عندما تنقسم النفس على ذاتها فى حوار داخلى عنيف، والحق أن هذا النوع من «الحوار» وهو المونولوج الداخلى لم يعرفه الشعر العربى، لأن الشعر العربى كان يعنى بـ «الخواطر» والخواطر عادة ما تكون متسقة منسجمة وذات اتجاه واحد، فهى إما حزينة وإما فرحة... وهكذا، أما المونولوج الداخلى فيولد مع الأنقسام النفسى... مع حالة القلق والاضطراب، وغموض الأمور وعدم تحددها أمام عين الإنسان حيث يتجاذب نفسه أمران أو أكثر.

ومن الأشياء التى تؤخذ على الشعر الجديد عادة أنه أقرب إلى النثر منه إلى الشعر بسبب ضعف موسيقاه فمعظم قصائد الشعر الجديد تكتب فى بحر شعرى واحد هو بحر الرجز وهذا البحر معروف عند العرب بأنه أقرب البحور الشعرية إلى النثر وقد يجئ الكلام على وزن الرجز دون عمد أو قصد بل يكون وزنه عفوا وبمحض المصادفة. وقد كان الرجز فى الجاهلية هوالبحر الذى ينظمون عليه أشعارا كانوا ينظرون إليها على انها نوع من الأدب الشعبى غير جدير بالتسجيل.. ذلك أن الرجز كما يقول أحد علماء العروض العربى كان فنا مستقلا من فنون القول، فالناس فى لهوهم وعبثهم ، فى أسواقهم وبيعهم وشرائهم، فى بعض اغانيهم وغزلهم، فى دعابتهم وفكاهتهم فى القصص والحكايات، فى كل ما يعرض لهم من شئون فى حياتهم العادية التى تخلو من الجد والجلال كانوا يعمدون إلى الرجز فيروحون به عن أنفسهم ويعبرون به عما يمكن أن يجيش فى متناولهم جميعا: العامة منهم والخاصة... فهذه الوظيفة القديمة للرجز توضح تماما أن العرب كانوا ينظرون إلى هذا البحر على أنه قريب جدا من النثر.. والاتهام الذى يوجه إلى الشعر الجديد هو فى نفس الوقت غاية من غايات هذا الشعر وهدف من أهدافه، فالشعر الجديد يقوم على أساس من التعبير عن وظيفة اجتماعية جديدة وقد دفعته هذه الوظيفة الاجتماعية إلى البحث عن قالب أكثر عمقا واتساعا ودفعته إلى أن يتخلص من بعض الخصائص الظاهرة فى القصيدة، ومن هذه الخصائص: النغم الخارجى الواضح... فالقارئ للشعر العربى القديم كثيرا ما ينشغل بما فيه من موسيقى صاخبة عن معانيه الداخلية، والشعر الذى كانت وظيفته فى الماضى هى التأثير فى الناس عن طريق الإلقاء أصبحت وظيفته أن يؤثر فى الناس عن طريق القراءة، ويحتاج الإلقاء إلى الطابع الخطابى، وتحتاج القراءة إلى «الهمس».. إلى «الإيحاء»، إن النغم لم يعد الشغل الشاغل للشاعر الجديد، بل هناك التجربة التى يعبر عنها، وهناك الصورة التى يرسمها، والبناء الفنى الذى يصممه لقصيدته، كل هذا شىء جديد على الشعر يحتم التخلص من النغم الصارخ العنيف الواضح.. وقد اتجه الشعر الجديد وهذا الديوان من أهم نماذجه الفنية إلى طريقة «التشخيص» للتعبير عن التجارب المختلفة، وقد خلقت هذه الطريقة فى القصيدة طابعا قريبا من طابع القصة، ويحتاج مثل هذا

الطابع إلى التخلص من النغم الصاخب، والاهتمام بالنغم الهادئ اليسير الذى يصلح لرواية شىء ما... وهذا هو الذى دفع الشاعر الجديد إلى اختيار الرجز وتغليبه على غيره من البحور الشعرية، والرجز هنا يقوم بالدور الذى رفض القدماء للشعر ان يقوم بالدور الذى رفض القدماء للشعر أن يقوم به وهو التعبير عن تجارب الحياة اليومية، لا عن التجارب العامة مثل الحرب والفخر وما إلى ذلك من تجارب فى الحياة العربية فى مجتمع القبيلة.

والشاعر الجديد يقول تماماً كما قال الشاعر الإنجليزى المعروف «بيتس»: لقد كنا نريد التخلص لا من مقاييس البلاغة وحدها فحسب، بل من العبارة الشعرية أيضاً، لذلك حاولنا إن نخلع كل ما يتسم بالتكلف وأن نختار أسلوبا أقرب إلى الكلام بسيطا كأبسط أنواع النثر، كأنه صيحة تخرج من القلب... هذا هو بالضبط ما يريده شاعرنا الجديد، وهذا ما ألجأه إلى الرجز، وهو البحر الشبيه فى الشعر الإنجليزى ببحر «الايامب» ذلك البحر المستخدم كثيرا عند الإنجليز، ولا يمكن التعبير عن القصة الشعرية فى الأدب الإنجليزى إلا عن طريق هذا البحر المشابه لبحر الرجز.

وشاعرنا يستخدم بحر «الرجز» فى أكثر من ثلاثة أرباع قصائد هذا الديوان، أما القصائد الأخرى فموزعه بين عدد من البحور المختلفة، والأساس الذى دفع بشاعرنا وبغيره من شعراء الجيل الجديد إلى اختيار هذا البحر هو تبسيط العبارة، والتخلص من النغم الخارجى العنيف الحاد حتى تتاح فرصة للعناصر الأخرى فى القصيدة ان تبرز بوضوح فى جو من الهدوء الذى تتميز فيه الأشياء، لا فى جو من الضجيج الذى يخفى التفاصيل والجزئيات. ومع ذلك كله فإن أحمد حجازى يعتبر من أكثر الشعراء الجدد تنويعا فى أنغام بحوره، فعدد كبير من الشعراء يقفون بشكل واضح ملموس عند حدود نغمة لا يتعدونها أبداً... ولكننا نجد فى هذا الديوان عددا من القصائد المهمة الرائعة والتى تعتبر من أجمل قصائد الشعر الجديد على الإطلاق قد كتبت فى بحور غير الرجز مثل العام السادس عشر «رمل» وكان لى قلب «هزج» ولمن نغنى «كامل».

ونحن نعتقد ان شاعرنا سوف يتوسع مستقبلا فى استخدام البحور الأخرى فى الشعر، ففى شعره بذور نزعة «خطابية» جديدة، سبب هذه النزعة هو ارتباطه فى بعض مواقفه الفنية بالتعبير عن قضايا عامة تتصل اتصالا مباشرا بالجماهير، بل إن أحمد حجازى من أكثر شعراء الجيل الجديد الذين يتصلون بالجمهور ويقومون بـ «إلقاء» شعرهم فى جماعات فقد رصد جزءا من شعره للتعبير عن قضية يؤمن بها أشد الإيمان ويشترك فى الإيمان بها مع عدد كبير من الناس، ولذلك فهو يستخدم النداءات أحيانا، ويستخدم الشعارات أحيانا أخرى، ولكنه استخدام مقبول لأنه ينبع من حاجة نفسية أصيلة للاتصال بالجمهور، وللتعبير عن الفكرة التى يؤمن بها، ويبنى عليها مجموعة من الأحلام فى دنيا الغد، بل وفى دنيا الحاضر أيضاً، وهذا الموقف يتكرر فى العهد الحديث لدى عدد من الشعراء الذين يعبرون عن قضايا عامة مشتركة، مثل «كبلنج» الشاعر الاستعمارى الذى كان يستثير النزعة القومية المعتدية عند الإنجليز،

وكانت أفكاره بالقياس إلينا أفكارا استعمارية وعدوانية، ولكن طريقة الأداء الفنى عنده كانت متفوقة جميلة.. ومثل ناظم حكمت الشاعر التركى الإنسانى، والذى يكثر من مخاطبة الناس حول قضية عامة، ومثل النشيد الإنسانى الخالد المعروف بـ «المارسليين» للشاعر الفرنسى، فهو من الناحية الفنية مكتمل رغم نزعته الخطابية... وكذلك فى شعر «والت ويتمان» الشاعر الأمريكى الديمقراطى الكبير. وسوف نجد هذه النزعة عند أحمد حجازى فى قصيدة طويلة رائعة لم تنشر بعد هى قصيدة «أوراس»(*) كما أنها تبرز فى بعض أجزاء قصيدة «بغداد والموت» و«سورية والرياح» وبعض القصائد الأخرى المشابهة، والنزعة الخطابية هنا وبهذا المعنى ليست نزعة مكروهة أو مرفوضة، إنها لا تضر بالبناء الجديد للقصيدة، إذا كان الشاعر قويا قادرا مؤمنا بما يعبر عنه، ولا تفرض العودة إلى الشكل القديم بما فيه من بدائية وقصور... كلا فهى نزعة جديدة، تمليها حاجة من حاجات العصر، إذ يعود الشاعر إلى الاتصال بالجمهور اتصالا مباشرا ولكنه لا يفقد نفسه وسط هذا الجمهور، ولا يفقد مواهبه، ولا يفرض على ذاته مشاعر لم تنبع بصدق من هذه الذات... إنها «خطابية» جديدة تختلف عن الطابع الخطابى القديم للقصيدة العربية.

وبعد هذه الرحلة الطويلة فى ديوان «مدينة بلا قلب» نترك هذا الديوان للقارئ والتاريخ.. لقد قال أحد المفكرين ذات مرة «إن الكتب هى، بعد الناس، أهم شىء فى العالم»..

وتلك فكرة صحيحة صائبة، فالعمل العظيم فى ميدان الفكر أو الفن يحمل بين سطوره أهم ما فى الشخصية الإنسانية من عناصر، سواء أكانت هذه الشخصية هى شخصية فرد أم شخصية جماعة.. أم شخصية كردية تدل على مجموعة كبيرة ولا تقتصر على دلالتها الذاتية.. وفى أوائل هذا القرن قال الزعيم الاشتراكى الكبير لينين: «لقد عرفت عن فرنسا من خلال روايات بلزاك أكثر مما عرفته عن طريق كتب التاريخ»... ذلك أن العمل الفنى العظيم يحمل صورة حية عن العصر الذى يعيش فيه، حتى وهو يصور نفسية صاحبه وأفكاره، فإنه فى نفس الوقت يصور الآخرين من خلال هذه الصورة الذاتية التى لا تخص الفنان وحده، وإنما هى صورة لما يدور فى نفوس الغير وفى أذهانهم.. وفى هذا الديوان صورة لعصرنا، وهى صورة نادرة فى صدقها وعمقها وأصالة ارتباطها بجوهر ما يجرى فى حياتنا، لا بالسطح الخارجى الذى يبهر النفوس المحدودة، ويخطف أبصار الذين لا يستطيعون النظر إلى بعيد، وعندما يعبر احمد حجازى عن تجاربه الخاصة، نجد أن هذه التجارب ليست أبدا صورة لنفس واحدة لا تتكرر، ولكنها صورة حقيقية لنفسية جيل بأكمله، للصراع الذى يدور فى العالم النفسى لهذا الجيل، وفى العالم الواقعى الخارجى الذى يتصل به ويتحرك فيه.

فإلى القارئ والتاريخ هذا العمل الفنى العظيم.... الذى هو وثيقة تشهد على عصرنا، وتصور جيلنا ... إنه عمل فنى يقول لنا بوضوح : من نحن، وفى أى عصر نعيش .. ثم هو فوق ذلك فن مكتمل الأداة موفور النصيب فى ميدان الموهبة والاجتهاد

على السواء ■ أدب ونقد

الكاتب الضمير

عيد عبد الحليم

صفتان تلازمتا فى شخصية رجاء النقاش وهما حرصه على تقديم الأجيال الجديدة والتأصيل الثقافى،

لذا نجد ذلك التشابك الحميم بين الرؤية والرؤيا - فى عمله النقدى - بمعنى أنه كان ينحاز دائماً للكتابة عما يحب، فلم يرغمه العمل الصحفى على الكتابة الآلية ذات الطابع اللحظى التى تنتهى بمرور الحدث، إنما كان يحنو دائماً- إلى الكتابة التى تؤسس من خلال منهج نقدى يزاوج بين المعرفة والسياق العقلانى وبين الأبعاد الإنسانية. فاستطاع أن يمسك بزمام الحدود النقدية التحليلة، قدر إمساكه على جوهر وروح الفعل الإبداعى.

استطاع - ببراعة الباحث المدقق - أن يجمع فى منهجه التحليلى بين خصائص المدارس النقدية المختلفة فنرى فيه البعد المجتمعى بتاقضاته وطبقاته كما عند محمد مندور ونرى «الفكر» الذى أكد عليه لويس عوض فى منهجه النقدى من كون الأعمال الأدبية لابد وأن تحتوى على الفكر اختار رجاء النقاش الطريق المشترك الذى يتواشج مع الإنسان وقضاياه، رغم أنه لم يكن يحبذ ما ذهب إليه البعض فى الخمسينيات من أصحاب «مدارسة الواقعية الاشتراكية فى الأدب»، كان يريد أن يتماس الإبداع مع الذات الإنسانية بعيداً عن أى أيديولوجيا،

لذا كان يغوص فى تفاصيل النص الأدبى ليبحث عن روح ذلك النص. فحقق ما قال عنه «إزرا باوند» «أن الناقد دليل يأخذ بيد القارئ»، حيث جمع بين الحسنيين فى عالم النقد وهما قوة التحليل وفرادة الاكتشاف، من خلال تقديمه للرعيل الأول من تجربة الحداثة فى الشعر والرواية، بحيث أصبحت مقدمته لديوان «مدينة بلا قلب» لأحمد عبد المعطى حجازى أشبه بالمانفيستو الثقافى بحيث تحول النقد إلى فعل إبداعى موازٍ بما امتلك من رؤية شارفت تخوم النص الشعرى وفجرت دلالاته المراوغة، وما كان «النقاش» ليكتب عن ديوان «حجازى» إلا لأنه عاش تجربة صاحبه وتبنى موهبته رغم أن فارق العمر بينهما لا يتجاوز العام الواحد، وفى هذا يقول «حجازى» فى إحدى شهاداته عن تلك الفترة «لم يكن رجاء أول من يقرأ قصائدى الجديدة فحسب، ولم يكن هو الذى يرسلها إلى مجلة الآداب التى كان يراسلها فى ذلك الوقت لتنشر فيها إلى جانب قصائد صلاح عبد الصبور، والسياب، ونازك الملائكة، ونزار قبانى، وكفى ، وإنما كان رجاء أقرب من أحدثهم عن نفسى، وكنت أقرب من يحدثهم هو عن نفسه، وهو لا يقرأ قصائدى ويسكت، وإنما يقرأها للآخرين ويحدثهم عنها وعنى».

وبالمثل قدم الروائى السودانى الطيب صالح والشاعر الفلسطينى محمود درويش الذى كتب عنه كتاباً مهماً هو «محمود درويش شاعر الأرض المحتلة» الذى دشن به موهبة درويش الشعرية وكانت بداية التعارف الحقيقية بينه وبين القراء، ثم توالى تعريفه بأدباء الوطن العربى فضلاً عن اكتشافاته المستمرة فى تربة الإبداع المصرى فقدم جيل الستينيات من الروائيين أمثال إبراهيم أصلان وجمال الغيطانى ويوسف العقيد ومجيد طوبيا وغيرهم.

وكان له تجربة لافتة مع شعراء السبعينيات حيث كتب مقدمة بعض دواوينهم أذكر منها مقدمته للديوان الأول للشاعر حسن طلب «وشم على نهدى فتاة» ١٩٧٣، كذلك مقاله الشهير فى مجلة المصور عن العدد الأول من مجلة إضاءة ٧٧، بالإضافة إلى مجموعة من المقالات والدراسات حول شعرهم وشعر الأجيال السابقة واللاحقة عليهم والتى تضمنها كتابه المهم «ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء» وألمح فى شخصية «رجاء النقاش» حبه الأثير للشعر يظهر ذلك جلياً فى كتبه الخاصة بسير الشعراء وتجاربهم ومنها كتابه عن «أبو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة» وكتاب «بين المعداوى وفدوى طوقان صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر».

ضوء الحرية

كذلك كان «رجاء النقاش» من النقاد القلائل الذين يؤمنون بحرية المبدع فى اختيار القالب الإبداعى الذى يضع فيه نصه فالعبرة عنده فيما يقدمه النص من تجديد وابتكار وتجاوز وإدهاش، وعلى سبيل المثال مثلما كان احد المتبنين لحركة الشعر الحر فى منتصف الخمسينيات، رحب - أيضاً - فى السنوات الأخيرة بتجربة قصيدة النثر، حيث أكد فى أكثر من حوار ومقال بأن قصيدة النثر تمثل ثورة كبيرة جديدة فى الشعر العربى، وإن كان أكد - أيضاً - أن هذه الثورة الجارفة والهادرة بحاجة إلى نظام وقواعد فما يجرى فيها - الآن - ليس عملاً متكاملاً وإنما هو شلال هادر لم يصل بعد إلى أن يصبح نهراً يجرى بين ضفتين.

وعلى ما اعتقد أن «رجاء النقاش» قد وضع يده على إحدى الإشكاليات المهمة فى مستقبل قصيدة النثر العربية فإلى الآن لا توجد رؤية واحدة حول معالم وبنية هذه القصيدة، ربما للجوء بعض شعرائها إلى النموذج الغربى، وربما - أيضاً - وهذا هو الأخطر غياب البعد النقدى الموازى للثورة العارمة لهذه القصيدة كما وصفها «النقاش».

قلب كبير

إذن لم يكن «رجاء» من ذلك النوع من النقاد أصحاب البرج العاجى، فبرغم رئاسته لتحرير عدد كبير من المجلات الثقافية والفنية فى مصر والعالم العربى إلا أنه امتلك قلباً كبيراً وضميراً حياً وقد صدق الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور حين قال عنه فى تقديمه لكتاب «رجاء» «فى أزمة الثقافة المصرية»:

«يحمل رجاء فى قلبه الفجيعة دائماً ، ولكنه لا يبكى ولا يعلن بطلان الكل، ولا يخاف. إن الفجيعة فى قلبه تصبح حياةومحبة وشهوة لإصلاح العالم.

عاش رجاء كما عشنا جميعاً، موزعاً بين القرية والمدينة، وبين الثقافة والواقع، وبين الحلم والتجربة، وبين الرغبة والفعل.. ولكنه - لأنه إنسان شريف - مهما كان لكلمة الشرف من معنى، لن يسقط فى هوة اللامبالاة، ولن يتعالى إلى ابراج الترفع، لأن إنسانيته وشرفه يعصمانه.

ومجموعة مقالاته، كل منها تحمل فكرة فى الأدب وفكرة فى المجتمع، وفكرة فى الخلق، ويجمع هذه الأفكار كلها أن السلطان الوحيد عليها هو .. الضمير■

معـــــعـــــارك الـعـــــروبـى

شعبان يوسف

في مطالع الستينيات من القرن الماضي، كلفت وزارة الثقافة والارشاد القومي عددا من الادباء بالإشرف على جمع ونشر ديوان الشاعر الرومانسي ابراهيم ناجي، وتكونت هذه اللجنة من الشاعر صالح جودت، والشاعر أحمد رامي، والناقد أحمد عبدالمقصود هيكل وزير الثقافة فيما بعد والاكاديمي، ومحمد ناجي شقيق الشاعر..

ارتكبت هذه اللجنة حماقة كبيرة، اذ صدر الديوان، وتصدرت هذه الأسماء غلافه، وضمنته دون أية دراسة أو نقد اوتحر سبع عشرة قصيدة للشاعر كمال نشأت، رغم ان ست عشرة قصيدة من هذه القصائد كانت منشورة في ديوان «رياح وشموع» لكمال نشأت الصادر في سنة ١٩٥١، وكانت فضيحة أدبية كبيرة.

وكتب رجاء النقاش مقالا ناريا ينتقد فيه اللجنة، وعدم دقتها، وتسرعها، بل وجهلها الشديد بتراث ناجي، رغم إدعاء اللجنة بالتعالم، والتوسع في معرفة الشاعر معرفة وثيقة، وبعد كشف هذه الفضيحة صمتت اللجنة، ولم تدافع، أو تنف، عدا صالح جودت الذي انبرى في حدة وعنف للرد على ما وجه للجنة من نقد لخلطها بين شعر ناجي وشعر نشأت، وبلغ به أن يقول إنه «اطلع على مقال للمدعو او المدعوة، رجاء». ولم يكن رجاء النقاش مجهولا.. وجودت يعلم ذلك، لكنه تعمد الايذاء لكاتب شاب يبشر بالخير، وهو لم يعد مجهولا من عامة القراء فضلا عن الكتاب والصحفيين من زملائه. كما كتب د. محمد مندور في يناير ١٩٦٢ من مجلة الكاتب، مدافعا عنه ازاء هذا الهجوم والايذاء الظالمين.

وبالطبع فهذا الايذاء لم يفت فى عضد النقاش، بل ظل مواصلا تطوره ومعاركه عاما بعد عام، بعد ان رسخت اقدامه بقوة فى الحياة الأدبية المصرية والعربية، عموما.. وأؤكد على أن محاولة صالح جودت للنيل من رجاء النقاش، كانت مقصودة ومتعمدة، وهذا للرصيد الذى راكمه النقاش سريعا منذ بزوغ نجمه فى منتصف الخمسينيات، وكان مايزال شابا فى العشرين من عمره، وظل نجمه يصعد فى سماء الثقافة العربية، وذلك من خلال معاركه التى بدأت مبكرة جدا، ومعظمها كانت تدور حول الدفاع عن القومية العربية، وانتصاراتها الواقعية او المتخيلة ، وكان النقاش قد حاز على موقع مراسل مجلة الاداب اللبنانية فى القاهرة، ولم تكن مشاركاته مجرد تغطية لانشطة ثقافية تحدث فى القاهرة، بقدر ماكانت تنطوى على وجهة نظر يدعمها النقاش بأدلة وأسانيد وحجج قوية، شكلت الافق العام الذى تحركت فيه معظم كتابات النقاش على مدى رحلته الادبية والثقافية والفكرية والسياسية.

ولم يكن النقاش يلبى أغراض المجلة، بقدر ماكان يبدى وجهات نظره وملاحظاته التى تصل إلى حد انتقاد المجلة ذاتها فى بعض الاحيان، ففى عدد يوليو ١٩٥٥، وتحت عنوان قرأت العدد الماضى من الاداب، كتب محمد النقاش وهذا هو الاسم الذى بدأ النقاش يكتب به ملاحظات سلبية، تتعلق بالطابع الرصين أو المتجهم للمجلة، وتمنى على صديقه سهيل أدريس ان تبتسم المجلة قليلا، ويقول "لا أدرى اذا كان طابع المجلة الكلاسيكى هذا، هو الذى يحول بينها وبين بعض التجدد فى موضوعاتها وابوابها واخراجها، كما لا أدرى اذا كان مبدأ الالتزام الذى أخذت به نفسها ولاتنفك تبشر به، هو الذى يملى عليها هذه الرصانة التى لاتعرف الضحك وتكاد لاتعرف الابتسام على أساس ان واقعنا العربى جدى هذه الايام ، فلا يدعو إلى الضحك أو الى الابتسام، وراح النقاش يبدى ملاحظاته الايجابية والبناءة، هذه الملاحظات التى شاركت فى الخطاب الايديولوجى الذى تميزت وتفردت به مجلة الاداب فى خمسة عقود تالية.. هذا الخطاب الذى اتسم بالجدية وبساطة العرض فى آن واحد، وهذه السمة هى التى ميزت رجاء النقاش فى كتاباته عن كثيرين من كتاب هذه المرحلة..

وفى رسالة مصر تجد انه يعرض لثلاث قضايا خطيرة، الأولى تتعلق باغلاق دار "ايزيس" التى كان انشأها د. لويس عوض بعد فصله من الجامعة، وفى هذا السياق يكتب النقاش عن دور استاذ الجامعة المتعدد، ويقول "خرج الدكتور لويس عوض من الجامعة ليعمل فى الحياة العامة، فدور المثقف فى هذه الحياة لايقل خطراً عن دوره فى الحياة العلمية الخاصة بالجامعة أو غيرها، بل ان

الواقع يؤكد حاجة الحياة إلى المثقفين الذين يتعاملون ثقافيا.. وفى صورة دائبة، ومنتظمة مع الشعب.

القضية الثانية تتعلق بالمشروع الذى خطط له الدكتور طه حسين حول ترجمة آثار شكسبير، على ان تصدر هذه الاثار من الادارة الثقافية للجامعة العربية، وثارت حول هذا المشروع مناقشات بين مؤيد له، ورافض.. فكتب سلامة موسى يهاجم شكسبير، ويصف أدبه بأنه أدب اقطاعى ملوكى ويتهم طه حسين بأنه يميل الى هذا الاتجاه فى الادب، وكتب محمد زكى عبدالقادر مؤيداً عدم ترجمة الادب والانصراف الى ترجمة العلوم، وكتب أحمد بهاء الدين يطالب بتوجيه المشروع إلى ترجمة مايتلاءم مع وظيفة الجامعة العربية، ورد الدكتور طه حسين على كل هذه الاتهامات ردا مسهبا فى جريدة الجمهورية، وناصره فى ذلك عباس العقاد بعنفه المعهود، لكن عبدالرحمن بدوى كان أعنف عندما وصف المعارضين للمشروع بأنهم أشبه 'بالحمير'، وحاول رجاء النقاش أن يدلى بدلوه فى هذه القضية، فانتصر لوقف مشروع الترجمة ، ليس للأسباب التى زعمها المعارضون، ولكن لاسباب تتعلق بأن ترجمة شكسبير من الممكن أن تكون صعبة على القارىء العربى، فمن الممكن ان يرى القارىء ترجمات من شكسبير، وتحمل اسمه ثم لا يستطيع ان يجد فيها شكسبير على الاطلاق لان الشعر يتميز بخصائص لغته التى كتب بها، فنزعه عن هذه اللغة يفقده هذه الخصائص على الفور. ورغم رفض النقاش لهذه الترجمة. سنجد أنه كتب كتابا ضخما تقترب صفحاته من الاربعمائة صفحة عنوانه ،نساء شكسبير، وكأن رجاء النقاش يرد على شبابه.

اما القضية الثالثة فتتعلق بمقال كتبه الدكتور طه حسين ايضا عنوانه (حرية الخطأ) وليس (حق الخطأ) كما زعم البعض. وتوالت بعد ذلك مقالات عديدة حول القضية المطروحة، وكانت القضية بسبب تكوين لجنة من مشيخة الأزهر لمحاكمة الشيخ عبدالحميد بخيت الاستاذ بكلية اصول الدين، لانه نشر مقالا فى احدى الجرائد اليومية، خلال شهر رمضان تحدث فيها عن الافطار، وتوسع فى مبرراته الى الحد الذى اعتبرته مشيخة الازهر دعوة الى اسقاط فرض اساسى من فروض الدين. وفى عرض النقاش للقضية، راح يدافع عن حرية الفكر، ساردا العديد من المواقف التاريخية التى انتصرت للحرية.

معركة مع أدونيس

جاء كتابه: 'أدب وعروبة وحرية' الصادر عام ١٩٦٤ عن الدار القومية

بالقاهرة يجنح كثيرا نحو التبشير بأدب جديد ذى وجدان قوى، ووجدان اشتراكى راصدا ملامح هذا الأدب منذ مطالع القرن العشرين، وبعيدا عن هذا التبشير، تجده يهاجم الشاعر السورى على أحمد سعيد (أدونيس) هجوما ضاريا، فيكتب أربع حلقات تحت عنوان (القوميون السوريون والادب)، وقدم هذه الحلقات ب (من الخطأ ان نظن ان الاستعمار يعتمد على القوة فقط، فالحقيقة التى يجب ان نعرفها ونعترف بها هى ان الاستعمار يقوم بدوره العملى بعد تخطيط علمى ونفسى دقيق، ولذلك فقد استخدم الاستعمار مهندسين عباقرة، اذكياء اختارهم من مختلف الميادين لكى يساعدوه على رسم خططه وتنفيذها، كانت هذه الفقرة مقدمة لكى يدشن رجاء هذه الفكرة لتطبيقها على انطون سعادة زعيم الحزب القومى السورى الاجتماعى، ثم على أدونيس، فبعد ان يعرض النقاش منطلقات سعادة حول 'الفردوس المفقود' فى سوريا الكبرى، او فينيقيا المجيدة ثم خلق رمز تاريخى لهذه الفكرة، وهو شخصية القائد الفينيقى السورى القديم «هاينبال» ثم احياء الاساطير القديمة التى تساعد الحركة على النهوض، يعرض رجاء لشعر ادونيس، ويسميه: 'أمير شعراء القوميين السوريين).

ويكشف النقاش ان خطوات أدونيس الأولى كانت فى مجلة 'الرسالة' التى كان يصدرها يوسف السباعى فى وسط الخمسينيات، واختفى اسمه فى مصر لسنوات، وعاد اسمه بعد ذلك يلمع بصفته شاعر القوميين السوريين الكبير، ويكتب رجاء : 'تابعت انتاجه بعد ذلك، فوجدت ان 'الاتهام' الموجه إليه بأنه قومى سورى ليس اتهاما باطلا بل هو حقيقة يؤكدها شعره ، فهو يقول فى شعره. أنا قومى سورى، أنا ضد كل ماهو عربى، وليس من الصعب ابدا ان نجد هذا الاتجاه فى شعره، ويعرض النقاش لبعض قصائد أدونيس التى تدعو إلى 'الثورة، كما يفهمها القوميون السوريون، اى الى توحيد سوريا الطبيعية.

ويربط النقاش بين كراهية الغرب للعروبة، وكراهية ادونيس ايضا، وينتهى إلى أن أدونيس هو التجسيد الفنى لأفكار انطون سعادة، ولأفكار واتجاه الحزب القومى السورى، ومجلة شعر.

المعركة مع أدونيس كانت حجر زاوية بالنسبة لرجاء النقاش خاصة، وللعروبيين عموما، وإثارة موضوع ادونيس لم يكن جديدا فى الثقافة المصرية، فكان الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى قد كتب فى مجلة الكاتب فى ديسمبر ١٩٦١ مقالا، اتهم فيه مجلة «شعر» باللا انتماء، ويقول : «ان مجلة شعر تشجع الشعراء مثلا ان يتمثلوا الازمات المترتبة على الشعور باللا إنتماء»، ويكيل حجازى

الاتهامات التى لاتختلف عن ما ذهب اليه النقاش.. وقد استدعى الامر لكى يدفع ادونيس برده للمجلة فى فبراير ١٩٦٢ تحت عنوان (الثقافة العربية مواقف حرة) أن ينفى فيه هذه الاتهامات ويفندها واحدة واحدة، ويخاطب حجازى ب:(يا أخى).. ويقول.. (أطلب منك بمافعلته المجلة وتفعله لنهضة الشعر العربى ليس على الصعيد العربى فحسب، بل على الصعيد العالمى ايضا؟ اذ وضعته للمرة الاولى فى تاريخه على مستوى الشعر فى العالم كله، يترجم الى اللغات الاخرى، وتخصص له أعداد من مجلات تعنى بالشعر، هل أذكرك ان تعوّد فتقرأ افتتاحياتها من جديد لتعرف حقيقة موقفها؟ ثم الا ترى يا أخى انه لم يعد من اللائق فى عصرنا الحديث، أن نبعث فكرة الشعوبية، وهى ذات منشأ دينى سياسى، فى خلافاتنا الفكرية وفى ثقافتنا العربية؟.

خلاصة الامر ان أدونيس كان مثار خلاف دائم، ومثار رفض شبه مطلق للقوميين والعروبيين، ولم تكن هذه المقالات الأربع التى كتبها النقاش عن أدونيس فى مطلع الستينيات فقط، بل عاد، وكتب عنه مقالا طويلا بعد ربع قرن من الزمان، ونشره فى مجلة 'المصور' تحت عنوان 'أيها الشاعر الكبير.. انى أرفضك، وأعاد رجاء كل الاتهامات السابقة لأدونيس ، وزاد عليها محاولة أدونيس كما رآها رجاء المزايدة على الدعوة التى وجهتها له مصر، فرفضها تحت زعم ان الحكومة المصرية تقود تطبيعا مع اسرائيل، وراح يكيل الاتهامات لأدونيس ويصف موقف ادونيس بانه رخيص وتمثيلية ضعيفة مهلهلة ونفاق لايليق بشاعر كبير.. وان كان أدونيس بتصرفه الرافض للمشاركة فى معرض القاهرة يريد ان يقول هذا، فما يقوله هو افتراء وكذب وادعاء غير مقبول.

ومن ناحية اخرى يقول: 'اما موقف مصر من اسرائيل فقد أصبح موقفا معروفا ، فالشعب العربى فى مصر، بعد ان فقد مئات الالوف من شبابه، يرفض اسرائيل ولايتعامل معها وكل محاولات التطبيع فشلت وتعرضت للرفض القاطع من شعب مصر الذى مازال يعتبر اسرائيل عدوه الاول والاكبر.

وآثار نشر هذا المقال اصداء عديدة وعنيفة فى مصر والعالم العربى، وكان من بين اشد المعترضين على هذا المقال كما يقول رجاء صديق عزيز هو الباحث والناقد الجامعى اللامع الدكتور جابر عصفور، فما كان من رجاء الا أن كتب مقالا اخر يفند ويعيد فيه، ماكان قد عرضه من قبل، ويرد على بعض الملاحظات التى أبداها البعض فى رسائل، او مقالات او متابعات، وظل ملف أدونيس مفتوحا على مصراعيه. بالنسبة للراحل الكبير رجاء النقاش، ولم تحسم نقطة النهاية بالنسبة لآخرين.

انعزاليو مصر

وفيما يخص البعد القومى العروبى ، هناك المعركة الواسعة والشهيرة، وكان ابطالها توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزى ، للدرجة التى استدعت من رجاء النقاش ان يخصهم بكتاب كامل، عنوانه 'الانعزاليون فى مصر' ، وبدأت هذه المعركة عندما كتب توفيق الحكيم مقالا فى ٣ مارس ١٩٧٨ بجريدة الاهرام عنوانه 'الحياد' دعا فيه الى ان تنفض مصر يدها من الصراع العربى والصراع العالمى معا، وتهتم بشئونها الخاصة حتى تتمكن من حل مشاكلها التى تراكمت فى السنوات الاخيرة، وأيده فى ذلك الدكتور حسين فوزى، ثم كتب الدكتور لويس عوض ثلاث مقالات بالاهرام اثار فيها قضايا تتعلق بعروبة مصر التى يعارضها و 'بالقومية العربية التى ينكرها'،

وأظن ان مربط الفرس فى هذه المعركة هو الدكتور لويس عوض الذى كتب فى مستهل مقالاته: «ان اسطورة الدعوة الانعزالية لاتقل شططا عن الدعوة الى الوحدة الاندماجية الكبرى القائمة على العروبة العرقية او العنصرية الملتهمة لكافة مافى المنطقة من قوميات فالعروبة العرقية لون من الوان النازيه». وهكذا يربط لويس عوض كما يرى رجاء بين دعوة القومية العربية ، وبين الدعوات 'العرقية والعنصرية'. ويعتبرها لونا من الوان النازية؟.. وكانت هذه فرصة طيبة لرجاء النقاش لكى يعود إلى التعريفات الأولى للقومية العربية، التى أسس لها ساطع الحصرى، والذى يقول: (ان كل من ينتسب إلى البلاد العربية، وتكلم اللغة العربية، هو عربى، مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها بصورة رسمية، ومهما كانت الديانة التى يدين بها، والمذهب الذى ينتمى إليه، ومهما كان أصله ونسبه وتاريخ أسرته.. فهو عربى).

ويعتبر هذا الكتاب وثيقة دفاع أساسية عن العروبة التى ينشدها رجاء النقاش، كما كان كتاب: (عروبة مصر) لأحمد عبدالمعطى حجازى، فلم يترك النقاش أى فكرة تطرق لويس عوض إليها فى مقالاته، إلا وفندها، ورغم أن الكثيرين قد ردوا على عوض إلا أن مقالات رجاء كانت الأقسى، والأشد عروبية، رغم أن أقلاما كثيرة لأحمد بهاء الدين ويوسف ادريس ووحيد رأفت، ومحمد اسماعيل محمد قد كتبت فى القضية...

وهناك قضية تخص شاعرا كبيرا هو نزار قبانى عندما أصدر الناقد اللبنانى المعروف جهاد فاضل، كتابا عنوانه 'فتافيت شاعر' عام ١٩٨٩، شن فيه هجوما على نزار قبانى، وكان حجر الزاوية عند جهاد فاضل: (إن 'نزار' دأب فى المرحلة الأخيرة من انتاجه الشعرى على مهاجمة الأمة العربية هجوما بالغ القسوة والعنف، وقد اختار جهاد نماذج من هذا الشعر الهجائى وقدمها فى كتابه ليجعل

منها دليلا على خطأ "قبانى" فى موقفه من أمته، ومن هذه المقتطفات مثلا.

وطنى عربى تجمعه طبله

وتفرق بين قبائله طبله

أفراد الجوقة والعلماء وأهل الفكر..

وأهل الذكر، وقاضى البلدة، يرتعشون على وجه الطبلة،..

أو:

لاتسافر بجواز عربى

لاتسافر مرة أخرى لأوروبا

فأوروبا كما تعلم ضاقت بجميع السفهاء

لاتسافر بجواز عربى بين أحياء العرب

فهم من أجل قرش يقتلونك

وهم حين يجرعون مساء يقتلونك،..

وهكذا ينتقى فاضل من هنا وهناك، ليضع نزار قبانى فى صورة العدو والخصم الاكبر للقومية العربية، وما كان من النقاش إلا أن يفتش فى تراث قبانى، فيستخرج دررا تنصفه فى قضية القومية العربية، وما هذه التطوحات الهجائية إلا غيرة على هذه القومية التى يتناهشها الكثيرون. وتعد هذه المقالات التى كتبها النقاش خط الدفاع الأول عن نزار قبانى، من كاتب فى قيمة رجاء النقاش..

هذا قليل من كثير تعرض له النقاش. وهذه المعارك التى خاضها رجاء، كان رائدها ضميره وروحه العربية، وهذا غيض من فيض، فالحديث عن معارك رجاء النقاش يحتاج إلى مجلد كبير، يفصح عن عقل نابه ومثير ونابض بالحياة، رحم الله الفقيد الكبير وأدخله فسيح جناته.

قـــــدر النـبـــــلاء

فاروق جويده

كانت احتفاليه نقابة الصحفيين برجاء النقاش حفل وداع يليق بالرجل وتاريخه

أدب ونقد

ولم نكن نعلم ونحن نتحدث عن دور رجاء النقاش ولم نكن نعلم ونحن نتحدث عن دور رجاء وهو جالس بيننا انه يستعد للرحيل وان ما بقى له بيننا من الزمن ايام قليلة وان رجاء الذى ملا حياتنا جمالا وجلالا وروعة يوشك ان

يجمع اوراقه ويرحل واننا سوف نفتقد بعده الكثير من الود والصفاء والشفافيه.

ولم اكن مبالغا حين قلت فى هذه الليلة اننا فى حياتنا قد نندم على اشخاص عرفناهم ولكن الحقيقة اننى ندمت على عمر ضاع دون ان اعرف فيه رجاء النقاش. وكانت هذه قصتى معه.

فى بدايه الثمانينيات كانت مسرحيتى الوزير العاشق تعرض على مسرح السلام وفوجئت باثنين من اعلام مصر يتصدران الصف الاول فى قاعه العرض د.لويس عوض ورجاء النقاش. وكانت المره الاولى التى ارى فيها رجاء النقاش. وانتهى العرض وذهبنا معا وقد انتصف الليل وفى احد مقاهى وسط القاهره جلسنا نتحاور حتى اقترب ظهور الشمس.

كانت هذه هى المره الاولى التى ارى فيها رجاء النقاش ومن يومها لم

نفترق الا وانا اودعه فى حفل تكريمه فى نقابتنا العريقة.

فى سنوات الجامعة ونحن ندرس فى رحاب جامعة القاهره كان رجاء النقاش اسما باهرا فى بلاط صاحبه الجلاله حيث اجتمع البريق الطاغى والمصداقيه والالفه الشديده بين النقد والابداع. وكنا نشاهد رجاء من بعيد بشبابه ورشاقه كلماته وحيويته الفكريه الطاغيه ونتمنى لو اننا يوما سلكنا دربه واصبحنا. مثله كان رجاء نموذجا لشباب جيلنا فقد كان من الصعب ان نحسب انفسنا بحكم العمر على اجيال العمالقه التى سبقت او ان نتشبه بها مثل طه حسين او العقاد او مندور وقد اقتربنا منه وكان استاذا لنا ولكننا كنا نرى انفسنا الاقرب بحكم العمر والحلم المشروع الى رجاء النقاش الشاب المتفتح المستنير الذى تجاوز كل الحسابات فى انطلاقه نحو النجومية.

وللانصاف فان رجاء النقاش لم يكن ناقدا عاديا او كاتبا مضى فى طريق احد سبقه. كان طبعه وحيده ونسخه فريده فى تكوينه وفكره وقلمه ولهذا انهى السباق من البدايه ومنذ اللحظه الاولى واصبح فى مصر رجاء نقاش واحد وسط كوكبه ضخمه من الاسماء الرنانه. وفى تقديرى ان رجاء النقاش خرج على كل قواعد النقد التقليديه وهو يتعامل مع النص الادبى. لم يكن كاتبا راصدا ولكنه كان مبدعا عاشقا للنص الادبى. بعض النقاد يتعامل بمنطق الجراح الذى يمسك بالنص حتى يتحول بين يديه الى اشلاء ممزقه ثم يسألك فى بساطه :واين هذا النص؟ انه يمسك بالزهره الجميله ويقطع اوراقها ورقه ورقه وتتناثر اوراق الزهره فى كل مكان وهى تنزف دماءها بين يديه ثم يسألك بقسوه اين زهرتك الجميله.

كان هذا طرازا غريبا من النقاد لم يضيفوا للابداع شيئا، ولكن رجاء النقاش جاء ليضع الوردة فى مكانها ويسلط عليها الاضواء من كل جانب فتزداد جمالا وجلالا وروعه ثم يبدأ فى رسم ملامحها ظلا فظلا. ثم ينتقل بين الوانها الزاهية ويعرضها ويجملها بكل الحب. ثم ينتقل الى عبيرها الخلاب ويحمله اليك بحب ومودة وتختلط مشاعر رجاء مع مشاعر المبدع وتكاد لا تفرق بين من كتب النص ومن كتب عنه لان المبدع قدم مشاعره وقابله رجاء فى منتصف الطريق ليكمل مسيرة هذه المشاعر وهنا كان التوحد بين الابداع والنقد ليصل بك واليك حيث المتعه والجمال.

واذا اردت ان تعرف ذلك كله اقرأ نصا ادبيا مع نفسك اولا ثم اقرأ النص نفسه بعيون رجاء النقاش وسوف تدرك حجم ما اضاف رجاء للنص وصاحب النص والابداع بصورة عامه.

ان رجاء النقاش لم يعرف فى حياته غير الحب. ومن هذا المنطلق كانت كتاباته. انه عاشق للتراث ولذلك غاص فيه الى ابعد مدى ولهذا لم يسقط كما سقط الكثيرون فى حاله عداء مع تراثهم اما انبهارا بالاخر او سعيا وراء مصالح وادوار كشفتها الاحداث والايام والزمن. وإذا كانت هناك اسماء قد وصلت الى درجه الانبهار الاعمى بالاخر افقدها القدرة على ان ترى نفسها فان رجاء النقاش كان يدرك من البدايه ان المسافه بيننا وبين ذواتنا أقرب كثيرا من المسافه بيننا وبين الاخرين وان علينا ان نقرا انفسنا أولا. ولعل هذا ما جعل رجاء النقاش يغوص فى اعماق ثقافتنا العربية بحب كبير وثقة لا حدود لها فى انه ينتمى الى تراث عظيم. وفى الوقت نفسه كان ينتقل بين حدائق الاداب العالميه يختار منها ويسبح فى اعماقها ويخرج لنا بهذا التواصل الحميم بيننا وبين الاخر.

ومن خلال هذا الحب الذى عاش به رجاء وعاش من أجله كان يختار من يكتب عنهم ولا اعتقد انه كتب عن شىء لا يحبه او رضى ان يتماشى مع شىء يرفضه. ورغم الهدوء الشديد فى شخصيته وبساطه حياته واسلوبه ولغته الا انه كان واضحا صريحا فى مواقفه وثوابته ولم يتغير كما تغير الكثيرون ولم يهادن كما فعلت كتائب المثقفين فى عصور كثيره وكان قادرا على ان ينسحب فى اى وقت ومن اى موقع لا يتناسب مع فكره وضميره. وعندما زادت الضغوط عليه فى مصر سافر الى الدوحة ليقدم تجربة فريدة فى الصحافه الثقافيه مازالت حتى الان حديث الناس فى كل مكان.وعندما تولى مسئولية مجله الكواكب انتقل بها من مجله فنيه عاديه الى مستوى المجلات الثقافيه الراقيه. وفى الهلال كانت له صولات وجولات ومعارك. والغريب فى رجاء النقاش انه لم يختلف فى ثوابته فى مراحله الاولى عن نهاياته كان المصرى الاصيل الذى احب تراب هذا الوطن واعطاه كل شىء بتجرد وسخاء. وكان العربى الذى امن دائما بوحده هذه الامه ماضيا وحاضرا ومصيرا. وكان المسلم الذى حفظ تقاليد دينه فكرا وسماحه ويقينا. لم تعرف الثقافه العربيه نسختين من رجاء النقاش كان فريدا فى تكوينه وبقى متفردا فى جيله وعزف على طريقته دون ان يقلد نغمات الاخرين او ينبهر باصوات قادمه من بعيد وكان يرى انه يعزف لنفسه اولا كما احب وعلى الزمن ان يسمع.

وفى الساحه الثقافيه المصريه والعربيه نجوم كثيره اطلقها رجاء النقاش فى سمائنا لتاخذ مدارها وكبرت هذه النجوم وتلالات واضاءت ولكن سيبقى الفضل دائما لمن وضعها على المدار وسوف يذكر التاريخ لكاتبنا الكبير جولاته فى رحله الكشف عن النجوم فى سمائنا المعتمه.

أدب ونقد



قبل ان يرحل بايام قليله ذهبت لزيارته فى بيته فى حدائق الاهرام وكانت ليلة شتوية طويلة وجلست معه اربع ساعات وكلما استاذنت فى الانصراف كان يمسك بيدى ونستكمل الحديث رغم اننى كنت مشفقا عليه من طول الوقت. كان انسانا وديعا صافيا محبا للناس ولم تغيره الاحداث ولا الزمن وبقى على صفائه القديم رغم ان كل شيء حوله قد تغير ولم تعد الحياه كما كانت. ولم يعد الناس هم الناس. كان حزينا متألما غاضبا رغم انه قليلا ما كان يغضب.

ولا شك ان رجاء النقاش الذى كان بيننا بالامس كان يستحق مكانه أكبر فى واقعنا الثقافى وكان جديرا بمواقع كثيره يمكن ان يضيء دروبها ومسالكها. وكانت رحلته مع الحياه يمكن ان تكون اكثر رحمة به وبنا فقد دفع ثمن معاركه رغم انه خاضها بشرف ودفع ثمن غربته وان كانت قد فرضت عليه. وقبل هذا وذاك دفع ثمن الكبرياء والتعفف وهذا قدر النبلاء فى كل زمان. يعلم الله وحده اننى سوف افتقد رجاء النقاش القلم الراقى. والفكر المترفع والانسان الجميل الذى أحاطنا بحبه وتقديره وروحه التى اتسعت لحب كل الناس. أما رجاء الصديق فلن يبرح قلوبنا ابدا.

رحلة حب جديدة

حسن توفيق

شارعان من شوارع حى المهندسين بالقاهرة، كنت أحس بالنشوة تغمرنى، وأنا انطلق إليهما.. الشارع الأول شارع شهاب، حيث يقع بيت أستاذى الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور، والشارع الثانى شارع الصفا، حيث يقع بيت أستاذى الكاتب الكبير رجاء النقاش..

كان هذا خلال منتصف الستينيات وأواخر السبعينيات من القرن العشرين الغارب.. فى هذين البيتين اتيح لى أن أنعم بصفاء المحبة، وأن التقى مع كثيرين من الأدباء والشعراء والفنانين العرب وغير العرب الذين كانوا يزورون مصر، أو يقيمون فى أرضها الطيبة.

كان صلاح عبد الصبور يحب أن ينادينى ب 'يا ابنى'.. وكنت دائما ارفض، مؤكدا انه أخى وليس أبى، وكان رجاء النقاش ينادينى ب 'يا أخى' وكنت أفرح بهذا النداء، فقد كنت فعلا أخا محبا له، وكان أفراد أسرته الكريمة وإخوته يتعاملون معى على هذا الأساس.. أخ واحد له لم التق معه نهائيا، لأنه يقيم فى الولايات المتحدة منذ اكثر من أربعين سنة، ويعمل هناك فى مجال الإخراج السينمائى هو عطاء .. أما أخوه وحيد النقاش فقد عرفته وأحببته فى بدايات تكوينى، وكان كاتبا ومترجما وإنسانا رائعا، ومن ترجماته المعروفة رواية ،صمت البحر، للكاتب الفرنسى فيركور، وفيها صور بطولية للمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى خلال الحرب العالمية الثانية، وكذلك مسرحية يرما الشعرية للشاعر الاسبانى العظيم فيديريكو جارثيا لوركا، وكان وحيد النقاش ينقح لى قصائدى المبكرة بكل رقة وحنو، وبكل أسف فإن الموت

اختطفه قبل أن يناقش رسالة الدكتوراه من جامعة السوربون الشهيرة بباريس بأسبوع واحد، وأما فكرى النقاش فهو تقريبا فى مثل عمرى، متعه اللّه بالصحة والعافية، وأما بهاء النقاش فقد كان شابا رائعا ومعيدا فى معهد السينما بالقاهرة، لكن الموت اختطفه كذلك سنة ١٩٨٦ على ما أذكر فى حادثة مروعة على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى، وأما الأصغر عاصم النقاش فإنه إنسان رقيق محب للفن وللحياة، وتبقى الأختان فريدة النقاش الكبيرة، وأمينة النقاش الصغيرة، وهما مشاكستان ومتمردتان ضد كل ما يعوق حركة التقدم فى مصر وفى شقيقاتها العربيات، وكلتاهما فى حزب التجمع التقدمى الوحدوى، وقد تعرضتا للاعتقال وللسجن مرات عديدة فى عصر من حكم مصر بعد غياب الزعيم العربى الخالد جمال عبد الناصر.

الدكتورة هانية عمر المارية رفيقة رحلة رجاء النقاش مع الحياة بكل طموحاتها وصعوباتها، هى أساس كل المحبة التى تشع فى بيت الكاتب الكبير، وهى إنسانة رقيقة حين تستدعى المواقف ان تكون كذلك، كما أنها إنسانة حاسمة وحازمة حين تتطلب المواقف ان تكون كذلك، وهناك الابنة البارة ميس التى اتمنى ان تحقق أمنية أبيها، فتحصل على درجة الدكتوراه التى تأخرت فى إنجازها، وهناك الابن الجميل عاشق الفن سميح رجاء النقاش والذى اسماه أبوه سميح تيمنا بشاعر المقاومة الفلسطينية الكبير سميح القاسم، لكنى لن أنسى هنا زياد حفيد رجاء النقاش الذى كان يسمح له وهو يدلله أن يمتطى ظهره، وهذا ما كان يدفع الدكتورة هانية فى حالات كثيرة للشكوى .. يا حسن.. تدليل رجاء الزائد لزياد ليس فى محله!.. .

فى مركز أجا بمحافظة الدقهلية الشهيرة بما انجبته من سياسيين مرموقين، من شيوعيين ومن إخوان مسلمين على حد سواء، وبما أهدته للعرب أجمعين متمثلا فى خالدة الصوت أم كلثوم.. فى هذا المركز مركز أجا ولد الطفل محمد رجاء عبد المؤمن النقاش يوم ٣ سبتمبر ايلول سنة ١٩٣٤، وكان أبوه عبد المؤمن النقاش شاعرا أصيلا يميل إلى الكلاسيكية فى معظم الأحيان ويجنح إلى الرومانسية أحيانا، وكان واحدا ممن يقتنون مجلة الرسالة الاسبوعية الشهيرة التى كانت قد بدأت صدورها قبل ميلاد ابنه بنحو سنتين لا أكثر.

من القرية ومن حياة الريف، انطلق الشاب العاشق للأدب والفن محمد رجاء عبدالمؤمن النقاش الى القاهرة بكل أضوائها وضوضائها، حيث تخرج من قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٦ فكان له شرف أن يكون أحد أساتذته هو عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين، ولكن الطالب الجامعى رجاء النقاش لم يكن من أبناء الموسرين والأثرياء، ولهذا تكفل بإعالة نفسه

خلال سنوات الدراسة، وهو أمر دفعه لأن يعمل فى الصحافة، وهو ما يزال يتلقى العلم فى الجامعة حيث عمل محررا أدبيا فى مجلة روزاليوسف واحتضنه وقتها إحسان عبدالقدوس، وبعد تخرجه من الجامعة، تنقل ما بين أخبار اليوم و الجمهورية وكانت مقالاته الأدبية والنقدية تبهر أبناء جيلى بجمال أسلوبها وطلاوته وحلاوته، وبفضل هذا الأسلوب البعيد تماما عن التقعر والتكلف، تحققت لرجاء النقاش شهرة واسعة، وهو ما يزال شابا، يناطح الكبار من الأدباء، ويزاحمهم، ولأن الساحة الأدبية والثقافية وقتها لم تكن ساحة ضغائن وأحقاد، كما هى الحال الآن فى معظم الأحيان، فإن الكبار الذين زاحمهم رجاء النقاش أحبوه واحتضنوه ورعوا موهبته الصاعدة خير رعاية، وكان من هؤلاء ناقدان كبيران هما الدكتور محمد مندور والأستاذ انور المعداوى.

ما سر جمال أسلوب رجاء النقاش؟.. السر يكمن ببساطة _ فى أنه من ابناء جيل عربى عاشق للمعرفة ومحب للقراءة. الآن لدينا كتاب كثيرون لا يقرأون.. وربما كانوا يعرفون اسماء أدباء عالميين وعرب، لكنهم يكتفون من المعرفة بالأسماء لا اكثر ولا أقل. حين نسأل رجاء النقاش عن الينابيع الثقافية والأدبية التى استقى منها ما استقى، والتى أسهمت فى تشكيل أسلوبه الجميل الصافى، فإنه لا يتردد فى القول إن هذه الينابيع تترقرق على صفحات مجلة الرسالة التى أشرت إليها، والتى كان يصدرها الكاتب الكبير أحمد حسن الزيات من سنة ١٩٣٢ حتى سنة ١٩٥٢، فعلى صفحات هذه المجلة الرائعة والعريقة، كانت تتلاقى اقلام طه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم المازنى وتوفيق الحكيم وابراهيم ناجى وعلى محمود طه ومحمود حسن اسماعيل وعبدالرحمن الخميسى وسهير القلماوى وشوقى ضيف وعبدالقادر القط وسواهم، وكان رجاء النقاش يتأمل أساليب هؤلاء جميعا، ويتذوق منها ما يتذوق وقد يقترب من أحدهم ويبتعد عن سواه.

لكن جمال الأسلوب وحده ليس المؤهل الوحيد لكى يكون الإنسان كاتبا مرموقا، إذ لابد من المعرفة التى ينبغى الا تكون محصورة ومقصورة على مجال معين، وانما يجب أن تكون معرفة موسوعية شاملة فى الفلسفة وفى التاريخ والاجتماع والسياسة وعلم النفس والدين، بل فى الأديان المقارنة، وهذا كله لم يجعل رجاء النقاش مجرد كاتب من ذوى الأساليب الساحرة، وانما أكسبه عمقا فى النظرة وفى التحليل، وأبعده تماما عن مزالق التسطيح و الفبركة وتشهد مكتبته الشخصية الهائلة التى خصص لها طابقا كاملا فى بيته الجديد بحدائق الأهرام على عمق قراءاته وشمولها ورحابتها، وقد شهد البيتان القديم فى شارع الصفا بالمهندسين، والجديد نقاشات ومساجلات بين عشرات، بل بين مئات من المثقفين والفنانين

والكتاب العرب من أبناء مصر وأبناء سواها من شقيقاتها العربيات، وأتذكر هنا ان الشاعر العظيم محمود درويش حين التجأ إلى مصر فى البداية لم يكن يسهر سهرات متجددة إلا فى بيت رجاء النقاش، اما إذا شاء ان يستأذن فى الانصراف مبكرا فإن وعدا ضاحكا كان يتكفل بأن يعيده إلى مقعده، حيث كان رجاء النقاش يعده بأن يتصل تليفونيا ــ بالمطربة العذبة نجاة الصغيرة التى كان محمود درويش وقتها يحبها حبا جارفا ويلتقى معها أحيانا ويسعد بسماع صوتها إذا احترق شوقا ولو من خلال التليفون، وأظن أن هناك من يعرفون أن نجاة الصغيرة كانت مشهورة بأنها ملهمة لشعراء سابقين على محمود درويش، من بينهم كامل الشناوى صاحب لا تكذبى. وهى قصيدة من وحى المطربة العذبة نفسها فى موقف معين، كما أن نجاة الصغيرة كانت المطربة العربية الأولى التى انطلقت بشعر نزار قبانى من القراءة إلى السماع، عبر قصيدته أيظن.

احتضن الآن ما عندى وما هو امامى وانا اكتب هذه السطور ــ من كتب أستاذى الرائع.. احتضن هذه الكتب النفيسة، كأنى الوذ بها من الفراغ، وأتحصن بها ضد الغياب.. وإذا كنت قد أشرت إلى جمال الأسلوب وعمق التحليل عند رجاء النقاش، فلابد أن أتذكر التوجه الفكرى والإنسانى الذى يتيح لى القول دون اى شهادة من أحد ــ إن رجاء النقاش إنسان جميل ونبيل، تتجسد فيه إنسانية العروبة بإنطلاقتها ورحابتها البعيدتين عن العنصرية، وبفضل هذا الإحساس العربى الأصيل الذى يجرى مع الدم فى عروقه، فإنه يرى وهذا حق أن الأدب العربى هو أولا وأخيرا أدب واحد، لكن بيئاته المحلية تتوزع، كما تتنوع جنسيات مبدعيه ومبدعاته، وبفضل هذا الإحساس كتب عن محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وسلمى الخضراء الجيوسى وغسان كنفانى من فلسطين، وكتب عن الطيب صالح ومحمد الفيتورى وجيلى عبدالرحمن من السودان، وكتب مقدمة رائعة لمجموعة كلثم جبر القصصية وجع امرأة عربية كما رعى سنان المسلمانى ومريم آل سعد ومحمد بن خليفة العطية وحسن رشيد ومرزوق بشير وسواهم من أبناء قطر، ولا يزال الشاعر الكبير الشيخ مبارك بن سيف آل ثانى حين يسألنى عنه يقول: ما أخبار الباشا؟

كتبت منذ أكثر من عشرين سنة رحلة حب مع رجاء النقاش وها أنذا أكتب الآن عنه ومعه فى رحلة حب جديدة، واذا كانت وكالات الأنباء ووسائل الاعلام قد اشارت الى غيابه يوم الجمعة الثامن من فبراير ٢٠٠٨ فإن هذه الإشارة لا تعنينى، لأنى مدرك أنه يسكن فى قلوب محبيه جميعا، وسيظل يسكن قلبى ■

الموت يخطف الشرفاء!

سلامة أحمد سلامة

كنت فى المستشفى أعالج أوجاعا فى القلب، حين داهمتنى أنباء فقد العزيزين رجاء النقاش ومجدى مهنا دفعة واحدة فى ساعات متقاربة، وكلاهما له فى القلب مكانته من الحب والتقدير والرفقة الطويلة لطريق معبد بالصخور والأشواك فى دنيا الكتابة والصحافة..

أدب ونقد

وكأن نداء الموت لا يتعجل غير الشرفاء، يختطفهم من بين أحبائهم.. فى أجواء تفتقر إلى آفاق الحرية واستقامة الفكر والإيمان بالمستقبل... تلك التى كانت علامات على الطريق فى مسار حياة كل منهما وإن تنوعت المسارات.

وضاعف من آلام الفقد عجزى عن المشاركة فى تشييعهما مع جماهير غفيرة من مشيعيهم إلى المثوى الأخير... دع عنك اللحاق بلحظات وداع أخيرة، كانت كل المؤشرات تنذر بها منذ أسابيع وشهور من مرض مضن لا يرحم!

كان رجاء النقاش يمثل بالنسبة لنا - ونحن من جيل واحد - الذين اجتهدوا فى إقامة جسور من التواصل والتفاعل بين الثقافة بمعناها الأوسع والصحافة ببحورها الهادرة ومسالكها الضيقة الوعرة، منارة تضىء الطريق بالنقد الموضوعى الهادف، وباكتشاف المواهب والأقلام التى تصل الأدب والفكر بالسياسة وتياراتها المتلاطمة، وقد أسهم بآدائه وأفكاره وخبرته القديمة فى إنشاء المجلات الثقافية فى دعم مجلة وجهات نظر حين شهدت مراحل ولادتها.

وقد ظل رجاء باستمرار قادرا على ان يضع الأدب فى قلب الحياة والمجتمع والناس، وأن يثير اهتمام الأشخاص العاديين بالشعر والقصة والرواية، ويقدم باقتدار عقدا من اللآلىء التى انارت طريق الثقافة وحب الأدب امام اجيال جديدة أغوتها التفاهة والخفة عن الفكر الجاد والرؤى المستنيرة.

وربما كان أكثر ما ضاعف لوعتى فى فقد الصديقين انهما وإن تباينت لديهما سبل الكتابة، بين النقد الأدبى الرصين لرجاء، والرأى الحر وشرف الكلمة وجسارة الموقف لمجدى مهنا، فقد جمعتهما تلك الخلة النادرة التى أخذت تختفى من حياتنا، وهى الصدق مع النفس.

عرفت مجدى مهنا حين كان طالبا بالإعلام، وكنت القى بعض دروس فى الترجمة الصحفية، وتابعته وهو يرتقى سلم المهنة بثبات واقتدار فى صحف ومجلات مختلفة.. ربطتنا خلالها صداقة مهنية واحترام متبادل... وكنت كلما بلغتنى انباء مرضه العضال، وهو يفترس كبده، تذكرت قول الشاعر العربى القديم:

ولى كبد مقروحة من يبيعنى... بها كبداً ليست بذات قروح؟
اباها على الناس لا يشترونها... ومن ذا يشترى ذاعلة بصحيح؟!

ولكن الشعور بالخسارة لفقده، ذلك الشعور الذى مس أجيالا من مواقع ومستويات شتى، إنما يدل على استعداد فطرىّ لدى الغالبية العظمى من الناس لفرز الطيب من الخبيث، وعن إيمان بأن قيم النقاء والشرف ومقاومة الظلم ومساندة الحق والإخلاص فى الرأى بعيدا عن مواكب النفاق هى الأبقى!

إن رحيل الصديقين رجاء ومجدى معا وكأنهما على موعد، هو صرخة استغاثة اطلقها القدر تعبيرا عن توق شامل وعميق إلى قيم الحق والخير والجمال...

أدب ونقد رحمهما الله ولطف بنا!

شعر

تهريب الحوريات من الجنة

(مهداه إلى رجاء النقاش)

عبد المنعم رمضان

فيما مضى من الريح
فيما مضى من أوراق البردى
فيما مضى من الحمام
وشجر التوت
وأعشاش النمل
فيما مضى من كل بهو
كنت أخطط للبحث عن أيقونة جدّى
وعن رئة أبى
وقفت على سور عال جداً
هززت قدمى
التفتّ إلى المرايا الجوف
والمرايا المعتمة
كانت السماء تحتى
كانت الممرات التى تفصل الليل عن الليل
وكان ظلامٌ غفل
وكانت حقب مائلة
وحقب أخرى تعتدل
وكان الناس مثل أحفادهم
ومثل الوقت الضائع
ومصابيح الشرفة تنوى السطو على ما يبقى
كانت حافة الرجاء
قرب حافة جسمى
انتظرت
هززت أنقاضى وقدمىّ
نظرت إلى الأعلى
رأيت فيما رأيت ضباباً
رأيت خيول أعداء تنهب الرمل ولغتى
وخيول أعداء لا تنهب الرمل ولغتى
رأيت سقف كأنه سقفان
يليه سقف كأنه سقفان
يليهما السديم الذى
كنت أظنه السديم

احتميت بالأودية التى حول جسمى
وبالشمس الهاربه داخل ظلامى
لم أستطع ان انزع الخوف من دمى
لم أستطع ان انزع الندى
كانت المتاهات تظهر لى وتختفى
وسقف الصدى يظهر لى ويختفى
استعنت عليها بالأمثال
وعهد الراحة
ونشيد الإنشاد
استعنت على نفسى بالصمت
والآثار البائدة
خلعت أصابعى من كفى
غرستها فى أطراف الأرض
بعد قليل من اليأس
بعد اليأس
رأيت خيالاً يمشى
ورأيت أجنحة تتكاثر بين يديه
رأيت الرجاء على حدودى
والغابة على حدود اليأس
فالتجأت إلى الأيام الأولى
فيما مضى من الحيرة
فيما مضى من أوراق البردى
فيما مضى من كل بهو
نزلت عن سورى العالى جداً
بحثت عن رواق الفصول الأربعة
بحثت عن الزغب المكسوة به روحى
وعن الحشرات الناعمة
وعندما ضللت طريقى
رأيت الخيال نفسه
الذى رأيته منذ سطور يمشى
ورأيت الأجنحة التى تتكاثر بين يديه
وقبل أن يخصنى بالنعمة
كنت قد تشبثت بثيابه
وعرفت أنه الوحيد الذى سيقودنى إلى
الجنة
سألته: ما اسمك
فاستدار إلىّ جذبنى من لسانى
وبعد أن اجتزنا العتبة والردهة
بعد أن اجتزنا البابين الخامس
والسابع
بعد الحديقة
بعد مزرعة الحوريات
استطعت أن أشم رائحة يده
استطعت أن أتوق إليها
أن ألثمها
أن أمحو خطواتى، وأغمغم.
لا شىء لا شىء
لن أتكلم مثل العاصفة
لن أتكلم مثل الحنين
ثم استطعت أن أخرج
وورائى الحوريات
وعند منتهى الباب
عرفت أننى الوحيد المنبوذ من خلاياى
أننى الطاغية
والعميل السرى
والخائف
والمخبول
وأنه الوحيد الذى سيقودنى إلى

نفسى
سألته: ما اسمك
فاستدار إلىّ، جذبنى من حلقى
وحمل عصاه
اتجه فى كل مكان
فيما مضى من الريح
فيما مضى من أوراق البردى
فيما مضى من كل صوت
كنت ابحث عن القادر
أن يكون غيمة فى السماء
وغيمة فى الماء
وأن يكون عمود نور
وأن يكون قبطان الأيام القادمة
والذى يحمل عصاه
والذى هو هو
والذى أنا أنا
والذى لا تخشاه الحوريات
والذى لا يفنى
الذى لا يضيع
الذى ليس الرجاء قبله
الذى ليس الرجاء بعده
الذى يتجه إلى كل مكان
الذى سوف تحرسه الحوريات
سوف يغنى مع الحنين الخام
الذى سوف يغنى مع سارق الحوريات

أغنية سارق الحوريات

لو لم تكن شفتى
لو لم تكن أرضى
ومزرعتى
لو لم يكن فى البيت مارغبوا
لوهبتهم أسرار أغنيتى
لو أن مصباحى الذى عبثوا
بضيائه، لو أن محبرتى
هذا إذن بيتى وأغطيتى
هذى سراديبى وأوديتى
وشعاب مملكتى
هذى جذوعى كنت اقطعها
كالمستجير وهذه رئتى
وهناك أشعارى وألويتى
وهناك معصيتى
وهناك أهلى يسهرون معى
وهناك بعض دمى وأشرعتى
وهناك أستاذى يعلمنى
أن اختفى وأشيد صومعتى
فإذا أراه تخافنى لغتى
وإذا أراه أخاف من لغتى
وإذاه قبل الفجر يمنحنى
تاجى، وبعد الفجر أوسمتى
وحدوده تمشى على مهل
جهة الملاك العذب أو جهتى
لو لم يكن ، لو لم يكن دمه
مثل الرجاء ومثل أخيلتى
لو لم تكن شفتى
لو لم يكن قلبى وأغشيتى
ومياه حنجرتى
ما كان لى صوتى ومنزلتى.

قطعـــــة مـن روحــــــه!

طلعت الشايب

رجاء النقاش صاحب أفضال على كل من عرفوه سواء عن طريق القراءة والكتابة أو علاقة شخصية، وأنا أحد أولئك الكثر المدينون له بالفضل حيث عرفته وعملت معه واقتربت منه

وأفدت من فيضه الكريم علما وثقافة ومن تلك النفس ا لجميلة ،التى لا تجرى وراء أخطاء الناس، بل تحاول أن تنظر إلى الجانب الطيب والإيجابى والمشرق، وتحاول أن تساعد هذا الجانب من جوانب الحياة على النمو والازدهار، كما يقول وكأنه يصف نفسه الزكية. الدوحة فى منتصف الثمانينيات، وكنت أكتب من وقت لآخر بعض المقالات وأترجم مادة ثقافية ينشرها الصديق الشاعر حسن توفيق فى الملحق الثقافى لجريدة ،الراية، القطرية الذى كان يشرف عليه.

فوجئت ذات صباح بحسن يبلغنى ،الأستاذ رجاء النقاش عاوز يشوفك ضرورى،، كنت أعرف رجاء النقاش - طبعا - من خلال كتاباته ولكن لم يكن سبق لنا أن التقينا وجها لوجه، ذهبت للقاء رجاء النقاش - بمكتبه بمجلة الدوحة - الذى استقبلنى بمودة بالغة وراح - بذاكرة أذهلتنى - يناقشنى فى كل ما كتبت، حتى تلك التفاصيل التى كنت قد نسيتها، لم يكتف رجاء النقاش بإصدار شهادة ميلاد لى عندما قال لحسن توفيق إننى كاتب ومترجم محترف، بعد فترة قصيرة أبلغنى هو شخصيا بأن الأستاذ محمد العزب موسى مريض واعتذر عن عدم القدرة على الاستمرار فى تحرير باب نافذة على الثقافة العالمية بمجلة الدوحة، وطلب أن أقوم بهذا العمل مؤكدا قدرتى على ذلك، وكأنه أصبح ولى أمرى فى دولة قطر!، إذ بعد توقف مجلة الدوحة، واستعانة إحدى المؤسسات الخاصة بخبرته لإصدار مجلة أسبوعية ،أخبار الأسبوع، يختارنى محررا ثقافيا لها ويعهد إلى بتحرير مذكرات فتحى رضوان وثروت عكاشة وكان قد نجح فى الحصول عليها من أصحابها للنشر فى المجلة.

استمرت علاقتنا بعد عودتنا إلى القاهرة، اختارنى للعمل معه مديرا لتحرير جريدة القاهرة فى تجربة لم تكتمل، استكتبنى فى ،الكواكب، كان يتابعنى كما يتابع الآخرين ويحتفى بما أنشره من كتب مترجمة بالقول والكتابة علمنى ،أن الحقيقة التى ينبغى الا ننساها أبدا هى أن الثقافة بهجة تملأ القلوب والنفوس وتدفع الناس إلى العمل وهم متفائلون قادرون على الصبر واحتمال المشقات،، وأن النجاح مستحيل بدون ،عقل ضاحك، و،قلب متفائل، مسيرة رجاء النقاش الحياتية والإبداعية والإنسانية، وعلاقته بالبشر قصة تروى، وانحيازه لقيم الحرية والحق والخير والعدل والجمال مع غيره من كبار المفكرين والفنانين هو ما يحول الموت إلى حياة باقية لأن من يترك فيك قطعة من روحه ليس بميت!.

صـــــيـــــاد اللـؤلـؤ

سـنـاء البيـسـى

مكثت أغار منه لقربه الشديد من الأستاذ أحمد بهاء الدين رئيس تحرير أخبار اليوم وقتها، كان موقعه فى الحجرة الملحقة لمكتب الأستاذ الذى يقوم إليه فجأة ليحادثه طويلا على انفراد ثم يعود إلينا ليلقى علينا ملاحظاته المبتسرة كمجموعة

ولم أمكث زمنا تحت مظلة غيرتى من رجاء النقاش بعدما اجتمعنا معا على محبة بهاء وبعدما لمست فيه الحكاء الذى يجيد السرد ويمتلك ذاكرة تحتشد بحكايا الثقافة وطرائف المبدعين عبر الزمان ويسيل منه عذب الكلام عن الذين يملأون حياتنا أدبا وشعرا أمثال نجيب محفوظ ويوسف إدريس ونزار قبانى وكامل الشناوى وزكى نجيب محمود.. وغيرهم.. وغدونا أصدقاء فرجاء هو من يصادق ولا يعرف العداء. من يثق فى نفسه فيمجد مواهب الآخر. من ينقد ولا يجرح. من كلامه الهمس وصوته رنين العقل. من يصيبك بالفرح كلما التقيت به ويترك لك أغلى الذكريات كلما غاب عنك.

من يقرأ بتجرد ويكتب بتجرد. من ينقد فتتجدد طاقة الكتابة لدى من كتب عنه. من له لغة مختلفة عن اللغة التى تتردد على ألسنة المثقفين المتقعرين الذين يدججون كلماتهم بالشعارات. من أعتذر عن أى جمع قبل أن أعلم بقدومه إليه وعندما أعلم أكون فى مقدمة كشف الانتظار.. من تلقانى ابتسامته فأحظى بتوقيع الشطارة والمهارة والنجاح والفلاح واستمرار الكفاح. من أسمعه وأقرأه فأشعر بطمأنينة الغريب العائد إلى وطنه. من لم يكف عن صيد اللآلئ الحقيقية وأبدا لم تخدعه الشباك. من يتحدث بنوع من الصدق أقرب ما يكون

للتقـوى. من يمتلئ بطاقـة هائلة من التواضع أمـام النص الذى يتحدث عنه ويكشف أسـراره مستخدما لغة لا يتعاظم فيها ولا يستعرض ولا يقحم الأسماء الأجنبية ولا يختلس مكان الكاتب.. من يعشق التاريخ فأعشق تفانيه فى كشف كنوزه لأصبح على رأس طابور زيارة متاحفه الثرية وحدائقه الغناء.

من ينقب عن الجمال فيكتشف عشق شكسبير لامرأة فى لون الأبنوس وخطابات شعر الغرام بين أنور المعداوى وفدوى طوقان.. ابن النقاش ابن قرية منية سمنود بالدقهلية صاحب العيون الخضر الذى دعاه عبدالناصر عام ١٩٩٦ ضمن أعضاء المؤتمر الأول لكتاب آسيا وإفريقيا فدخل قصر عابدين للمرة الأولى لينبهر بناصر وبعابدين وقفنا فى صفوف متراصة ومر علينا عبدالناصر وصافحنا واحدا واحدا فرأيناه من قرب وأدركنا صحة ما كان يقال عنه من أن له هيبة وسحرا وجاذبية وعينين مليئتين ببريق استثنائى يأسر القلوب.. كان هذا كله صحيحافقد مستنا كهرباء عبدالناصر فاهتزت منا الأعصاب والمشاعر وأدركنا جميعا اننا فى حضرة رجل عظيم.. وبعد أن انتهت المصافحات انتقلنا إلى قاعة العشاء التى تبهر العيون وتخطف الأبصار من فرط جمالها وبهائها وكان سقفها كله مطليا بالذهب.

وكلما نظرنا إلى هذا الجمال وهذا الجلال شعرنا كأننا نعيش ليلة من ليالى الف ليلة مع فارق واحد هو أننا لم نكن أمراء ولا أصحاب مال أو سلطان بل كنا فى معظمنا فقراء أبناء فقراء ومن كان منا افضل من ذلك فهو فى أحسن الفروض من متوسطى الحالوكنا ندرك جميعا أنه لولا عبدالناصر الذى فتح لنا الأبواب وقال لنا ادخلوا ما كان لنا أبدا ان ندخل هذه القاعة الذهبية فى قصر عابدين ونحن آمنون بأن الشرطة لن تقبض علينا وتسىء بنا الظنون فقد كان قصارى ما نحلم به هو أن نرى الأسوار الخارجية لقصر عابدين ثم نعود إلى بيوتنا سالمين غانمين.

رجاء.. الخجول الذى يشتد خجله كلما تكاثرت من حوله أمواج الثناء فيسقط فوق وجهه قناعا من الجدية والوقار لا يرى ولا يسمع أصداء الإعجاب وينظر بعيدا وكأنه يبحث عن ذلك الشخص الذى يزجون إليه عبارات الثناء وكأنه ليس رجاء.. وكأنه ليس رجاء النقاش الذى غادر مقعده بجوارى فى مدينة دبى عام ٢٠٠٥ متعثرا فى خجله متقهقرا فى سيره كطفل يساق عنوة إلى سبورة الامتحان ليحل مسألة حساب مستعصية وكان رجاء يومها مدعوا للصعود إلى منصة التكريم العربى الكبير حيث قام الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم ولى العهد بتسليمه جائزة شخصية العام تقديرا لدوره الثقافى العربى الكبير.. ويومها بحثت عن صورة

المحتفى به لنشرها فلم أجده إلا متواريا فى آخر الصفوف لا يكاد يبين.. وتلك هى أخلاقياته وتصرفه ونهجه الذى لا يحيد عنه بالفعل او بالقلم كن عبقريا فى عملك او شخصية مهمة هنا أو هناك بما تملك من ميزات وجهود تبذلها ولكن عليك أن تعيش كإنسان طبيعى يتعامل مع الذين حوله تعاملا هادئا يسيرا بسيطا لا تكلف فيه.

ونمت بيننا أنا ورجاء زهور الوداد زمنا ادفع فيه عنه اى قول يخدش شفافية الصفاء لكنى عدت غصبا عنى أغار ثانية منه بسبب اقترابه من نجيب محفوظ إلى حد الجلوس إليه لمدة عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ مع خيوط الصباح ثلاث ساعات يوميا ليسجل معه ما يقرب من خمسين ساعة كاملة فى مقهى على بابا الصغير بميدان التحرير فى وسط القاهرة ليخرج بعدها بكتابه المذهل الذى حشد فيه الأفكار والآراء الجريئة بل والمثيرة احيانا التى سمعها من نجيب محفوظ أضواء جديدة على أدبه وحياته ورغم اقترابى من صاحب نوبل سنينا مديدة على الجانب الآخر حيث خصنى وحدى بجميع اعماله فظ بكنوز لا مثيل لها من خطاباته ومسوداته وأوراقه إلا اننى من بعد أن اهدانى رجاء النقاش كتابه المرجع الفريد عن محفوظ سامحته وعدت إلى موقعى منه شغوفة ابدا لحلو حديثه وعذوبة نقده وتجليات تواريخه واجتمعنا معا على حب محفوظ.

وتعكس لفظة المشروع عند رجاء النقاش مفهوم الإيجاز فى رؤيته للزعماء فيرى أن المشروع الناصرى كان فى أن تصبح مصر الصغيرة بلدا آخر قويا له تأثير محسوس على المحيط الذى تعيش فيه ومشروع السادات كان فى نظرته الواقعية التى تقوم على رفض الأفكار السابقة والاعتراف

بالحقائق الموجودة امام العين.... وفى تلك النظرة يرى النقاش جوانب إيجابية لأنها تقلل من تأثير الأوهام والخيالات والأحلام على المواقف والقرارات.... ولكن السادات فيما بدا للنقاش قد بالغ فى واقعيته وأضاف إليها لزوم ما لا يلزم..... أما عن الرئيس مبارك فلا يملك النقاش أن يقول عنه شيئا.... لأننى من المحبين له والمقدرين لجهوده كما اننى اثق فى وطنيته وإنسانيته وأنا مدين له كثيرا فلولا رعايته لى بعد محنة مرضى منذ اكثر من عامين لكنت الآن فى عداد الموتى منذ وقت طويل.... والحمد لله الذى قدر لى أن أكون موضع رعاية الرئيس مبارك وعنايته....

ويأتى مشروع رجاء النقاش نفسه بدخوله عش الدبابير حيث يطالب بالإصلاح الدينى وتحرير القرآن من قيود منها انعدام وجود تفسير

عصرى سهل للقرآن ومنها الإصرار على عدم كتابة مصحف بالخط العصرى المعروف والإصرار على ان تكون كل المصاحف مكتوبة بالخط القديم مما يشكل عقبة رئيسية امام كل الأجيال الجديدة التى تريد أن تقرأ فتجد فى كتابته عناء شديدا قد يصرفها عن القراءة ففى المصاحف الحالية نقرأ هذه الكلمات الصرط بدلا من الصراط والصلوة بدلا من الصلاة والزكوة بدلا من الزكاة وابصرهم بدلا من ابصارهم وظلمت بدلا من ظلمات والسموات بدلا من السماوات وجنت بدلا من جنات الخويرى رجاء أنه من واجبنا ولاشك أن نحتفظ بالمصحف القديم بخطه المعروف.

فذلك أثر عزيز من آثارنا لا يجوز أن نهمل فى المحافظة عليه ولكن يجب أن تكون لدينا الشجاعة الدينية الكافية لكى نطبع مصحفا خاليا من هذه الحروف التى تجعل قراءته صعبة إلا عند المتخصصين فى قراءة القرآن وليس هناك اى نص دينى مقدس يحرمنا من هذه الخطوة بل إن روح الدين تتمثل فى ان الدين يسر وليس عسرا وكل ما ييسر الدين بدون الخروج على جوهر مبادئه أمر مطلوب ويمضى رجاء فى قوله: إننى استفدت من القراءة المتأنية للقرآن الكثير من المعرفة باللغة العربية لا من حيث الألفاظ فقط ولكن من حيث التذوق والتصوير الفنى القادر على التأثير الكبير فى النفس وكنت شغوفا بحفظ القرآن الكريم فى السن المبكرة.

وقد ساعدنى والدى المرحوم عبدالمؤمن النقاش على ذلك لأننى كنت أجد صعوبة فى قراءة أى سورة وحدى ولا أتصور ان هناك من يحب الثقافة ويريد ان يكسب لنفسه ذوقا رفيعا سليما يمكنه من أن يصل إلى شيء من ذلك دون أن يقرأ القرآن قراءة فهم واستيعاب من الناحية اللغوية والأدبية والأخلاقية أما الناحية الدينية فمن البديهى أنها واجب على الجميع ولقد ساعدنى على تذوق القرآن أن جدى كان مقرئا للقرآن فى القرية وكان صاحب صوت جميل.. النقاش صياد اللآلئ فى بحور الفن والثقافة من كان بالنسبة للشعراء والأدباء الشبان المثقفين الواعدين بمثابة الحبل السرى الذى يربطهم بالحياة الأدبية فيطلون من خلاله عليها وعلى آخر منجزاتها ومن خلاله يتصلون بالقارئ صاحب النصيب الكبير فى تلميع وتثبيت أقدام كل الكبار المشهورين على الساحة الأدبية فى مصر والعالم العربى والسودان ويكفيه حفنة من لآلئه خطفت الأبصار فيها جاهين والطيب صالح وحجازى ومحمود درويش.

رجاء الشقيق الأكبر فى الأسرة الريفية الكبيرة العدد . ثمانية . التى حاربت من اجل تعليم ابنائها ولاحقتها البلهارسيا لتخطف الأم فى



شرخ الشباب ورغم أميتها فإنها كانت تميز اسم رجاء ابنها فى قصاصات الصحف والمجلات فتلملمها لتضعها فى خبيئتها تحت الوسادة لتنثرها زهورا من حولها ساعة الصفا وحين ماتت اكتشف الأنجال أنه ليس بحوزتهم لقطة تعكس ملامحها لتبقى صورتها القدسية فى مخيلتهم خالدة محفورة على جدران القلب ويحوم الموت بسبب البلاء المستوطن فى ريفنا المصرى الذى يسدد خنجره للكبد ليخطف وحيد الموهوب الشقيق الأثير لدى رجاء وتوءم روحه وجرحه الغائر الذى لم يندمل أبدا وتعبر الشقيقة الكاتبة الناقدة فريدة النقاش رئيس تحرير الأهالى عن مسارات العائلة المستنيرة زرع بؤس الفلاحين فينا وفى رجاء على نحو خاص خوفا طاغيا من المستقبل وكان قد تراكم فى الأصل من تجربتنا القاسية كأسرة فقيرة كبيرة العدد حاربت من اجل تعليم أبنائها.

وحين افترقنا على الطريق كان من أجل أن يؤسس كل منا حياة مستقلة فاخترت أنا ان أخوض فى عالم السياسة واختار رجاء أن يتفرغ للأدب وغضب منى لا لأنه يرى الا جدوى من السياسة وإنما خوفا على من البطش ولهذا اعترض على زواجى من حسين عبدالرازق لأنه هايودينى فى داهية وسرعان ما أصبحا صديقين طالعنى بين أوراق النقاش ورقة صفراء نيتها صفراء تاريخها يعود إلى الخامس من سبتمبر عام٧١ سطورها ثلاثة لا غير تقرر نقل رجاء النقاش رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون إلى وظيفة اخرى بعيدا عن أجهزة الإعلام حيث إن كبار المتآمرين فى مؤامرة مايو كانوا قد وضعوهم فى مواقع رئيسية ليقوموا بتنفيذ خطة التآمرسطور تهد الجبال لكن النقاش الجبل ظل شامخاحاملا سلاح قلمه الشريف ليشد الرحال إلى قطر ليؤسس ولو على الضفة الأخرى رواسخ المعارف التى ارتفعت بينها راية مجلة الدوحة.

وفى جميع المحن فالنقاش محظوظ رفعت والدته يوما يديها للسماء ودعت له أن يرزقه ببنت الحلال الهادية النادية فمنحه الله خيرة الزوجات طبيبة الأطفال الدكتورة هانية عمر التى أنجبت له سميح المخرج التليفزيونى والابنة ميس النقاش الغواص فى بطون التاريخ الثقافى والاجتماعى والسياسى المصرى البعيد والقريب من يلومون عليه انصرافه الآن عن الواقع الثقافى والأدبى المصرى الراهن الذى فى أشد الحاجة إلى قلمه الصادق لفرز الغث من الثمين لكنه يا سادة الغوص المطلوب أيضا بإلحاح وبشدة لمهارة صاحبه فى اصطياد أحداث لها دلالاتها إنه الشوق إلى الماضى الذى يطابق الحاضر..... العودة لتراث خفى عنا بفعل فاعل

ويجهل إلقاء الكراكيب القديمة بدعوى شغلها للمكان الذى سوف تزف إليه العرائس الجديدة والشقة زحمة والمطرح ضيق واحنا أولاد النهاردة.. بالله عليكم من كان منا بدون رجاء يعرف كمثال أن أم كلثوم التى صاحبها رجاء فى أكثر من جولة فنية فى السودان وليبيا ونسج من لقاءاتهما الحوارات أنها كانت أول فتاة تمشى بين الرجال فى الشارع تشيع جنازة رجل من تسعين عاما عندما قررت أن تمشى خلف نعش أستاذها الشيخ العظيم أبوالعلا محمد.

أو أن الإمام محمد عبده كان فى منفاه بباريس يدخل الأوبرا الفرنسية بصحبة الأميرة نازلى فاضل وهو بالعمامة أو أن الشيخ طه حسين فى فترة تعليمه بالأزهر لم يجد حرجا من دينه ولا أخلاقه فى كتابة أغنية يقدمها للموسيقار كامل الخلعى لتغنيها منيرة المهدية وتسجلها شركة الفونوغراف فى اسطوانة مكتوب عليها من كلمات الشيخ طه حسين وتقول عباراتها الرقيقة.

أنا لولاك كنت ملاك غير مسموح أهوى سواك.. سامحنى
فى العشاق أنا مشتاق أبكى وأنوح بالأشواق صدقنى
عهدك فين يا نورالعين بالمفتوح تهوى اتنين جاوبنى
واحد بس يهوى القلب قلبى يبوح له بالحب طاوعنى
أنا أهواك ومين قساك أنا مجروح وغايتى رضاك واصلنى
ما أحلاك وقت رضاك لما تلوح ما أبهاك كلمنى

ويقطع النقاش الشك باليقين فى أمر تقبيل طه حسين ليد الملك فاروق بنشره رسالة طه إلى رئيس تحرير روزاليوسف أنت لا تعلم أن فاروق أرسل إلى الرسل بالمغريات سنة خمس وأربعين (١٩٤٥) فلم يجد إلى إغرائى سبيلاوإنما رددت رسله ردا رفيقا كريما فيه كثير من ارتفاع عن الصغائر ولو شئت لبلغت من فاروق وسلطانه وماله وجاهه ما أردت ولكنى لم أرد لأنى رأيت الكرامة والوفاء والصدق فى خدمة الوطن أغلى من المال والسلطان ولأن الشىء بالشىء يذكر فقد شهد شاهدان أمام محكمة الثورة بأنى قمت مع غيرى من الوزراء بتقبيل يد فاروق والله يشهد ما قبلت يد فاروق ولا يد أبيه ولا يد عمه السلطان حسين ولا يد ابن عمه عباس حلمى الثانى حين كان أميرا لمصر ولا يد ملك من الملوك الذين لقيتهم قط والله يشهد أننى ما قمت بتقبيل يد أحد من الناس إلا أن تكون يدى أبوى أو يد بعض شيوخنا فى الأزهر

رحمهم الله ولا أستثنى من ذلك إلا يد سيدة أجنبية كانت ترفع يدها بشفتى إلصاقا.
واضحك من ذلك إن شئت واعبث به إن أحببت فليس عليك فى الضحك والعبث جناح ومن كان سيعلم إذا لم يخبرنا رجاء بأن الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت عندما قام بزيارة جامعة القاهرة الأهلية التى يرأسها الأمير أحمد فؤاد فى لأعترض فى عام ١٩١٠ اعترض خطابه على وضع دستور للبلاد بحجة أن المصريين ليسوا أهلا بعد لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن يحمدوا الله على نعمة الاحتلال الإنجليزى وعليهم الانتظار سنوات طويلة حتى يمكنهم التفكير فى حكم أنفسهم.. واشتعلت البلاد بالغضب وقاد محمد فريد مظاهرة الاحتجاج إلى فندق شبرد محل إقامة روزفلت مطالبين بسقوطه، وانهالت عليه رسائل السخط ومنها رسالة بالفرنسية كتبها ثلاثة من المحامين المصريين جاء فيها، إنك أردت مجاملة الإنجليز على حساب المصريين ومن كان خليفة واشنطن العظيم يجدر به أن يقدر الحرية حق قدرها.. وسارع روزفلت بالهرب ولم تكن الطائرة قد ظهرت حتى ذلك فاستقل القطار من محطة مصر الثائرة لمحطة الإسكندرية الهادرة إلى الباخرة حيث لم تستغرق زيارته للبلاد سوى ثلاثة أيام مهرولة ليغادرها غير مأسوف عليه.
وعمره بالعمر الصديق الغالى رجاء النقاش لا أسمع منه إلا كل جميل ولا يهدينى كتابا جديدا له إلا مكللا بمشاعره العطرة المرة الوحيدة التى لم نتفق فيها كانت عندما كتبت فى الأهرام بتاريخ ٢٠٠٧/٥/١٩ مقالا حول عرابى المفترى والمفترى عليه لقد عاد الصديق من أجازته المرضية ليجد فى بريده رسالة عتاب من أحد قرائه الأفاضل حول ما كتبته مدعما بالوثائق والمراجع الموجودة فى دار الكتب المصرية والتى لم تخرج إلى النور من قبل.
فقام رجاء بنشر الرسالة معقبا بأن عرابى قد تعرض لاتهامات ظالمة وملفقة وحرب لا هوادة فيها وحرمان من ممتلكاته حتى عاش فى سنواته الأخيرة فى عسر عظيم ويكفى الإشارة إلى واقعة مرضه بسرطان المثانة وما أدى إليه هذا المرض من وفاة الزعيم الكبيرولم يكن لدى أولاده من المال ما يكفى لتجهيزه ودفنه فاضطروا إلى عدم إعلان نبأ وفاته إلى اليوم التالى حتى قبضوا معاشه ..الخ.
ولم أكن أعلم بأننى عندما جسرت على الكتابة عن عرابى قد تعديت خطوط النقاش الحمراء وأننى بدون قصد قد دخلت عش دبابيره وأننى عن جهل قد لمست وترا حساسا لديه لم يكن لدى علم به حتى قرأت سيرة رجاء النقاش الشخصية وقوله على لسانه عملت فى مجلة الإذاعة الأسبوعية مراجعا لكل المادة

التى تنشر وكنت لم أزل طالبا فى السنة الثانية بكلية الآداب وكان أول رئيس تحرير لها اسمه عبدالعزيز أحمد عرابى وهو النجل الأصغر للزعيم عرابى وسبحان الله كان عبدالعزيز صورة طبق الأصل من والده العظيم وكنت كلما رايته اهب واقفا واحيانا مذعورا لأنى كنت أتخيل ان ما أعيشه ليس حقيقة وإنما هو وهم وخيال وكان الرجل يسعد لمعاملتى له وإن ظل مندهشا من شدة مبالغتى فى إجلالى واحترامى له!!

رجاء النقاش الذى كان يتمنى أن يكون أكاديميا مثل أساتذته ورغم رسالة الماجستير التى قدمها فى سكة الدكتوراه تحت إشراف الدكتورة سهير القلماوى إلا أن الصحافة سرقته من الحلم الذى ظل منطويا عليه لا يفارقه من بنى لنفسه فى جدية وصرامة مكانته كناقد أدبى حيث يقول ،تعبت على نفسى، جميل الخلق والخلقة صاحب الموهبة الفذة التى أفنت عمرها بين فكى المطبعةأحد الذين عشقوا الكلمة وأخلصوا لها من انطلق من منتصف الخمسينيات يقدم القصة والرواية والديوان الشعرى والمسرحية والعمل السينمائى والتليفزيونى محتفيا بالجاد والأصيل والجديد لا يفرق فى اهتماماته بين مكتمل الأدوات مثل نجيب محفوظ أو شاب يخطو أولى خطوات المسيرة.

الناقد المبدع الذى جلس عشرات مئات آلاف الساعات يكتب لننهل منه وننتظر رأيه وتقييمه العادل الذى لا يجامل ولا يخلط الخاص بالعام ولا يتعالى على القارئ بعبارات اللوغاريتمات ويكتب بأسلوبه السهل الممتنع الذى يظهر الإيجابيات من قبل السلبيات الذى يتقى الله فيما يكتب المثقف المتواضع البسيط دون إفراط أو تفريط النقاش الذى عاش واقع صحافتنا المحنة وليست المهنة صحافة لا تقوم على تقاليد راسخة مهما قيل فيها وعنها من مواثيق وعهود ولوائح مهنة محنة ليست مثل غيرها من المهن فلا مكان للسن أو الخبرة وليس هناك من يفرض عليها أن تحقق الراحة والوقت لمن بذلوا فيها جهدا كبيرا وأضاعوا عمرهم عليهافأنت فى الجامعة كمثال إذا ما وصلت إلى منصب الأستاذ لا يستطيع كائن ما كان أن يعيدك فجأة إلى منصب المعيد أو إلى مدرج الطلبة أو لتقديم صينية القهوة لسيادة العميد ولكننا فى صحافتنا لا نتهيب من شىء أو نضع فى عيوننا حصوة ملح.

فأنت تصل إلى منصب مرموق ثم فجأة تجد روحك خاضعا لشلوت اطلع لى برة فجأة تعود إلى مقاعد صغار المحررين فلا مكتب لك ولا تحية لك ولا سيارة لك، بل إنك بعد الجهد المرير والعمر الطويل فى خدمة المحنة قد تجد صعوبة بالغة فى نشر كلمتك والتعبير عن نفسك إنها مهنة بلا وفاء لأهلها خاصة من



بعد سقوطهم فى جب التعب.. وتظل كلمات رجاء النقاش شاهدة على هذه المحنة المهنة.. كلمات قالها وهو لم يزل فى الستينيات فى وقت لم يكن يعرف فيه أن مشوار التعب لم يزل طويلا طويلا ليدركه فيه المرض ويجعلنا جميعا فى لهفة عليها نبتهل إلى الله له بالشفاء والعافية ليظل يتعب على نفسه صدقونى إذا قلت إننى أعمل فى الصحافة الآن كما كنت أعمل عندما بدأت حياتى الصحفية وأنا طالب فى الجامعة.. نفس الجهد.. نفس التعب..نفس المعاناة أبدا لم تحفظ لى هذه المهنة قيمة الجهد الكبير الذى بذلته بحيث أجد من حقى أن أعمل بهدوء وبكمية أقل ونوعية أرقى.

وليس هذا حالى وحدى فهو حال الكثيرين غيرى ألهث فى ساحة العمل الصحفى كما يجرى أى شاب صغير من أجل لقمة العيش وحق قولك فينا يا رجاء فهى المحنة التى تأكلنا لحما وترمينا عظما ■

فارس الأدب الجميل

فرانسوا باسيلى
(نيويورك)

قدم رجاء النقاش للأدب العربى والثقافة العربية اسهامات جليلة يندر أن يقدمها شخص واحد، وذلك عبر مايزيد عن نصف قرن من العطاء والابداع فى مجالات النقد والادب والصحافة

وكما كتبت فى حياته بروح التقدير والعرفان اكتب اليوم فى حب رجاء النقاش، ذلك الفارس النبيل لأدب الزمن الجميل، وللرجل افضال ادبية شاملة على جيلى كله، وافضال أدبية بالنسبة لى شخصيا، يهمنى هنا أن اكتب عنها .

كثيرا مايعجب قارئ بكاتب او مبدع او شاعر اعجابا شديدا من خلال قراءاته له حتى يقابله ويتعرف عليه فيصدم فيه كشخص وانسان، فكثيرا ما توجد هوة شاسعة بين مايكتب المبدع من أحلام ورؤى شاهقة ويرفع من رايات خافقة ملونة وبين واقع هذا المبدع وأخلاقياته وسلوكه اليومى.

وقد حدث هذا لى فى مطلع تعرفى بالوسط الأدبى فى مصر وكنت طالبا بجامعة القاهرة فى نهايات الستينيات وبدأت فى التردد على مقاهى ريش والاتيلية وغيرها من اماكن تجمع الادباء والشعراء واقتربت من بعضهم شخصيا فكان هذا اللقاء ــ المفجع وقتها ــ احد مراحل نضوجى الشخصى واكتسابى لمعرفة الفرق بين مايمكن ان يقوله ويبدعه الانسان وبين مايفعله كل يوم.

وكان رجاء النقاش من القليلين الذين لم افجع عند الاقتراب منهم،

بل على العكس. فقد كان فى شخصه وقوله ومسلكه كما هو فى كتاباته، نفس المبادئ النبيلة والمشاعر الجميلة والترفع عن السفاسف والبذاءات اللفظية والفعلية معا. ويمكن ان يلقى لقائى الأول برجاء النقاش ضوءا على إحدى خصال هذا الناقد الادبى الهام فى علاقته بالادباء الناشئين.

فعلى اثر تخرجى من كلية هندسة القاهرة فى صيف هزيمة ٦٧ الهائلة بدات استكشاف الوسط الادبى فى مصر، الذى كان يتناقل قصيدة هوامش على دفتر النكسة لنزار قبانى الممنوعة فى مصر تناولا سريا سحريا، فقد كانت هى المرة الاولى فى عمر جيلى جيل الثورة التى نقرأ فيها كلمات بها اى نقد للثورة ولزعيمها وللحالة العربية بشكل عام. وفى جو الاحباط العام والانكسار القاتل واليأس الشامل بعد ضربة الحرب السريعة الباطشة. كتبت قصيدة قصيرة جدا وارسلتها لمجلة الهلال فى براءة كانت بلاشك وراء جرأتى فى ان ارسل للهلال مرة واحدة وهى اهم مجلة ثقافية فى مصر منتظرا ان تنشر لى قصيدة وانا لم انشر فى اى مكان من قبل!

وبعد ذلك بايام عدت الى البيت ذات مساء ليقول لى أبى أن رجاء النقاش اتصل تليفونيا يريدك ان تقابله . وفعلا ذهبت الى مكتبه وانا اكاد اطير من الدهشة المصحوبة بالتوجس من ان يكون الغرض من المقابلة هو تقديم النصيحة المعتادة من ناقد كبير لشاعر ناشئ بأن يستمر فى المحاولة والمثابرة لعله يكون من الممكن نشر شئ له فى المستقبل.

وحين دخلت الى مكتبه فى خجل وتردد قابلنى رجاء النقاش بدفئه الانسانى الذى لايفارقه مما اراحنى كثيرا . وكان فى مكتبه احمد عبد المعطى حجازى وأعطى النقاش قصيدتى لحجازى فقراها وأثنى عليها وقال لى النقاش انه سينشر قصيدتى القصيرة قريبا. وفعلا نشرت ، وقد كتب النقاش بعد ذلك بما يقرب من ثلاثين عاما عن هذا اللقاء مقالا عنى بجريدة الاهرام بعنوان الشاعر لايضيع (١٧ مارس ١٩٩٧) .

هذا هو الأسلوب المدهش الذى يتعامل به رجاء النقاش مع الادباء الناشئين فهو يبحث عنهم ويشجعهم وينشر لهم بلا قيد ولاشرط ودون ان يطلب او يتوقع منهم تلك الطقوس الطويلة التى يتطلبها غيره، طقوس الاطراء والمديح والنفاق وتقديم فروض الولاء والطاعة، ولم اكن اجيد أيا منها، وللمقارنة اقول أننى فى نفس تلك الفترة قابلت وأعطيت اشعارى لنقاد مصريين آخرين، هم د. لويس عوض وكان من اكبر نقاد مصر وقتها، والناقد المميز غالى شكرى والاستاذ الكبير يحى حقى، ولم احظ بتشجيع جميل وحنون من أحدهم سوى من الاستاذ العظيم

يحى حقى، الذى نشر لى ثلاثة قصائد مرة واحدة فى عدد واحد من مجلة المجلة المصرية.

اما الدكتور لويس عوض فزرته فى مكتبه واستنتجت من اسلوب حديثه معى ان الحصول على تشجيعه ستكون عملية مجهدة طويلة الأمد ، وكان مكتبه فى الاهرام بالغ الفخامة ، ولكنه لم يعرف عنه طوال حياته النقدية سوى احتضانه لشاعر واحد هو صلاح عبد الصبور. ولم يكن مهتماً باكتشاف المواهب الناشئة.

رجاء النقاش قدم للأدب العربى عددا كبيرا من الادباء باحتضانه وتشجيعه لهم وتقديم اعمالهم باحتفاء وحماس وبلا قيد او شرط.

وقد ذكر عدد لابأس به من الكتاب كيف كان لرجاء النقاش معهم مواقف مشابهة لموقفه معى، فلديه دائما ذلك الاهتمام الشديد بالمواهب الجديدة. يتعامل معها بحنو واحترام ومحبة شخصية وامانة عفوية هى خصال اساسية فى طبيعته النقية الجميلة.

يتميز رجاء النقاش بدفء انسانى يلفحك بمجرد اقترابك منه تبثه شخصية مصرية اصيلة تنضح بعذوبة البساطة وعفوية ومرح المصرى ابن البلد الذى يمنح بكرم وتلقائية من جيبه ومن نفسه معا. اضف الى ذلك احساس مرهف بالفكاهة يتميز بها معظم المصريين ولكن يفقدها الكثير من الكبار الذين تستولى عليهم مشاعر التعاظم والتكبر وانتفاخ الذات، ولقد لمست الدفء وعذوبة البساطة فى رجاء النقاش عندما زرته فى مكتبه بدار الهلال عام ١٩٩٨ بعدما كتب عنى ذلك المقال الطويل بالاهرام لأشكره. ولكنه أصر على ان يأخذنى معه للعشاء فى احد مطاعم السيدة زينب الشعبية الجميلة. وهناك مع اطباق المشويات ومشروب اسمه ويسكى ابن البلد لم يكن به اى شئ من الويسكى ولكن كان مزيجا من الشوربة الساخنة وماء المخلل والشطة وربما الحلبة وكان لشدة سخونته وحرقته يلدغ (الزور) ويدفء الجسد فاعلا فيه فعل الويسكى ولكن بدون الخدر العقلى، حدثنى النقاش ليلتها بحماس عن كتابه الجديد عن نجيب محفوظ وحدثته عن اعجابى بالعرض المميز الذى حضرته عن حرب العبور. وسألته ان كان هناك اعمال فنية اخرى مماثلة عن حرب العبور. فقال لى فى مزيج من الاستنكار والدهشة: تسألنى الآن بعد ربع قرن عن حرب العبور، ان مشكلتنا اليوم هى العبور من ميدان التحرير الى ميدان رمسيس ! وضحكنا معا ضحكة مجلجلة لم تكن ماوراءها من حسرة خافية على أحد■



رجاء في المساء الأخير

حسن طلب

تلك أيام اقلام أهل الغرض
هكذا كنت فى مرضى أختلى
وأحدث نفسى
وكم كنت احتال..
حتى أروض يأسى
فأشعر فى محنتى أننى:
لم أكن قبل قط صحيحا معافى
كمثلى هذا المساء
أحدث نفسى لتنسى
- على بطشة - الداء
ننسى الدواء
وما كان من أحد يتطلع..
ما كان يسمع
غير صديقى الوحيد..
صديقى اللدود: المرض!

٢

تلك أيام اقلام أهل الغرض،
وأنا - ربما فى غدر -
ان أن أستريح..
وسوف أكلم بنتى «ميس»..
أو ابنى «سميح»..
كما والدى كان بعد الوفاة
يكلمنى
فأقول: اذكرا الآن جدكما
فهو أول من كان علمنى
ثم ألهمنى القابضون على الجمر
فى زهرة العمر -
والأنبياء
فقلت: انتبه يا «رجاء»..
إذا ما كتبت..
وأن هرول الصاعدون..
على سلم القصر



قف حيث أنت..

فلا يذكر اسمك فيمن ركض

٣

تلك أيام أقلام أهل الغرض

آه لو علموا بعض ما أعلم الآن!

لو أدركوا هول ما سيكون..

فتابوا.. وآبوا إلى الحق..

واستهونوا كل ما كان!

لو ادركوا بعيون البصائر..

رعب المصائر!

لو مسحوا الصدأ

المتكلس..

فوق جلود الضمائر..

لو اقرضوا الله!

فالله من خلقه يقترض!

٤

تلك أيام أقلام أهل الغرض

وأنا الآن لا حول لى

لست إلا رفات امرئ مات..

يرقد.. والقلم الحر فى يده

والتراب السرير..

إلى أن يشاء القدير..

فإن قال - سبحانه - انهض

نهض!

سهيل ادريس شجاع لعب دور الثوار المؤثرين

رجاء النقاش

شهادة كتبها عن سهيل إدريس الناقد الراحل رجاء النقاش فى عمود «ضواحى الفضفضة» بصحيفة «أخبار الأدب» المصرية فى ١ يونيو (حزيران) عام ٢٠٠٣، وقد عمل رجاء النقاش مراسلاً أدبياً لمجلة «الآداب» بالقاهرة لعدة سنوات منذ ظهورها.

سهيل إدريس شخصية أدبية بالغة القيمة والأهمية فى الثقافة العربية الحديثة. وهذه الشخصية لا تقوم على جانب واحد من جوانب الأدب أو العمل الفكرى، ولكنها شخصية تقوم على التنوع، ولا يمكن فهمها ولا إعطاؤها حقها من الفهم والتقدير إلا بالنظر إليها من عدة جوانب فى وقت واحد. وأول جانب أحب أن أتحدث عنه هو جانب شخصى يتصل بى، فتأثير سهيل إدريس فى حياتى الأدبية هو نموذج من عشرات النماذج التى تمثل تأثير هذه الشخصية المهمة على الكثيرين من أبناء جيلى. فقد بدأت حياتى الأدبية حوالى سنة ١٩٥٢، وكنت فى الثامنة عشرة من عمرى وذلك بالعمل كمراسل لمجلة «الآداب» التى أصدرها سهيل إدريس كما أذكر فى ذلك العام فى بيروت. وكان عملى كمراسل فى القاهرة بترشيح من أستاذى الناقد العظيم والإنسان النبيل أنور المعداوى. ولم يكن أحد يعرفنى فى تلك الفترة، غير زملائى وأساتذتى، ومع ذلك لم يتردد سهيل إدريس فى قبولى كمراسل لمجلته الشهرية المهمة، التى كانت فى ذلك الوقت أهم مجلة أدبية عربية على الإطلاق. ولم يكن سهيل إدريس يعرف عنى شيئا أكثر من قراءته مقالا لى كنت أرسلته إليه ونشره على الفور، وكان عنوان

المقال فيما أذكر هو «الماضى المرفوض» وكان المقال يعبر عن ضيق شديد بسيطرة الأفكار الأدبية القديمة ووقوفها فى وجه التجديد والبحث عن صورة عصرية للأدب العربى تتناسب مع مشاكلنا الراهنة وهمومنا التى لم يعرفها السابقون علينا. وربما كنت فى هذا المقال مندفعا ومتهورا فى الهجوم على الماضى الأدبى العربى، وهو أمر عدلت عنه تماما فيما بعد، ولكن المقال مع ذلك كان يعبر عن حنين كبير إلى شىء جديد مختلف فى الأدب والثقافة والحياة. وما فعله سهيل إدريس معى، وأنا المجهول الذى لا يعرفه أحد، يمثل الموقف العام لسهيل إدريس. فقد كان رائدا فى تجديد الحياة الأدبية العربية، وكان يبحث عن أجيال أدبية جديدة يحتضنها ويقدم لها العون، أى أنه كان يبحث عن بناء مستقبل أدبى عربى جديد، ولم يكن أديبا تقليديا يكرر ما هو موجود ويدفع عن الواقع القائم. بل كان مكتشفا وصاحب نظرة أصيلة تريد أن تضيف إلى الأدب العربى والمجتمع العربى أجيالا جديدة. فهو من هذه الناحية صاحب ريادة وفضل لا ينساه أحد، لأنه فتح الأبواب الواسعة أمام تيارات أدبية جديدة تماما، ولم تكن هذه التيارات تجد فرصة للتعبير عن نفسها، وفى اعتقادى أنه لولا سهيل إدريس لتأخر ظهور هذه التيارات الأدبية الجديدة لمدة لا تقل عن عشر سنوات أو عشرين سنة، مما كان سوف يضعف منها ويجعلها محدودة التأثير ويفقدها حيويتها وقيمتها الحقيقية.

فى سنة ١٩٥٨ صدر لى أول كتاب وهو «فى أزمة الثقافة المصرية» وقد قام سهيل إدريس بنشره فى «دار الآداب» التى يملكها، وكتب للكتاب مقدمة مهمة وجميلة جدا، وبذلك فأنا أعتبره صاحب الفضل الأول فى تقديمى إلى الحياة الأدبية بدون تردد من جانبه. وكنت أيامها فى الثالثة والعشرين من عمرى. أى أنه أخذ بيدى وأنا فى أول الطريق. وهذا ما فعله مع كثيرين غيرى من أبناء جيلى ومنهم صلاح عبد الصبور، وأحمد حجازى، وأبو المعاطى أبو النجا، وسليمان فياض، ومحى الدين محمد، وإبراهيم أصلان وغيرهم كثيرون.

هذا عن الجانب الشخصى، أما الجانب العام الذى يمثله سهيل إدريس فهو جانب آخر عظيم الأهمية. فسهيل إدريس هو الذى ساند حركة «الشعر الجديد» التى كانت تعانى من الاختناق والحصار فى الخمسينات من القرن الماضى، وحركة الشعر الجديد بكل تياراتها هى التى جددت الشعر العربى ودفعت إلى شرايينه بدماء قوية أعادت إليه النضارة والحيوية والشباب، وهذا تأثير لسهيل إدريس من أكبر التأثيرات التى تركت على وجه أدبنا الحديث علامة أساسية.

على أن هناك جانباً مهماً جداً، كان البطل فيه هو سهيل إدريس الذى

تبنى فكرتين كبيرتين وهما «العروبة» و«الالتزام». أما العروبة فقد أخرجت جيلنا الأدبى من النطاق الاقليمى الضيق، وأصبحنا نشعر أننا نكتب ونقرأ ونتعامل كأفراد من أمة كبيرة واسعة هى الأمة العربية. وأنا واحد من الذين ترسخت مشاعرهم العروبية بفضل سهيل إدريس، أى أنه هو الرائد الذى نقل أمثالى من الإحساس الإقليمى المحدود إلى الإحساس القومى الوطنى الشامل.

أما فكرة «الالتزام فى الأدب» فإن سهيل إدريس هو الذى قام ببناء هذه الفكرة وترسيخها فى الثقافة العربية الحديثة. وأهمية هذه الفكرة الخطيرة أنها أتاحت للكثيرين من الأدباء أن يرتبطوا فى مشاعرهم وإنتاجهم بمجتمعاتهم وما فيها من مشاكل، بدون أن يضطرهم ذلك إلى الارتباط بنظريات تميل إلى السياسة وتجور على الأدب مثل النظرية الماركسية، ولولا فكرة الالتزام لأصبحت النظرية الماركسية فى الأدب هى السائدة. وأظن أن الماركسية الأدبية بسبب صرامتها الشديدة كانت من النظريات القاتلة للإبداع الأدبى الحر. وقد تخلص الكثيرون من هذه المصيدة بفضل فكرة الالتزام التى تبناها سهيل إدريس ودعا إليها بقوة وأصالة.

فالالتزام يربط الأديب بمجتمعه بدون أن يغرقه فى السياسة وبدون أن يقتل فيه روح الإبداع الحر المستقل.

وأنتقل من هذا كله لأتحدث عن جانب آخر مهم فى شخصية سهيل إدريس هو جانب كتاباته المختلفة، فقد أصدر سهيل إدريس مجموعات عديدة فى القصة القصيرة، كما أن له ثلاث روايات مهمة لعلها تكون أهم روايات عربية صدرت فى لبنان حتى الآن، وهى «الحى اللاتينى» و«الخندق الغميق» و«أصابعنا التى تحترق»، وهذه الروايات تكشف عن موهبة فنية عالية جدا عند سهيل إدريس. ولو أن سهيل إدريس تفرغ لكتابة الرواية فقط لحقق فى هذا المجال قفزات عالية، لأنه كان فى أعماله يجمع بين أصالته العربية وثقافته العصرية، وكان يعالج بعمق وجمال مشاكل مهمة يعانى منها المجتمع العربى المعاصر.

على أن النظر لسهيل إدريس كروائى فقط هو أمر خاطئ، فسهيل إدريس من طراز طه حسين، أى أنه كان دائما يجمع بين الكتابة والعمل وتبنى الدعوات الجديدة والأفكار التى تدعو إلى النهضة والتقدم، ولذلك فإن قيمة سهيل إدريس تعود إلى التنوع فيه ككاتب، وناشر، وصاحب مجلة مهمة عمرها الآن يزيد على خمسين سنة. وسهيل إدريس مهم جدا كصاحب دور كبير فى اتحاد الادباء العرب



حيث كان يقف دائما فى هذه المنظمة الثقافية إلى جانب الحرية ويدافع عن الاحرار، ولا يهدأ له بال إذا كان هناك اديب مضطهد او كتاب مصادر، إلا ويعمل مجتهدا ومجاهدا فى سبيل الدفاع الشجاع عن كل ما يستحق الدفاع عنه.

هذا هو «بعض» وليس «كل» سهيل إدريس، فلهذا الرجل الكبير دور هو عندى يشبه دور الزعماء المؤثرين فى بلادهم والمؤسسين لعصور جديدة من الحرية والإبداع والفكر الذى يضيف إلى مجتمعه ويغيره إلى الأفضل، وليس الفكر الخامل النائم الذى لا يقدم ولا يؤخر. ولذلك فسهيل إدريس يستحق الكثير من الاهتمام والدراسة التفصيلية منى ومن غيرى ممن يعرفون فضله ويقدرون دوره العظيم ■

الصديق الأثير

د. ثروت عكاشة

ماكدت أقرأ خبر رحيل أخي الحبيب رجاء النقاش حتى أخذتني الصدمة وملكت على حواسي. إذ لم أكن لأحتمل الفجيعة في ذهاب هذا الصديق الأثير الذى أكننت له على الدوام كل إعزاز وتقدير.

وما تمالكت نفسى وأخذت القلم لأكتب هذه الكلمة، وجدت الكلمات تفر منى والقلم يجمد فى يدى من فرط التأثر. ولم أجد مسعفا يعبر عما تجيش به نفسى من أسى غامر إلا العبرات الملتهبة والبكاء الشخين. وكيف لا أبكيه وقد كان، يرحمه الله، رقيق الحاشية، عذب النفس، حلو الحديث... تجالسه فتشعر بأنك حيال قديس يسمو بشمائله كثيرا عن مستوى البشر. ولعل سر هذا الشعور الذى يعتريك فى حضرة النقاش أنه كان إنسانا بمعنى الكلمة.. أحب الناس كثيرا فكان محبا للبشر. لم يكره أحدا على الإطلاق. حتى الذين تسببوا له فى بعض الأذى.

ولقد عرفته ميالا بطبيعته الى نصرة الحق وإنصاف المظلوم، مبادرا الى عون كل من يحتاج الى مساعدة. وإنى لأدين له بالكثير من مواقف الشجاعة التى سأظل أذكرها ما حييت. والى جانب هذا كله، فغنى عن البيان ان أؤكد مكانته ككاتب منور، وناقد قدير محايد، وصحفى ذى قلم وطنى صدوق... وأنا لا أقول هذا على طريقة أذكروا محاسن موتاكم. إذ ليست لرجاء مساوئ تخفى ومحاسن تذكر، وانما هو رجل ذو سيرة عاطرة ستبقى مذكورة بالخير الى الأبد...ـ كما أنه ليس من الراحلين، بل هو باق بيننا حى بكتاباته الجميلة الوسيمة وذكرياتنا الحلوة معه.

لقد رحلت عنا بجسدك يارجاء، ولكن ستبقى روحك الطاهرة السامية تحيا بيننا دوما...ـ ولن يعزينى عن فقدك فى الدنيا إلا أننى قريب عهد بلقياك فى رحاب الله، حيث لا خوف بعد من رحيل آخر.

أدب ونقد

أقــــلام:

رجاء النقاش/ أحمد عبد المعطى حجازى/ محمد سلماوى/ فاروق جويدة
فاروق شوشة/ عبدالعزيز المقالح/ أبوبكر السقاف/ محمود درويش
مكرم محمد أحمد/ محمد حافظ دياب/ محمد حسين أبوالعلا
قاسم مسعد عليوة/ رفعت السعيد/ سناء البيسى/ حسن توفيق/ جورج جرداق
فريدة النقاش/ جابر عصفور/ صلاح عيسى/ ثروت عكاشة/ صلاح فضل
أمينة النقاش/ شعبان يوسف/ فرانسوا باسيلى/ عيد عبدالحليم/ ماجد يوسف
عبدالمنعم رمضان/ طلعت الشايب/حسن طلب/ سلامة أحمد سلامة/ حلمى سالم.



الأمل للطباعة والنشر رقم الإيداع ٩٢/٧٥١٢ «الثمن: ٣ جنيهات»